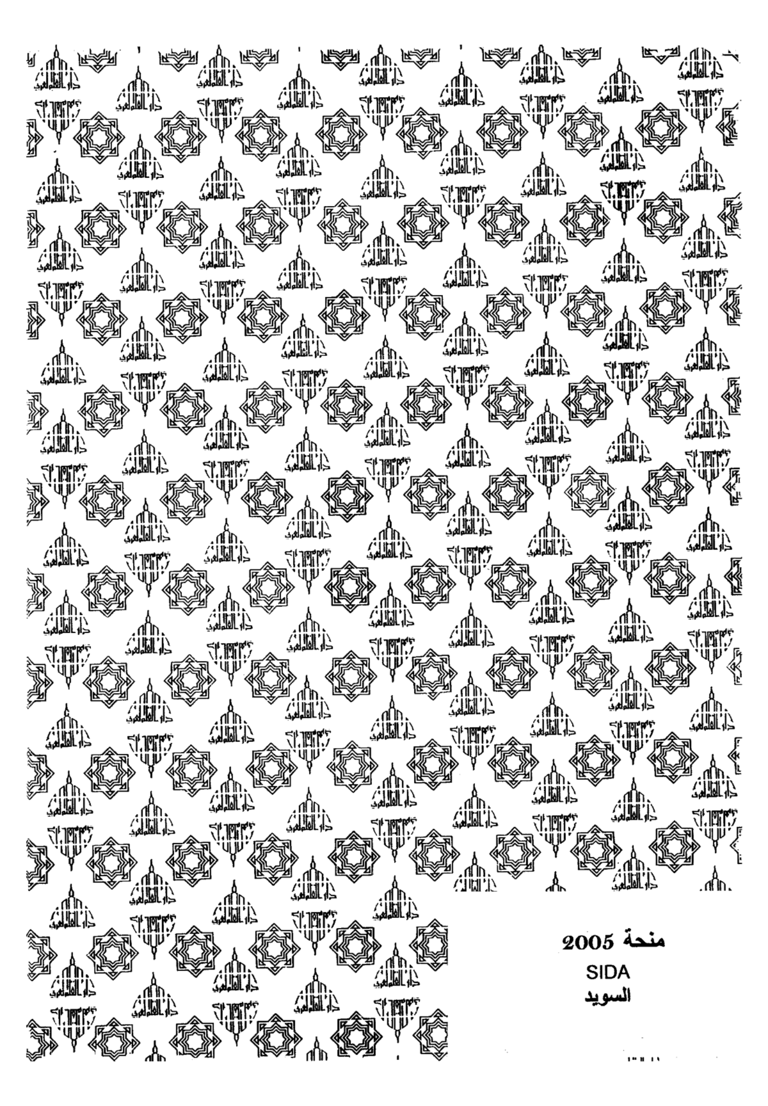
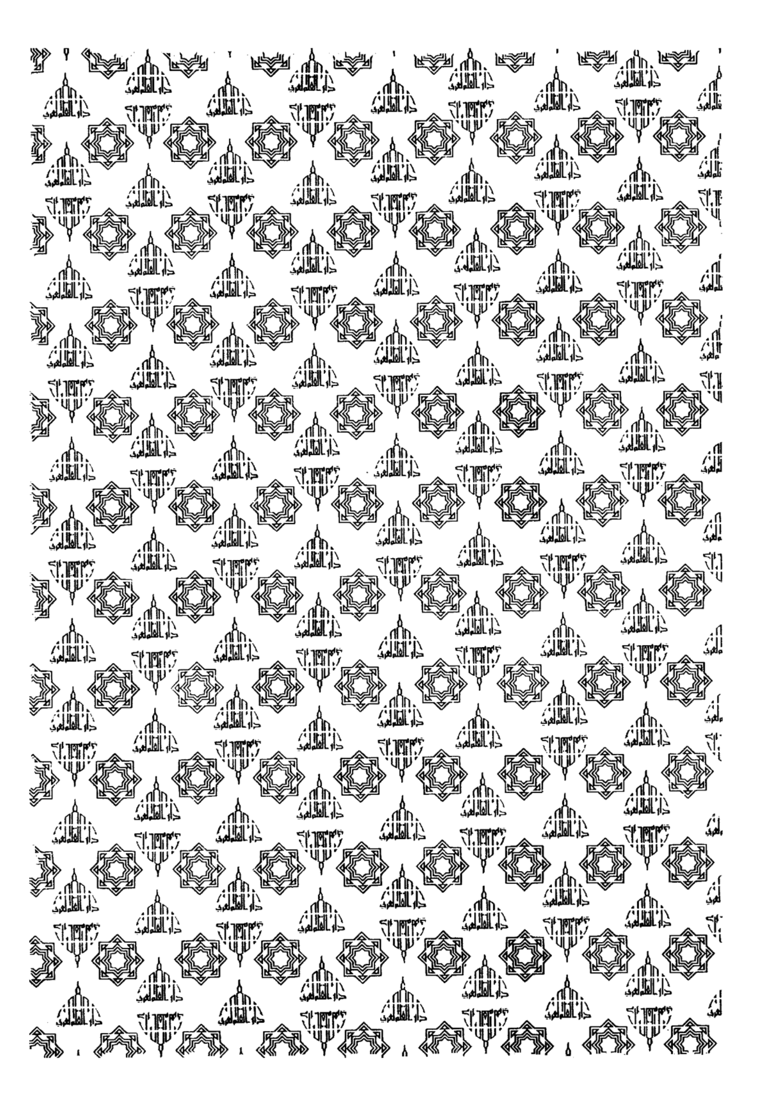

تاريخ شعراء العربية
شعراء
العصر العبَّاسي
الثاني
١ - ١٦
دار القلم العربي



منحة 2005
SIDA
السويد





اعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومولده

هو أبو عبادة ، ثم صار يكنى أبا الحسن ، الوليد بن عبيد ، من عشيرة بُحْتر الطائيّة ، والبُحْتر : القصير المجتمع الخَلْق ، وكان مولده في منطقة مَنْبِج في الشمال الشرقي من مدينة حلب ، وهي الآن تتبع من الناحية الإدارية لمحافظة حلب ، وتقع بينها وبين نهر الفرات . وكانت ولادته سنة ٢٠٤هـ .

حياته

درس الوليد علوم العربية وطرفاً من علوم الدين في مضارب قومه في منبج وباديتها ، وفي حلب ، وقال الشعر ، وتواترت إليه الأنباء أنّ أشعر الشعراء في عصره - أبا تمّام - يعقد في حمص مجالس أدبية يؤمُّه فيها الشعراء وهواة الأدب ، ويعرضون عليه أشعارهم ، فأغذّ إليه الخطا ،وحظِيَ بلقائه ، وعرض عليه شعره ، فأحسّ أبو تمام أنّ هذا الشاعر الناشئ ذو ملكَةٍ قويّة ، فشجّعه على المضيّ في هذا المضمار ، وقال له - وكان قد استمع إليه وإلى غيره أنت أحسن مَنْ أنشدني ، فحدِّثْني عن حالك . فشكا له البحتري سوء حاله ، فكتب له أبو تمّام كتاباً إلى أهل معرّة النعمان ينبئهم أن هذا الشاب على حداثة سنّه بارع في الشعر ، وأوصاهم به خيراً ، فلمّا قرؤوا الكتاب عُنوا بالشاعر وجعلوا له مرتّباً قدره أربعة آلاف درهم كلَّ عام ، وبدأ يمدح المشاهير بعد أن كان يمدح في منبج باعة البصل والباذنجان - كما رووا - واستمرّ يمدح الكبار في الشام والعراق عقوداً طويلة ، وتكسَّب بشعره ، حتى صار إذا مشى يمشي في موكب من غلمانه ، ومَلَكَ ضياعاً في العراق ، وضياعاً أخرى في الشام .

ليس هذا كل ما كان بين أبي تمام والبحتري ، فقد كان أبو تمّام أستاذاً للبحتري ، علّمه - كما روى ابن رشيق في كتابه (العمدة) - أن يتخيّر لقول الشعر الأوقات التي يكون فيها قليل الهموم ، صفْراً من الغموم ، وأن يتحرّى وقت السَّحَر ، إذْ تكون النفسُ قد أخذتْ حظَّها من الرَّاحة ، وإذا أراد النَّسيب[1] فَليجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً ، وليُكثرْ فيه من بيان الصّبابة ، وتوجُّع الكآبة وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذ في مدْح سيّد ذي أياد فينبغي أن يُشْهر مناقِبَه ، ويُظْهر مناسبه ، ويبيّن معالمه ، ويشرف مقامه ، وينضّد المعاني ، ويحذر المجهول منها .

ومّما قاله أبو تمام للبحتري أيضاً : "إيّاكَ أنْ تَشِيْنَ شعرَك بالألفاظ الرديئة وكُنْ كأنّك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجساد . وإذا عارضَك الضَّجر فأرح نفسَك ، ولا تُعْمل شعرَك إلّا وأنت فارغ القلب . واجعلْ شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حُسْن نظمه " .

مخالفة طريقته الفنّيّة لأبي تمّام

بقي البحتريّ وفيّاً لأبي تمّام طَوال حياته ، يعترف ، بأنه تابع له ، آخذ منه ، لائذٌ به ، وأنّ نسيمه يركدُ عند هوائه ، وأرضه تنخفض عند سمائه ، وأنّ أبا تمّام هو الأستاذ الرئيس .

لكنّ الناس وجدوا طريقةَ البحتري في طَرْق الشعر تباين طريقة أبي تمّام ، فتعصّب له فريق ، وتعصّب لأستاذه فريق آخر ، لكنّ ذلك لم يحمله

(١) النسيب : الغزل .

على النَّيْل من طريقة أبـي تمـام . وسـئل البحـتري في مجلـس عبـد ا لله بـن المعـتزّ أشعره خير أم شعر أبي تمّام ؟ وكان أبو العباس المبرّد حاضراً في المجلـس ، فقـال البحتري : أبو تمّام هو الرئيـس والأسـتاذ ، وا للهِ مـا أكلْـتُ الخبز إلّـا بـه ، ولا ينفعني أنْ يقدّمني الناس عليه ، ولايضـرّه ذلـك . فقـال المـبرّد : أبـى ا لله يـا أبـا عبادة إلّا أن تكون شريفاً من جميع جوانبك .

وبديهيّ أن الناس لم يكونوا جميعاً يفضّلون شعره على شـعر أبـي تمّـام ، وقد فصّل الآمدي في كتابه " الموازنة بين الطائيّين " أسباب ميل حِزْب كلّ من الشاعرين إليه ، فالذين يعجبهم عمق المعنـى ، ودقّـة الفِكْـرة ، وحِـدّة الفهـم ، وبراعـة الصـورة ، وضبابيـة الأسـلوب ، والتلويـن العقلـي ، والجمـال الـذي لا يكتشف إلّا للخاصّة الذين يسْعون إليه فيتبدّى لهم ، يفضّلون أبا تمّام وعلى هـذا المعيار جعله كثير من النّقاد القدامى أشعر أهل زمانه ، وإلى هـذا الموقـف انضـمّ من النقاد المُحْدَثين طه حسين ، وشوقي ضيف ، ونجيب البهبيـتي الـذي اختـصّ أبا تمام بكتاب هو خير ما كُتب عن هذا الشاعر من عصره إلى هذا اليوم .

وأمّا الذيـن يتعصّبـون لعمـود الشـعر القديـم ، وديباجتـه ، فيميلـون إلى البحتري .

أهمّ سمات طريقته

يتخيرّ البحتري الألفـاظ العَذْبـة الخلّابـة ، والعبـارة السلسـة ، والديباجـة المطبوعـة ، ويبتعـد في ألفاظـه وصـوره ومعانيـه جميعـاً عــن التكلّـف والتعقيـد ومستكرَه الألفاظ ووحشيّ الكلام .

وقال ابن الأثير في شعر البحتري : " هو السَّهْل الممتنع الذي تراه كالشمس قريباً ضوءها ، بعيداً مكانها ، وكالقناة ليّناً مسُّها ، خشناً سِنانُها [1]. وهو على الحقيقة قَيْنة الشعراء في الإطراب ، وعنقاؤهم في الإغراب " .

وقال المعري : " المتنبي وأبو تمّام حكيمان ، والشاعر البحتري " .

ومن يقرأ سينيّة البحتريّ يَرُعْهُ ما يجد فيها من جمال صوتي ، وجرس موسيقي ، وهو يلائم بين جرس كلماته ومعانيها ، وبين أصوات الألفاظ والقوافي ، يقول في تضاعيفها :

صُنْتُ نفسي عمّا يدنّسُ نفسي — وترفَّعْتُ عن جَدا كلّ جِبْس[1]

وتماسكْتُ حين زعزعني الدهر — التماساً منه لتعسي ونكسي[2]

حضرتْ رحليَ الهمومُ فوجّهْتُ — إلى أبيضِ المدائن عَنْسي[3]

أتسلّى عن الحظوظ وآسى — لمحلٍّ من آل ساسان دَرْس[4]

فكأنَّ الجرْماز من عدم الأُنْسِ — وإخلالــه بنيَّــةُ رمْــسِ[5]

لو تراه علمْتَ أنّ الليالي — جعلتْ فيه مأتماً بعد عُرْسِ[6]

فإذا ما رأيْتَ صورة أنطا — كيّةَ ارتعْتَ بين روم وفُرْسِ[7]

---

(١) القناة : الرمح . سنان الرمح : رأسه .   (٢) جدا : عطاء . جبس : لئيم .

(٣) نكس : خفض ، إدناء .   (٤) أبيض المدائن :قصر المدائن الأبيض .عنسي :ناقتي.

(٥) آل ساسان : حكام الفرس القدماء . درس : ممحوّ .

(٦) جرْماز : قصر من قصور المدائن . رمس : قبر .

(٧) الذي ينظر إلى آثار الجرماز المتهدم يعلم أنّه كان لأهله مجد ثم مضى .

(٨) كان على أحد الجدران صورة مرسومة لمدينة أنطاكيّة ، ورُسم فيها أيضاً جيشان للروم والفرس .

والمنايـــا مواثـــلٌ وأنـــو شـــر وان يزجي الصفوفَ تحت الدِّرَفْس[1]

في اخضرارٍمن اللباس على أصفر - يختـــال فـــي صبيغـــة وَرْسِ[2]

وعـــراك الرجـــال بيـــن يديـــه في خُفوتٍ منهم وإغماضِ جَرْسِ[3]

مـن مُشيح يهـوي بعـامل رُمْـحٍ ومُليـــح مـــن السِّـــنانِ بـــتُرْسِ[4]

تصفُ العينُ أنّهم جِدّ أحيـاءٍ - لهـــم بينهـــم إشـــارة خُـــرْس

يغتلـــي فيهـــم ارتيـــابي حتّـــى تتقرّاهـــم يـــداي بلمـــسِ[5]

إتقانه للوصف ، ووصفه للذئب

وَصْف إيوان كسرى من روائع البحتري ، ومن أبرع ما له في هذا الشأن أيضاً وصفه للذئب ، يقول :

وليلٍ كأنّ الصُّبْحَ فـي أُخْرياتِـهِ حشاشةُ نَصْلٍ ضَمّ إفْرِنْدَهُ غِمْدُ[6]

تَسَرْبلْتُهُ والذئبُ وَسْنانُ هـاجعٌ بعَيْنِ ابن ليلٍ مالَه بالكرى عَهْدُ[7]

---

(١) مواثل : حاضرات . أنو شروان : من مشاهير ملوك الفرس ، وهو قاتل مزدك داعية الإباحيّة . الدرفس : العلم . يزجي : يسوق .

(٢) أصفر : فرس أصفر اللون . ورس : نبْت أصفر اللون يُصْبغ به .

(٣) الصورة تمثّل معركة بين الروم والفرس .

(٤) مشيح : حذِر . المُليح : الذي يخاف ويحذر .

(٥) يغتلي فيهم ارتيابي : يزداد . تتقرّاهم : تتبعهم .

(٦) حشاشة : بقيّة . نصل : سيف . إفرنده : جوهره ووشيه . يشبّه الصبح حين يبدو خطّاً رفيعاً عند الأفق المظلم بسيف أُغْمِدَ إلا نَصْلَه .

(٧) تسربلْته : لبسْته ، أي سرْتُ فيه . ابن ليل : دائم السهر ، يريد اللصّ ، وسنان : ناعس ، نائم . الكرى : النوم الخفيف .

أثيرُ القَطا الكُدريّ عن جَثَماتِه | وتـألفُني فيه الثَّعالِبُ والرُّبْدُ(١)
وأطلسَ مِلْءِ العَيْن يحملُ زَوْرَهُ | وأضلاعُه من جانبَيْه شَوىً نَهْدُ(٢)
له ذنبٌ مثلُ الرِّشاءِ يجرُّهُ | ومتْنٌ كمتْن القَوْسِ أعوجُ مُنْأدُ(٣)
طواه الطَّوَى حتَّى استمرَّ مريرُهُ | فما فيه إلّا العظمُ والرُّوح والجِلْدُ(٤)
يُقَضْقِضُ عُصْلاً في أَسِرّتِها الرّدى | كقضقضةِ المقرورِ أرعده البَرْدُ(٥)
سما لي ولي من شِدَّةِ الجُوع مابهِ | ببيداءَ لم تُحْسَس بها عيشَةٌ رَغْدُ(٦)
كلانا بها ذئبٌ يحدِّثُ نفسَه | بصاحبهِ والجَدُّ يُتْعِسُه الجَدُّ(٧)
عوى ثم أقعى وارتجزت فهِجْتُهُ | فأقبلَ مثلَ البَرْقِ يتبعُه الرَّعْدُ(٨)

---

(١) الكُدْري : المائل إلى السَّواد والغبرة . جثمات : جمع جثمة ، من جثم الطائر إذا تلبّد بالأرض . الربد : جمع أربد ، وهو الأسد ، والنعامة .

(٢) أطلس : ذئب أغْبَرُ إلى سواد . ملء العين : طويل مهيب . الزَّوْر : أعلى الصَّدْر . الشوَّى : الأطراف . مفرد في لفظه جمع في معناه . نهد : بارز .

(٣) الرّشاء : حبل الدَّلْو . متن : ظهر . منأدّ : مُعْوَجّ .

(٤) الطّوى : الجوع . استمرّ مريره : استحكم عليه .

(٥) يقضقض عصلاً : يصوّت بأسنان صلبة معوَجّة . أَسِرّتها : أوسطها . الردى : الموت . المقرور : الذي أصابه القُرّ ، وهو البرد .

(٦) سمالي : خرج لي ، وقصدني . بيداء : صحراء . عيش رغد : طيّب واسع ، يريد (بحبوحة العيش) تصدّى الذئب للشاعر في صحراء قاحلة مقفرة .

(٧) كلّ منهما يطمع بإرداء الآخر ، وكلٌّ منهما عظيم ، لكنّ الحظّ قد يتعثّر بالعظماء ، أو لا يحالفهم .

(٨) أقعى : جلس على مقعدته . ارتجزْتُ : رفعت صوتي . هجته : أَثَرْتُه .

فأوجرتُه خرقاءَ تحسبُ ريشَها — على كوكب يَنْقَضُّ واللَّيْلُ مُسْوَدُّ[1]
فما ازدادَ إلا جُرْأةً وصرامةً — وأيقنْتُ أنّ الأمر منه هو الجِدُّ[2]
فأتبعتها أُخرى فأضللتُ نَصلَها — بحيثُ يكون اللُّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ[3]
فخرَّ وقد أوردتُهُ مَنْهلَ الرَّدى — على ظمأٍ لو أنَّه عَذْبَ الوِرْدُ[4]
وقمْتُ فجمَّعْتُ الحصى واشتويتُه — عليه ، وللرَّمضاء من تحتِه وَقْدُ[5]
ونِلْتُ خسيساً منه ثمَّ تركتُهُ — وأقلعْتُ عنه وهو مُنْعَفِرٌ فَرْدُ[6]

والأبياتُ متأثّرة إلى حدّ ما بقصيدة الفرزدق :

وأطلسَ عسَّالٍ وما كان صاحباً — دَعَوْتُ بناري مَوْهناً فأتاني[7]
فلمَّا دنا قلتُ ادْنُ دونَكَ إنّني — وإيّاكَ في زادي لمشتركانِ
فقلت تعشَّ فإنْ واثقْتَني لا تخونني — نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصطحبان
وأنتَ امرؤٌ يا ذئب والغَدْرُ كنتما — أُخَيَّيْنِ كانا أُرْضعا بلَبانِ[8]

---

(١) أوجرته : طعنته . خرقاء : سهم . شبّهه بشهاب منقضّ .

(٢) أصابه السَّهْم الأوّل لا في محل مقتل .

(٣) أضللت نصلها : أدخلته . بحيث يكون اللبّ والرعب والحقد : كناية عن أنّه أصابه في قلبه .

(٤)سقط الذئب قتيلاً وهو ظامئ إلى قتل البحتري،حريص على إهلاكه لو تيسَّر له ذلك.

(٥) الرمضاء : الأرض الحامية . وَقْدٌ : اتّقاد ، احتراق .

(٦) أكل شيئاً يسيراً من لحم الذئب ، ثم تركه . منعفر : ممرّغ في التراب . فرد : وحيد في تلك المنطقة .

(٧) أطلس : ذئب أغبر اللون . عسّال : متمايل المِشْية . موهناً : في جزء من أجزاء الليل

(٨) لبان : حليب واحد .

لكنْ مصاحبة الفرزدق لذئبه في تلك الليلة الـتي وصَـفَ كيـف أمضياهـا فقال :

فبتّ أقدّ الزّاد بيني وبينَهُ　　　على ضَوْءِ نارٍ مرّةً ودُخانِ[3]

تختلف عن قتل البحتري لذئبه .

وكلاهما يختلفان عن موقف الأحيمر السَّعْدي في قوله :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذْ عوى　　　وصوَّتَ إنسانٌ فكـدْتُ أطِـيرُ

يـرى اللـهُ إنّـي للأنيـسِ لكـارِهٌ　　　وتُبغضهمْ لـي مُقْلـةٌ وضَمِـيرُ

من وصفه للبِرْكة

يا مَنْ رأى البِرْكةَ الحسناءَ رؤيتُها　　　والآنسات إذا لاحتْ مَغانيها[4]

بِحَسْبها أنّها فـي فضـل رتبتهـا　　　تُعَدُّ واحـدةً والبحـرُ ثانيهـا

إذا النجـومُ تـراءتْ فـي جوانبهـا　　　ليلاً حسبْتَ سماءً رُكِّبتْ فيهـا

وكما كان البحتري موفّقاً في الوصف كان موفّقاً أيضاً في المديح ، ومن أحسن مدائحه قصيدته الرّائيّة في وصف المتوكل .

---

(٣) أقدّ : أقطع .

(٤) مغانيها : منازلها .

رائيّة البحتري في وصف المتوكل

ألّف البحتري هذه القصيدة سنة مائتين وخمس وثلاثين للهجرة ،وهو بحدود الثلاثين من عمره ، قد اكتملت ثقافته الأدبيّة ، وقطع مشواراً من التجارب الشعرية . والممدوح الذي يجلّه هو الخليفة المتوكّل ، وقد هنّأه بالعيد ومدحه .

واستهلّ الشاعر قصيدته -صُنْعَ القدماء الأوائل - بمقدّمة بين يدي غرضه الأساسي ، وجعل مقدّمته غزلاً بفتاة اسمها " عَلْوة " كان في أحلام شبابه يودُّ لو تكونُ حليلتَه ، فلم يتيسّرْ ذلك له ، وخطبها غيره ، وهو يرسم لها في هذا المطلع موقفاً مبايناً لموقفه ، ويسخّر لإيضاح ذلك ألواناً من " الطباق " ، وألفاظاً رقيقة ، وعبارات عذبة ، وجرساً موسيقيّاً متلائمَ الأصوات :

أخْفِي هوىً لكِ في الضّلوع وأُظهِرُ ... وأُلامُ في كمَدٍ عليكِ وأُعذَرُ

وأَراكِ خُنْتِ على النّوى مَنْ لم يخنْ ... عهدالهوى،وهَجَرتِ مَنْ لايَهْجُرُ[1]

هي إذاً على خلافه ، ترغبُ عنه إذا نأى ، وكانتْ علوة من نصيب صديقٍ للبحتري كان من قبلِ أنْ يتزوجها من ممدوحيه ، فلمّا اقترنَ بها هجاه هذا الشاعر ، وفي البيت الثاني " تصريع " لو أراد أن يبني عليه ، لأنه يستطيع أن يجعله هكذا :

وأراك خُنْتِ على النوى ... مَنْ لم يخُنْ عهدَ الهوى

(١) النوى : البعد .

ويتابع حديثه عن إعراض عَلْوة :

وطلبْتُ منكِ مودّةً لم أُعطَها ... إنّ المعنَّى طالبٌ لا يَظْفرُ[1]

هل دَيْنُ علوةَ يُستَطاعُ فيُقْتَضى ... أو ظلمُ علوةَ يستفيق فيُقْصر[2]

وهو يأخذ تعسر إيفاء دينها من قول كثير عزّة :

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفّى غريمَه ... وعزّةُ ممطولٌ معنًى غريمُها[3]

وهذه واحدة من ستّمائة سرقةٍ أدبية عدّها النّقاد للبحتري ، وقالوا إنّ مائة منها أخذها من أبي تمّام .

ويتابع تغزله بمعان واضحة ، وألفاظ منمّقة ، وعبارات مُنْسجمة ، وطبْعٍ موهوب :

بيضاءُ يُعْطيكَ القضيبَ قوامُها ... ويريكَ عينَيْها الغزالُ الأحورُ[4]

تَمْشِي فتحكُمُ في القلوب بدلِّها ... وتميسُ في ظِلّ الشّبابِ فتَخْطِرُ[5]

وبينما كان يتحدّث عن هواه توقّف بغتةً ، وانتقل من دون أن يلتمس حسن التخلُّص إلى مدح المتوكل :

---

(١) المعَنّى : من عنّاه ، إذا كلّفه ما يشقّ عليه .

(٢) يقتضى : يُطلب . يقْصر : يكفّ .

(٣) ممطول : مسوَّف .

(٤) الأحور : الجميل العين ، ألوانها صافية .

(٥) دلّ : جمال تُدلّ به . تميس ، تخطر : تتبختر .

اللــهُ مكّــنَ للخليفــةِ جعفــرٍ مُلْكـاً يُحَسـنُه الخليفـةُ جَعْفـرُ

نُعْمى من الله اصطفاه بفضلها والله يـرزقُ مـن يشـاء ويقـدر

فاسلمْ أمـير المؤمنيـن ولا تـزلْ تُعْطى الزّيادةَ في البقاءِ وتُشْكَرُ

عمّـتْ فواضلُـكَ البريّـةَ فـالتقى فيها المُقِلّ على الغنى والمُكْـثِرُ

هذا المدح مفاجئ ، ولم يحسن البحتري الخروجَ مـن الغـزل إلى المـدح ، ولكنّ أسلوبه بقي عَفْوِيّاً مطبوعـاً ، ونراه يعيـد في عجـز البيـت الأوّل كلمـة (جعفر) ، وكان ذكَرها في صدره ، من قبيل " ردّ العجز على الصَّدْر " ويطـابق بـين " يـرزق " و " يقـدر " و " والمقـلّ " و " المكـثر " والْتَفـتَ مـن الغيبـة إلى الخطاب حينما كان يتحدّث عن الخليفة المتوكّل " جعفـر " ، بصيغـة الغـائب ، فصار يدعو لأمير المؤمنين ، وهو المتوكل نفسه ، بلهجة الخطاب .

وكـان المتوكّـل قـد أتمّ صيـامَ رمضـان ، فـآنَ لـه يـومَ العيـد أن يتمتّـع بالإفطار ، والشاعر يهنئه بهذا العيد السعيد :

بالبِرِّ صُمْتَ وأنتَ أفضل صـائمٍ وبسـنّةِ اللـهِ الرضيّـةِ تُفْطِـرُ

فـانْعَمْ بيـوم الفِطْـر عيـداً إنّـه يومٌ أغرّ من الزّمانِ مُشَـهّرُ[1]

(١) أغرّ : مشرق . مشهّر : معروف .

وكان كلّ خليفة على مستوى فقهي وعلمي حميد ، ولذلك انتضى المتوكّل ليخطب في المسلمين في ذلك العيد ، وكان قد خرج إلى الصَّلاة في موكب رائع وسط رجال دولته ، يحفّ بهم جمهور غفير من الشعب وأفراد الجيش ، حتى أشبه الموكب جيشاً يبغي ساحةَ الحرب ، فهذه خيول تَصْهَل ، وأبطال تُغَمغم ، وغبار يقتم حتى تكلح منه الشمس ، ثم يسود السكونُ في المسجد ، إذ يرتقي الخليفة المنبر ، ويلقي خطبته ، محذّراً العصاة ، مبشّراً التُّقاة ، هادياً الناس إلى المحجّة البيضاء ، ثم صلَّوْا جميعاً :

أظهرْتَ عزّ الملك فيه بجحفلٍ	**لَجِبٍ يُحاطُ الدِّيْنُ فيه ويُنْصَرُ**(١)
خِلْنا الجبالَ تسيرُ فيه وقد غدتْ	**عُدَداً يسيرُ بها العديد الأكثرُ**
فالخيل تَصْهَلُ والفوارسُ تدّعي	**والبِيضُ تلمع والأسنّةُ تَزْهَرُ**(٢)
والأرضُ خاشعةٌ تميدُ بثِقْلِها	**والجوّ معتكر الجوانبِ أغبَرْ**
والشمسُ ماتعةٌ تَوَقَّدُ في الضُّحى	**طَوْراً ويطفئها العجاج الأكدَرُ**(٣)
حتى طلعْتَ بضوء وجهك فانجلى	**ذاك الدجى وانجاب ذاك العِثْيَرُ**(٤)
وافتنّ فيك الناظرون ، فإصبعٌ	**يُوْمَا إليكَ بها ، وعينٌ تنظرُ**

---

(١) الجحفل : الجيش الجرار . لجب : ذو جلبة .

(٢) البيض : السيوف . الأسنة : الرماح . تزهر : تلمع .

(٣) ماتعة : طالعة .

(٤) العِثْير : الغبار .

يجدون رؤيتك التي فازوا بها	من أنعُمِ اللهِ التي لا تُكْفَرُ
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهلّلوا	لما طلعْتَ من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيتَ إلى المصلّى لابساً	نُورَ الهدى يبدو عليكَ ويظهَرُ
ومشيتَ مشيةَ خاشعٍ متواضعٍ	للـه لا يُزْهَى ولا يتكبَّرُ
فلوَ انّ مشتاقاً تكلَّفَ غير ما	في وُسْعِهِ لمشَى إليكَ المنبرُ
أبَدْتَ من فصل الخطاب بخُطْبةٍ	تُنْبي عن الحقّ المبين وتُخْبرُ
ووقفْتَ في بُرْدِ النبيِّ مذكّراً	باللـه تُنْذِرُ تارةً وتبشّرُ
ومواعظٍ شفَت الصُّدور من الذي	يعتادُها وشفاؤها متعذّر
حتى لقد علمَ الجَهُولُ وأخْلَصتْ	نفسُ المروِّي واهتدى المتحيّرُ[1]
صلّوْا وراءكَ آخذين بعصمةٍ	من ربِّهم وبذمّةٍ لا تُخْفَرُ[2]

والأبيات منسابة لا تتلكّأ بغريب ولا بغموض ، كأنها " سلاسل ذهب" ، كما وصف الدارسون شعره ، وصُوَرُها عفوية ، لا تعتمد الطريقة البيانية (التشبيه والاستعارة) ، كصورة الموكب المتوجّه إلى الصّلاة ، وأحياناً تعتمد على الصور البيانية ، كما في تجسيمه الهدى ، فهو يشبهه بالنور ، تشبيهاً بليغاً إضافياً .

واستعمل البحتري الطباق (تنذر ← تبشر) ، وأطنب بالترادف ، وآلف قوافيَه مع أحشاء الأبيات ، وقد نجد بعض المبالغة في معانيه ، لكنْ من الخير أن

(١) المروِّي : المتأنيّ .

(٢) خفر الذمّة : لم يَرْعها .

نتذكّر العمل الجليل الذي أزجاه الله إلى المسلمين على يد المتوكّل ، وهو إيقاف فتنة المعتزلة الذي ساموا المسلمين سوء العذاب لعدم إجابتهم لهم في مشكلة خلق القرآن وهي فتنةٌ كانت منذ عصر المأمون عمّ المتوكّل ، وفي حياة أبيه المعتصم ، وأخيه الواثق .

وفي ختام القصيدة يهنئ البحتريُّ الخليفة بنَيْله الغفران من الله تعالى ، ومحبة الشعب ، والفضل الظاهر :

فاسعدْ بمغفرةِ الإله فلم يزل	**يهبُ الذنوبَ لمن يشاء ويغفرُ**
اللهُ أعطاكَ المحبّةَ في الورى	**وحباكَ بالفضل الذي لا يُنْكَرُ**
ولأنت أملأُ للعيونِ لديهمُ	**وأجلُّ قدراً في الصدور وأكبَرُ**

ومات البحتري سنة ٢٨٤هـ



٢

إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص.ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومولده ونشأته

ولد علي بن العباس بن جُرَيْج في مدينة بغداد سنة ٢٢١هـ من أب يوناني ، وأم فارسيّة ، وتلقّف العلوم الدينية والأدبيَّة والفلسفيّة في العاصمة العبّاسية ، وأفاد من كتاتيبها وحَلقات المساجد العلمية ، ومن مكتبة دار الحِكْمة العريقة .

ويسيل الشعر على لسانه ، فيتوجّه به إلى الوجَهاء ليتكسّب به ، ولكنّه لم يُصِبْ من ذلك ما أصابه منافِسُه البحتريّ ، وكان بينهما عداوة وبغضاء .

ملامحه الجسمية

كان لابن الرومي رأس صغير مستدير ، وجسم نحيل ، ولِحية كثَة ، وكان أَصْلَعَ ، وقد داهمه الشيب مبكّراً ، وتكاثرتْ عليه العلل والأسقام ، فأفسدتْ أعصابه ، فكانت مشيته مختلجة مضطربة ، وكان صلعه ما يزال يتوسّع حتى شمل كل رأسه فغدا أقرع .

سماته النفسية

كانت ملامح ابن الرومي النفسيّة مضطربة أيضاً اضطراباً شديداً ، فهو سريع التقلّب ، فقد يمدح في يومه أمراً ثم يذمه في غده ، فهو قد مدح ابن عمار ، وكان له صديقاً ، ثمّ انقلب عليه وهجاه ، وعلى عكس ذلك هجا الأخفشَ النحوي (علي بن سليمان) وأفحش ، ثمّ عاد ومدحه ، ووصفه بأنّه بحر من بحور العلم .

وعلى هذه الشاكلة يذمّ البخل ، ثم يعود فيمدحه ، ويقول :

لا تَلُمِ المَـرْءَ علـى بُخْلِـهِ ‏ ‏ ‏ ولُمْهُ يـا صـاحِ علـى بَذْلِـهِ
لا عجب بالبخل مـن ذي حجىً ‏ ‏ ‏ يكرم مـا يُكْرَمُ مـن أَجلِـهِ

وكما مدح البخلَ مدح أيضـاً الحقـد ، وذمَّ الـوَرْد ، ومـا مـن شـك أنّ اضطرابه العصبي أثّر في علاقته مع الناسِ ، فلم تكن موفّقة ، وكان يحسّ وكـأن الناس يحسدونه :

أَبَعْدَما اقتطعوا الأموال واتَّخذُوا ‏ ‏ ‏ حدائقـاً وكرومـاً ذات تعريـشِ
يحاسدوني وبيتـي بيتُ مَسْـكَنَةٍ ‏ ‏ ‏ قد عشَّشَ الفقرُ فيه أيَّ تعشـيشِ

وكان ابن الرومي يتطيَّر تطيراً شديداً[1] ، وكانتْ فيه سوداويّة ، وعرفَ الناسُ ذلك منه ، فكان بعضُهم يقرع عليه الباب صباحاً فإذا سـأله مـن الطّـارق ذكر اسماً غير اسمه ، من تلك الأسماء التي ينقبض لها ابن الرومي ، فإذا سمع ذلـك ابنُ الرومي صدَف[2] عن الخروج كلَّ يومِه . وهو حين يتشاءم إنّمـا يسـتجيب لاضطراب نفسه الذي ينعكس في مسير عقله ، فإذا به يحاكم الأشياء - أحياناً - ويربط بينها ربطاً غير صحيح ولا وثيق ، وآيةُ ذلك أنّه كان يتطيّر مـن اسـم " جعفر " وهو في اللغة الجَدْول ، والنّاقة الغزيرة اللّبن ، لكـنْ لأمـرٍ مـا كـان ابـن الرومي يجعله مـن الجـوع والفـرار . وقـد سَخِرَ أبـو العـلاء منـه ، لذهابـه هـذا المَذْهب ، وقال : لو هُدِيَ ابن الرومي لصَرَف اسمَ جعفر إلى النهر الجرّار .

---

(١) يتطيّر : يتشاءم .

(٢) صدَف : أعرض .

وكان ابن الرُّومي أيضاً نَهِماً شَرِهاً يحبّ الطعام حبّاً جمّاً ، مُفْرِطاً ، وهو حبّ هجا من أجله شهرَ رمضانَ المبارك ، وجعله يتغنّى بأنواع المآكل ، فشبّه السمك الأبيض بسبائك الفِضّة ، ووصف الدجاجة التي ظلّ يقشر جلدها الأحمر عن لحمها الأبيض ، وكأنّه يقشرِ تبْراً عن لجين ، وجعل العنبَ الرازقي مثل مخازن البلّور لصفائه وشفافيته ، وإفراطُ ابن الرومي في هذا المجال ـ على هذا النحو الشاذّ ـ ورّطه في شرب الخمرة، ليسلّي همومَه ، ولم يسلّها لشِقاوته بما يصنعه المسلم المهتدي الذي يذكر الله تعالى بأيّ من تلك الصِّيَغِ الكثيرة المأثورة ، التي تنجلي بها الأحزان ، وتُدْفع الكروب .

موته

مازال ابن الرّومي يقبل على الطعام مع نحوْلِه إقبالاً منقطع النَّظير حتى عرف الوزير القاسم بن عبيد الله وزير الخليفة المعتضد من أين يُؤْتَى ؟ وكان يكره ابنَ الرومي ويخافُ سَلاطة لسانه وحِدَة هجائه ، فأغرى به مَنْ دسّ له السُّمّ في لون من الطعام كان يحبّه ابن الرومي ، فصُرِع بذلك الطعام المسموم ، وكان مقتله سنة ٢٨٣ أو ٢٨٤هـ .

خصائصه الفنّيّة

ابن الرومي من الشعراء المقدَّمين في الهجاء ، يغوص وراء المعاني ، ويكثر التفريع فيها ، والتوليد منها ، حتى يأتي بالنادر الطَّريف المُعْجب ، وهو حسن الوصف ، بارع التصوير ، ذو قدرة فائقة على صوغ العبارات الطليَّة المنسجمة

وترقيشها بحُلى البيان أو البديع . وديوانه طويلٌ جدّاً ، فلا تشمل هذه الأحكام كلّ ذلك الديوان الذي نشر قسماً منه محمد شريف سليم ، وانتخب مجموعة منه كامل كيلاني ، وأخرجه بعد ذلك الدكتور حسين نصّار عن مخطوطات وجدها في دار الكتب المصريّة .

ومن يتأمّل في شعر ابن الرومي يجدْه أحياناً جميل الأسلوب والمعنى جميعاً ، كنحْو قوله :

ما أَنْسَ لا أنسَ خبّازاًمررْتُ بهِ	يدحو الرُّقاقةَ مثْلَ اللمح بالبَصَرِ[1]
ما بينَ رؤيتِها في كفّه كُرَةً	وبين رؤيتها قوراءَ كالقمر[2]
إلّا بمقدارِ ما تنداحُ دائرةٌ	في لُجّةِ الماء يُلْقى فيه بالحَجرِ[3]

فهاهنا سخّر لهذه الصورة الطريفة ألفاظاً مخيّرة ، جميلة ، لكنّه أحياناً لا يبالي إذا رَضِيَ معنى أنْ يسوقه بأسلوب مُغْرب فإذا هو يستعمل " اللّصابَ " لشعاب الوادي ، و " السَّخاب " للقِلادة ، و " المرثّ " للحليم الصبور في الخصام ، و "القَفْد " للصفع على القفا بباطن الكفّ .

وهو لم يسرف في تحلية شعريه بالمحسّنات البديعية ، لكنّه يستعملها أحياناً ، انظرْ إلى هذه المجاورة في قوله :

مُشْتَركُ الحَظِّ لا مُحَصِّلُهُ	محصِّلُ المَجْدِ غير مُشْتَركه
منتهكُ المال لا ممنَّعُهُ	ممنَّع العِرْضِ غير مُنْتهكِه[4]

---

(١) الرقاقة : الرغيف .　　(٢) قوراء : مبسوطة مرقّقة .

(٣) تنداح : تتوسّع . لجّة الماء : عمقه .

(٤) الممدوح مشترك الحظ مع الناس ، لكنه انفرد وحده بتحصيل المجد فلم يَشْرَكْه فيه أحد ، كما أنّه ينتهك أمواله بالعطايا ، على حين أنّ عرضه سليم مصون غير منتهك .

وقد يعمد إلى التَّرْصيع ، أو الجناس ، أو الطباق ، يقول مطابقاً بين المدح والهجاء ، والمنع والعطاء :

إذا ما المدح سار بلا ثوابٍ — من الممدوح فهو له هجاءْ
لأنَ الناسَ لا يخفَى عليهمْ — أمنعٌ كان منه أمْ عَطاءُ

وابن الرومي قد سبق أبا العلاء في التزام ما لا يلزم ، كقوله في ثقيل :

يا أبا القاسم الذي ليس يُدْرَى — أرصاصٌ كيانُه أم حديدْ
أنتَ عندي كماء بئرك في الصَّيف — ثقيلٌ يعلوه بَردٌ شديد

فالتزم هنا ثلاثة حروف . وقال في داره التي اغتصبها منه رجل من التجار وأجبره أن يبيعها ، فشكاه الشاعر إلى سليمان بن طاهر :

ولي وطنٌ آليتُ ألّا أبيعَه — وألا أرى غيري له الدَّهْرَ مالِكا
عَمرْت به شَرْخَ الشَّباب منعَّماً — بصُحْبة قومٍ أصبحوا في ظلالكا
وحبّب أوطانَ الرجال إليهمُ — مآربُ قضَّاها الشَّبابُ هنالكا
إذا ذَكَرُوا أوطانَهمْ ذكَّرتْهُمُ — عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا
فقد ألِفَتْه النَّفْسُ حتى كأنَّه — لها جسدٌ إنْ بانَ غُودرَ هالكا

من روّاد المدرسة الإبداعية (الرومانسية)

كان ابن الرومي مريض الجسم ، ملتهب الأعصاب ، حادَّ الزاج ، سريع الانفعال ، قويّ التأثّر ، ضيّق الصَّدْر ، كثير الطِّيَرة ، قلق النَّفْس .

ولو وقفنا على خصائص المذهب الفنّي الذي رادَه[1] ابنُ الرومي لوجدناه شديدَ التشابه مع مذهب الإبداعية (الرومانسية) الذي شاع في أوربا في النّصف الأوّل من القرن التاسع عشر وعرفتْه بيئة شعراء المهجر وبعض الأوساط في الشرق الأوسط مع بدايات هذا القرن العشرين .

١-وأولى خصائص مذهب ابن الرومي اضطرامُ عواطفه ، وعتوّ انفعالاته ، والتهابُ أحاسيسه وأعصابه ، وهي خصيصة لم يحاول أنْ يخفّفَ من عَنَتِها ، ولا أن يشغَلها باهتمامات تقيه سيئاتها ، بل اندفع بها يمارس الملاذّ بإسراف ، واندفع بها أيضاً إلى شيء آخر ، وهو عدم احتمال الآخرين ، وإصلاؤهم بنار هجائه ، حتى ضُرِبَ المثلُ به في هذا الشّأن ، فقيل " أهجى من ابن الرّومي " . يقول في مغنّيةٍ اسمُها شَنْطَفُ :

إذا ما شَنْطَفُ نكهتْ أماتتْ — فمن ندمائها قَتْلى وصرعَى[2]
يُلاقي الأنْفُ مِنْ فمِها عذاباً — وتَرْعى العَيْنُ منها شرّ مَرْعَى
وإنّ سكوتَها عندي لبُشْرى — وإنّ غِناءَها عندي لمَنْعَى
فَقرّطْها بعَقْربِ شَهْرَ زُوْرٍ — إذا غنَّتْ وطوّقْها بأفعى[3]
فإنْ جاءتْ فلا أهلاً وسهلاً — وإنْ ذهبتْ فلا حفْظاً ورُجْعَى

٢-والخصيصةُ الثانية أنّه كان يحبُّ الطّلاقةَ وألّا يتقيّد بشيء ، وعلّ هذا سرُّ حبِّه الطّبيعةَ ؛ يقول في وصف شمس الأصيل :

---

(١) راده : قاده .

(٢) نكهت : تنفّستْ .

(٣) قرّطْها : شَنّفْ أذنها . شهر زور : مدينة بإيران .

وقدرنّقت شمسُ الأصيلِ ونفّضتْ على الأفق الغربي ورَسْاً مُزَعزَعا[1]
وودّعت الدُّنيا لتقضيَ نحبَها وشوّلَ باقي عمرها فتشعشعا[2]
ولاحظت النُّوّارَ وهي مريضةٌ وقد وضعتْ خداً إلى الأرض أضرَعا[3]
كما لاحظَتْ عوّادَه عينُ مُدْنَفٍ توجّع من أوصابه ما توجّعا[4]

وكان دعاة الرومانسيّة قد عدّوا الفرار إلى الطبيعة من خصائص مذهبهم . وهو ادّعاء ، لأنّ كل الناس يحبّون الطبيعة الغنّاء .

٣-والخصيصة الثالثة : كان ابن الرومي ينزِعُ إلى عَرْضِ ما هو غريبٌ غير مألوف ، كقوله في أكول :

وأمّا يدُ البصريّ في كل صحفةٍ فأقْلَعُ من سَيْلٍ وأغْرَفُ من رَفْشِ[5]
أأوعدُه بالشعر وهو مسلَّطٌ على الإنس والجِنّان والطير والوحْشِ

وكان ابنُ الرومي نفسُه نَهِماً أكولاً كما رأينا .

٤-والخصيصة الرابعة : كان ابن الرومي يُكْثر من التّخييل والصُّوَر ، يقول في بائع الزّلابية ، وهي نوع من المعجّنات الحُلْوة المذاق ، تُقْلَى بالزيت ، وتُجْعل بشكل دوائر أو كُرَات :

---

(١) رنّق الطائر : رفرف بجناحيه من غير أنْ يطير . الأصيل : ما بين العصر والمغرب . الورس : نبات أصفر أو أحمر . مزعزعاً : محرّك بشدّة .

(٢) شوّل : نقص . تشعشع : تبدَّد .

(٣) النُّوّار : الزهر الأبيض . أضرع : ذليل .

(٤) مدنف : مريض . أوصاب : آلام .

(٥) رفش : ما يُجْرف به التُّراب .

ومستقرٌ على كُرسِيِّه تَعِبٍ	**روحي الفداءُ له من مُنْصَبٍ نَصِبِ**[1]
رأيتُه سحَراً يَقْلي زلابيةً	**في رقّة القشر ، والتجويفُ كالقصَبِ**
يُلْقي العجينَ لُجيناً من أناملِه	**فيستحيلُ شبابيكاً من الذَّهَبِ**

٥-والخصيصة الخامسة مزاجه النّاري ، وكثرة انتقاده وهجائه ، وهما انتقاد وهجاء قد يبلغان به حدّ النَّيْل من الخِلْقة التي فَطَر الله الناس عليها ، على شاكلة هَجْوه لشخص اسمه عمرو :

وجْهُكَ يا عَمْرُو فيهِ طُولْ	**وفي وجوهِ الكلابِ طُولْ**
وقد يُحامي عن المواشي	**وما تحامي وما تصول**[2]
مستفعلن فاعلن فعولن	**مستفعلن فاعلن فعُولْ**[3]
بيتٌ كمعناك ليس له معنىً	**سوى أنّه فُضولْ**

على أنّ انتقاده كان أحياناً يتوجّه إلى نفسه فيشبعها ملامة ، بسبب انشغالها بدنياها عن أُخْراها ، وهذا من أفضل ما اهتدى إليه في شعره ، يقول :

إنَ الليالِيَ والأيّام قد كشَفتْ	**من كيدِها كلَّ مستور ومَكْنُون**[4]
وخبَّرتْنا بأنّا من فرائسِها	**نواطقاً بفصيح غير مَلْحُونِ**[5]

---

(١) المُنْصَبُ والنَّصِب : المُتْعَب .

(٢) الكلاب قد تحامي أي تدافع عن الغنم ، لكنّ المهجوَّ لايفعل ذلك .

(٣)يسمّى هذا الوزن " مخلّع البسيط " .

(٤)مكنون : مستور .

(٥)ملحون : خاطئ .

نشكو إلى الله جَهْلاً قد أضَرَّ بنا — بل ليس جَهْلاً ولكنْ علْمْ مَفْتُون
أغوَى الهوى كلَّ ذي عقل فلستَ ترى — إلّا صحيحاً له أفعال مَجْنُون
هوى غَويٌّ وشيطانٌ له خُدَعٌ — مضلّلاتٌ وكيدٌ غير مأمون
أعجبْ به من عدوٍّ ذي منابذةٍ — مُصغًى إليه طَوالَ الدهر مَرْكُونِ[1]
وفي أبينا وفيه أيُّ مُعْتَبرٍ — لو اعتبرْنا برأيٍ غيرِ مَأْفُونِ[2]
حتّى متى نشتري دنيا بآخرةٍ — سفاهةً ونبيعُ الفَوْقَ بالدُّونِ
معَلَّلِينَ بآمالٍ تخادِعُنا — وزُخرفٍ من غرورالعيش مَوْضون[3]
ونجمعُ المالَ نرجو أن يخلّدَنا — وقد أبى قبلَنا تخليد قارون [4]

والخصيصةُ السَّادسة أن هذا الشاعر المنكود مع شقاوته هو أقرب إلى السّذاجة والبراءة ، ولن يصرفنا عن هذه الخصلة فيه ترديدُه لبعض العبارات الفلسفية ، ولا تأثّره بالمعتزلة ، ولا اطّلاعه على بعض الآثار اليونانيّة ، وكلّ ذلك فيه ، ولكنّه لا يمثّل مفتاح شخصيّته ، ولا جوانبها البارزة ، ولا سيما في شعره .

وتتمثّل براءةُ ابن الرومي في عِدّة مظاهر ، أوّلها حبّه لبيته ، الذي يسمّيه وطناً ، ومرّت بنا الأبيات المتحدثة عن ذلك .

والمظهر الثاني في حنينه إلى أيام حداثته ، وهذا واضح في قوله :

---

(١) ركن إليه : مال إليه .

(٢) مأفون : فاسد .

(٣) موضون : منسوج .

(٤) قصة قارون في سورة القصص (٧٦-٨٢) ، وكان من قوم موسى وكان واسع الثراء ، فلمّا عتا وطغى خسف الله تعالى به وبداره الأرض .

يذكّرني الشبابَ هوانُ عَتْبي   وصَدُّ الغانيات لدى عتابي [1]
يـا أسـفا ويـا جزَعـا عليـه   ويـا حزنـا إلـى يوم الحسـابِ

والمظهر الثالث تلطُّفه في عتاب صديق له جفا وده ، فصار ابن الرومي يستلينه ليعود إلى مودّته ، يقول في همزيته :

يـا أخـي أيـن ريْـعُ ذاك الإخـاءِ   أين ما كان بيننـا مِنْ صَفـاءِ[2]
أينَ مِصْداقُ شاهد كان يحكـي   أنّك المخلصُ الصحيحُ الإخـاءِ
تركْتني . -ولم أكنْ سيّئَ الظنّ-   أسـيءُ الظنـون بالأصدقـاء
وأنـا المَـرْءُ لا أسـوم عتـابي   صاحباً غيرَ صَفْوةِ الأصفيـاء[3]

٧-والخصيصةُ السابعة : كان يغلب عليه الأسى ، وتكتنفه الكآبة ، وتغلب عليه الطِّيَرةُ ويحوطه عالم من الهواجس والوساوس والقلق والانفعالات المتضاربة المضطربة ، وكل ذلك يدلُّ على أنه كان مريضا ًوهو مرض جعله يعتذر عن زيارة الكاتب أحمد بن ثوابة ، لأن بينهما نهر دجلة وهو يتشاءم من عبوره ، إذ أنّه لا يعرف السّباحة ، فلو انقلب به القارب لأضحى في قعر ذلك النهر . والشاعر شديد الخوف من الماء حتى لو رآه في كوز :

(١) العَتْب : العتاب . الغانيات : الشابّات الجميلات بِخلْقتهنّ لا بالمساحيق والدهون .

(٢) ريع الإخاء : ثمرته .

(٣) أسوم عتابي : أقصد به .

وأمّا بلاءُ البَحْر عندي فإنّه	طواني علــى رَوْع مــع الرُوح واقب[1]
ولمْ لا ولوأُلقِيتُ فيه وصخرة	لــو افيــتُ منــه القَعْــرَ أوّل راســبِ
ولم أتعلّمْ قطّ مـن ذي سباحةٍ	سوى الغوص،والمضعوفُ غـيرُ مغالِبِ[2]
فأيسرُ إشفاقي من الماء أنّني	أمــرُ بــه فـــي الكــوز مــرّ المُجَــانِبِ

كان ابن الرومي شديد التأثّر بما حوله ، حادّ الإحساس ، وهيّأه ذلك أنْ يجيد في كل موضوع يثير العاطفة ، فعندمـا نكَـبَ الزنـج مدينـة البصـرة ، سنة ٢٥٧هـ ، وفتكوا بأهلها وأهلكـوا الحـرث والنّسْـل ، نَسِـيَ هـذا الشّـاعرُ محنتـه الخاصّة ، وتبرّمه بمن حوله ، وصار يتعاطف مع المنكوبين ، ويقول :

ذادَ عـن مقلتـي لذيــذ المنــام	شُغْلُها عنه بالدموع السّجام[3]
أيَّ نومٍ من بعدما حلّ بـالبصرة	ـ مـا حـلّ مـن هَنـاتِ عظـام[4]
أيَّ نــومٍ مــن بعدمــا انتهــك	ـ الزّنْـجُ جهاراً محـارمَ الإسـلام
لهفــي عليـك أيتهــا البصــرة	ـ لهفـاً كمثـل لَهْـب الضّــرام
كم أخٍ قـد رأى أخـاه صريعـاً	تَـربَ الخدِّ بين صرعى كِـرَامِ
كـم أبٍ قـد رأى عزيــزَ بنيْــهِ	وهـو يُعْلَـى بصـارم صمصـام[5]

---

(١) واقب : مستكنّ . رَوْع : خوف .

(٢) المضعوف : الضعيف .

(٣) ذاد : دفع . السّجام : المتواصلة .

(٤)هنات : أشياء .

(٥)صمصام : سيف قاطع حادّ .

كم رضيعٍ هناكَ قد فطموه بشبا السيف قبل حين فِطامِ[1]
كم فتاةٍ بخاتَمِ اللهِ بِكْرٍ فضحوها جهْراً بغير اكتتام
أين تلك القصور والدورُ فيها أيـنَ ذاك البنيانُ ذو الإحكام؟
انفِرُوا أيّها الكِرامُ خفافاً وثقالاً إلى العبيد الطَّغامِ[2]

مآسيه الخاصّة

إذا انتقلنا من هذه المأساة العامة إلى حياة ابن الرومي الخاصَّة وجدناها مغشَّاة بالنكبات ، محفوفة بالفجائع ، فقد توفّي أبوه وهو غضٌّ العود ، فكفَلَتْه أمُّه وأخ أكبر له ، ثم ماتتْ أمّه ومات أخوه ، وكان له ثلاثةُ أطفال ، فمات أوسطهم ، ثم مات الآخران ، ثم ماتتْ زوجته . ولابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط ، واسمه محمد ، قصيدة من عيون الشعر العربي ، وهي تفيض بالعبرات ، يقول فيها :

بكاؤكما يَشْفي وإن كان لا يُجْدي فجودا فقد أوْدَى نظيرُ كما عندي[3]
ألا قاتل اللهُ المنايا ورميَها من القوم حبّاتِ القلوب على عَمْدِ
توخّى حِمامُ الموتِ أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العِقْدِ[4]
على حين شِمْتُ الخير من لمحاتِه وآنسْتُ من أفعاله آيةَ الرُّشْدِ[5]

---

(١) شبا السيف : حدّه .

(٢) الطَّغام : اللئام .

(٣) لا يجدي : لا ينفع . أودى : هلك ، مات .

(٤) توخّى : اختار .

(٥) شمت الخير : توقّعته ، رأيته . آنست : علمت ، وجدت .

طواه الرّدى عني فأضحى مزارُهُ بعيداً على قرب قريباً على بُعْدِ

لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدَها وأخلفت الآمال ما كان من وَعْدِ

لقد قلّ بين المهد واللّحْد لُبثُهُ فلم ينْسَ عهدَ المهد إذ ضُمّ في اللّحدْ

ألحّ عليه النّزْف حتى أحالَه إلى صُفْرةِ الجاديّ عن حمرةِ الوَرْدِ[1]

وظلّ على الأيدي تساقَطُ نفسُه ويذوي كما يذوي القضيب من الرّنْدِ

لعَمْري لقد حالتْ بيَ الحالُ بعدَه فيا ليتَ شعري كيف حالتْ به بعدي؟

ثَكِلْتُ سروري كلّه إذ ثكلتُه وأصبحتُ في لذّات عيشي أخا زُهْدِ

أريحانةَ العينين والأنف والحشا ألاليت شعري هل تغيّرْتَ عن عهدي؟

ألامُ لما أُبْدي عليك من الأسى وإنّي لأُخفي منك أضعافَ ما أُبْدي

محمّدُ ما شيءٌ تُوُهِّمَ سلوةً لقلبيَ إلّا زاد قلبي من الوَجْدِ

أرى أخويكَ الباقيين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزّنْدِ[2]

إذا لَعِبا في ملعبٍ لك لذّعا فؤادي بمثل النّار من غير ما قَصْدِ

---

(١) الجادي : الزعفران .

(٢) أورى : أشدّ إشعالاً .

عليكَ سلامُ اللهِ منّي تحيّةً ومن كلّ غيثٍ صادق البَرْق والرّعدِ

وختام القصيدة يذكرنا بقول جرير في نهاية مرثيته لامرأته :

فسقَى صدى جدَثٍ بِبرقةِ ضاحكٍ هَزِمٌ أجشُّ وديمةٌ مِدْرارُ[1]

---

(١) صدى : جثمان . جدث : قبر . برقة ضاحك : اسم موضع . هزم : غيث . أجشّ : فيه جلبة لكثافته وما يصحبه من رعد . ديمة : سحابة طويلة السَّكْب . مدرار : سخيّة ، ذات ماء كثير .



٣

إعداد

الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مولده ونشأته

وُلِدَ عبد الله بن المعتزّ بن المتوكّل سنة ٢٤٧ هـ قبل مقتل جدّه الخليفة المتوكّل بأربعين يوماً ، ونشأ في فترة الاضطراب السياسي التي دامت قرابة تسع سنوات (٢٤٧ - ٢٥٦) ، وتجرّع مرارةَ تلك الفترة ، إذ قُتل أبوه المعتزّ سنة ٢٥٥ بعد أن حكم أربع سنين ، ونُفِي عبد الله بن المعتزّ هو وأمّه وجدّته إلى مكّة المكّرمة .

أُعيد بعد ذلك إلى " سامراء " ، واهتمّت جدّته بتربيته ، وأغدقت على مؤدِّبيه ، وتخيَّرتْهُمْ من الأعلام الجهابذة ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقي ، والمبرّد ، وثعلب ، والبلاذري ..

ثقافته

عهدتْ جدّته إلى البلاذري أن يدرّسه ، فامتعضَ مؤدّب له قديم هو أحمد بن سعيد الدمشقي ، ولم يعد يأتيه ، فكتب إليه عبد الله بن المعتزّ ، وكان عمره ثلاثة عشر عاماً :

أصبحْتَ يا بنَ سعيد حُزْتَ مكرمةً	عنها يقصِّر مَنْ يحفَى وينتعل
سَرْبَلْتني حكمةً قد هذّبتْ شِيَمي	وأجّجت غَرْبَ ذهني فهوَ مُشتَعِلُ[١]
أكون إنْ شئتُ قسّاً في خطابته	أو حارثاً وهو يوم الفخر مُرتَجِلُ[٢]

---

(١) سربلْتني : ألبستني . غرب الذهن : حدّته وتوقّده .

(٢) قس بن ساعدة الإيادي من مشاهير الخطباء في الجاهليّة . والحارث بن حلِّزة شاعر من شعراء المعلّقات العشر .

وإنْ أشــأ فكزَيْــدٍ فــي فرائضِــه **أو مثل نعمانَ ما ضاقتْ به الحِيَلُ[1]**
أو الخليـل عروضيّـاً أخـا فِطَـنٍ **أو الكسـائيَ نحويـاً لــه عِلَــلُ[2]**

فقد تأدّب عبدُ الله ، فهو خطيبٌ مصقع ، وشاعر بارع ، وتفقّه ودرس علوم العربيّة من عروض ، ونحو ، وعلَلٍ نحويّـة ، واطّلع على المنطق والفلسفة والفلك ، والتاريخ .

وكان البحتريّ قد ألمع إلى مباكرته المعارف ، فقال :

أبا العبّاس بَرَّزْتَ على قومِكَ **آدابــاً وأخلاقــاً وتميــيزا[3]**
فأمّـا حلبـةُ الشّـعْر فَتَسْـتَوْلي **على السَّبْقِ بها فَرْضاً وتميـيزا**

وممّا اطّلع عليه ابن المعتزّ أيضاً أطرافٌ من علم الفلك والتّنجيم ، إذْ نـراه يقول :

ولا تفزعنْ منْ كلّ شيءٍ مفزِّعٍ **فما كُلّ تربيع النُّجومِ بِضائرِ**

وهو هنا ينهى عن الأخذ بأقوال العرّافين والمنجّمين ، فيذكّرنا بصنيع أبي تمام في قصيدته التي عرض فيها لفتح عمّورية .

---

(١) زيد بن ثابت ﷺ أعلم الصّحابة في علم الفرائض (المواريث) . والنعمان بن ثابت هو اسم الإمام أبي حنيفة ﷺ .

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري واضع علم العروض.والكسائي أحد القراء السّبعة ورئيس مدرسة الكوفة في النحو .

(٣) الأبيات من بحر الهزج .

مـؤلّـفـاتـه

لابن المعتزّ ديوان شعر تطرَّق فيه لأكثر أغراض الشعر العربي من فخر ومدح وغزل وهجاء ووصف ورثاء وزهد ....

وله كتاب البديع ، وهو أوّل من ألّف في هذا الباب ، ولذلك لم يقصره على البحوث المعروفة اليوم بهذا الاسم ، وذكر فيه سبعة عشر لوناً ، وأراد أن يبيّن أن العباسيين ليسوا أوّل مَنْ طرقها ، فهي منثورة في القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر القديم .

وله أيضاً طبقات الشعراء ، وحلى الأخبار ، وأشعار الملوك ، والشراب ، وفصول التماثيل في تباشير السرور ، والزهر والرياض ، والجوارح والصيد ، والجامع في الغناء ، والرقاب ، ومكاتبات الإخوان ، والسَّرقات .

مع عمّه المعتمد

وافقت نشأة ابن المعتزّ فترة اضطراب سياسي ردّها المؤرّخون إلى استفحال شأن المماليك الأتراك الذين استكثر منهم المعتصم ، إذ نراهم يوقدون فتنةً نكراء ويقتلون الخليفة المتوكّل بن المعتصم ، بعد أن حكم خمسة عشر عاماً (٢٣٢ - ٢٤٧) ، فجاء بعده ابنه المنتصر ، وكان متّهماً في الاشتراك مع الأتراك في قتل أبيه جعفر المتوكّل ، لكنّه لمّا وصل إلى الخلافة كاد للأتراك ، فسمُّوه سنة ٢٤٨ هـ ، ولم يَحْكم سوى أشهر .

جاء بعده عمّه المستعين بن المعتصم (٢٤٩ - ٢٥٢) ، فبويع ، ويبدو أنه أراد الحَجْر على ابن أخيه (المعتزّ بن المتوكل) لطمعه في الخلافة ، ومع أن سلطة الأتراك كانتْ واسعة قَتَلَ المستعين زعيميْن كبيرين لهم وهماوصيف وبغا، ونفى زعيماً ثالثاً هو باغر الذي كان قد فتك بالخليفة المتوكل (أخي المستعين) .

لكنَّ الأتراك شغبوا عليه ، وأخرجوا المعتزّ من الحبس ، وبايعوه ، وهو ابن عشرين سنة ، فقتل عمّه المستعين بن المعتصم ، وكانت مبايعة المعتزّ بن المتوكل سنة ٢٥٢ هـ .

حكم المعتزّ قرابةَ أربع سنين ، كان خلالها مستضعفاً أمام المماليك الأتراك ، وطالبوه مرّة بأرزاقهم ، فعجز عن إعطائهم ، فخلعوه ، وولَّوْا محمد ابن الخليفة الواثق بن المعتصم ، وأماتوا المعتزّ تعطيشاً . وتلّقب محمد بن الواثق بالخليفة المهتدي ، وكان ذا ورع وتقوى ، وأمضى مدّة خلافته كلّها صائماً وهو ابن عم المعتزّ ، ولكنه قُتل على يد هؤلاء الشغبيّين سنة ٢٥٦ ، وكانوا عندما بايعوه قد أبعدوا عبد الله بن المعتزّ وجدّته (قبيحة أم المعتزّ) إلى مكّة المكّرمة ، وسجنوا المعتمد بن المتوكل (أخا المعتزّ) .

فلما قتلوا المهتدي اتّجهوا إلى سجن قصر الجوسق ، وأخرجوا المعتمد بن المتوكّل بن المعتصم بن الرَّشيد ، وبايعوه ، فاستعمل أخاه الموفّق طلحة على المشرق ، والمعتمد هو ابن عم المهتدي (الخليفة الذي قبله) ، وعمّ عبد الله بن المعتزّ ، وهو الذي استقدمه من مكّة إلى العراق ، بعد تسلُّمِهِ الحكم ، ولم يكن المعتمد من الجدّ والاستقامة على ما كان عليه أخوه القائد المظفّر الموفّق طلحة ابن المتوكّل ، وذلك الذي أنشأ بينهما سحابة من الارتياب ، وضعف الثّقة ، وأورثهما أيضاً شيئاً من الاختلاف ، ثمّ مات الموفّق طلحة سنة ٢٧٨ هـ ، ومات المعتمد سنة ٢٧٩ هـ .

وكان بين المعتمد وابن أخيه عبد الله بن المعتزّ تدانٍ في المَشْرب ، فقال ابن المعتزّ يمدح عمَّه :

يا خير مَنْ تُزْجَى المطيُّ له	**ويُمِرُّ حبلَ العهد مُوثِقُهُ[1]**
أضحى عنانُ المُلْك مُقتسراً	**بيديكَ تحبسُه وتُطْلقُهُ[2]**
فاحكمْ لكَ الدنيا وساكنها	**ما طاشَ سهمٌ أنتَ مُوفِّقُهُ[3]**

في عهد المعتضد

تولى الحكمَ بعد المعتمد ابن أخيه المعتضد بن الموفق طلحة وكانت فيه شمائل من أبيه الموفّق طلحة ، فجدَّدَ مُلْكَ بني العباس ، وكان قد ضَعُفَ وكاد يزول ، وتسلّل إليه الخَلَلُ منذ مقتل المتوكّل ، وفي ذلك يقول عبد الله بن المعتزّ :

أمَا ترى مُلْك بني هاشمٍ	**عاد عزيزاً بعدما ذللا**
يا طالباً للملك كنْ مثلَه	**تستوجبُ الملك ، وإلاّ فلا**

واعتلَّ المعتضد سنة ٢٨٩ هـ ، وكان في السابعة والأربعين من عمره ، فقال عبد الله بن المعتزّ :

---

(١) تزجي : تُساق . يمرّ : يبرم ، موثق : قاطعه (منشئُه) .

(٢) عنان : رسن . مقتسراً : خاضعاً .

(٣) موفقه : مسدّده ، رائشه .

طار قلبي بجناح الوجيبِ　　　جزعاً من حادثات الخطوبِ[1]
وحِذاراً أن يشاكَ بسوءٍ　　　أسَدُ المُلك وسَيفُ الحروبِ[2]

ومات الخليفة المعتضد في تلك السنة نفسها (٢٨٩ هـ) فقال ابن عمه (عبد الله بن المعتزّ) يرثيه :

يا دَهْرُ وَيْحَكَ ما أبقيتَ لي أحدا　　　وأنتَ بالله والدُ سوء تأكلُ الوَلَدا
أستغفر اللهَ ، بل ذا كلُّه قَدَرٌ　　　رضيتُ بالله ربّاً واحداً صَمَدا[3]
يا ساكنَ القبر في غبراءَ مُظْلمةٍ　　　بالطّاهريّة مُقْصَى الدار منفردا[4]
أينَ الجيوشُ التي قد كنت تُنْجبها　　　أينَ الكنوزُ التي أحصيتَها عَددا
أينَ السَّريرُ الّذي قد كنتَ تملؤُه　　　مهابةً ، مَنْ رأتْه عينُه ارتعدا[5]
أين الأعادي الأُلَى ذَلَّلْتَ مُصْعَبَهم　　　أينَ الليوثُ التي صيرتَها بدَدا ؟[6]
أين الجيادُ التي حجّلتَها بدمٍ　　　وكنَ يحملْن منكَ الضَّيْغَم الأسدا ؟
أين الرّماحُ التي غذّيتَها مُهَجاً　　　مذ مُتَّ ما وردَتْ قلباً ولا كبدا
أينَ الوصائفُ كالغزلان راتعةً　　　يسحَبْنَ من حُلَلٍ موشيَّةٍ جُدَدا ؟[7]
أين الوثوبُ إلى الأعداء مبتغياً　　　صلاحَ مُلْك بني العباس إذْ فسدا ؟
ما زلْتَ تقسِرُ منهم كلَّ قَسْوَرةٍ　　　وتحطم العاليَ الجبّار معتمدا
ثمَّ انقضيت فلا عينٌ ولا أثَرٌ　　　حتى كأنّك يوماً لم تكن أحدَا

---

(١) من البحر المديد . الوجيب : اضطراب القلب .

(٢) يُشاك : تصيبه شوكة .

(٣) لا يجوز سبّ الدهر ، ولا ذمّه ، لذلك استغفر . صمد : مقصود .

(٤) غبراء مظلمة : القبر . الطاهريّة : اسم موضع . مقصى : مُبْعَد .

(٥) مهابة : تمييز .　　　(٦) بدد : متفرّقة .

(٧) موشية : مزدانة . جدد : طرُق .

خلفَ المعتضدَ على الحكم ابنه عليّ (المكتفي با لله) ، فنهضَ بأعباء الخلافة من عام ٢٨٩ هـ إلى عام ٢٩٥ هـ ، وفيه مات المكتفي شاباً وهو ابن إحدى وثلاثين سنة .

وَلَدُ ابن عمّه يُطيح به

بعد موت المكتفي آلتْ مقاليد الخلافة إلى أخيه جعفر بن المعتضد الملقّب بالمقتدر با لله ، وكان صغيرَ السنّ ، فطمع قوم بخلْعه واستخْلاف عبد ا لله بن المعتزّ ، ونجحوا إلى حِين يسير[1] ، ولكنه لم يزدْ على يومٍ وليلة ، وبعدهما استردّ أنصار المقتدر له الحكومة ، وقتلوا عبد ا لله بن المعتزّ الذي كان قد لقّب بالغالب . وما كان أغناه عن ذلك " الانقلاب " الذي تورّط فيه ، وما كان له فيه ولا في السياسة كبير هوى ، إنّما دلاّه بعضُ المشتغلين بالسّياسة ، فما تمتّع بالكُرْسيّ سوى يوم وليلة ، ثم أُديل منه ، ومن الطّريف أنّ عبد العزيز سيّد الأهْل[2] ألّف في سيرة ابن المعتزّ كتاباً أسماه " يوم وليلة " ، وقال لي عندما زرتُه

(١) تسلّم المقتدر الحكم وهو في الثالثة عشرة من عمره ، فلما نشبت الثورة عليه بقيادة ابن المعتزّ كان يلعب بالأُكْرة (الكرة) أمام قصره ، فلمّا لمح الثوار هرب إلى داخل القصر . ولم يقتله الثائرون .

(٢) عبد العزيز سيد الأهل : شاعر مصري من أعضاء جمعية الشبّان المسلمين ، كان يدرّس في معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ، ودرّس في بلدان كثيرة خارج مصر ، وكتب ما ينوف على خمسة وعشرين كتاباً ، ثقافته حسنة ، وهو ممّن يتزلّفون إلى أولي الأمر ابتغاء التكسّب ، له مدح للملك فاروق ، وعبد الناصر ، والسّادات ، وكتاب عن جعفر الصّادق درّ عليه مالاً طائلاً ، وكتاب في جمال الدين الأفغاني ، وآخر في مدخل إلى التصوّف .

في منزله بحدائق حلوان بالقاهرة خلال وفادتي إلى مصر : إني كتبتُ هذا السِّفر في يوم وليلة أيضاً ، فقط . وأفاد أحمد كمال زكي في كتابه " عبد الله ابن المعتزّ " كثيراً من كتّاب سيّد الأهل .

ويمكن القول أخيراً إنّ تلك الفترة من الاضطراب السياسي لم يحظ فيها المسلمون بحاكم كُفْء يقمع الفتن ، وينهض بأعباء الحُكْم ، نهوض الراشدين ، أو الأمويين ، أو حكام العصر العباسي الأوّل ، واستغلّ أصحاب المنازع الانفصاليّة ذلك إلى درجة أنّ بعضهم صنع صنائعَ يندَى لها جبين الإنسانية ، من دون أنْ يتمكّن أولو الأمر من وضع حدّله أو ردعه ؛ قال السيوطي في تاريخ الخلفاء : " وفي هذه السنة (٣١٧ هـ) سيّر المقتدر ركب الحاجّ مع منصور الديلمي ، فوصلوا إلى مكّة سالمين ، فوافاهم يومَ التروية عدوُّ الله أبو طاهر القِرْمطيّ ، فقتل الحجيج في المسجد الحرام قتلاً ذريعاً ، وطرح القتلى في بئر زمزم ، وضرب الحجر الأسود بدبّوس[1] فكسَره ، ثمّ اقتلعه ، وأقام بها أحد عشر يوماً ثمّ رحلوا ، وبقي الحجر الأسود عندهم (في منطقة البحرين) أكثر من عشرين سنة ، ودُفع لهم فيه خمسون ألف دينار (ليعيدوه) فأَبَوْا ، حتى أُعيد في خلافة المطيع .

قال محمد بن الربيع بن سليمان : كنت بمكّة سنة القرامطة ، فصعد رجل لقلع الميزاب وأنا أراه ، فعِيل صبري ،وقلت : يارب ما أحلمَك ! فسقط الرجل على دماغه فمات وصعد القرمطي (أبو طاهر) على باب الكعبة ، وهو يقول :

أنا بالله وبالله أنا … يخلُق الخَلْقَ وأُفْنيهم أنا

(١) دبوس : قضيب من حديد مُدَملَكُ (أي رأسه مملّس مستدير) .

ولم يفلح أبو طاهر القرمطي بعدها ، وتقطّع جسده بالجدري [1] . وقتل الشّغبيّون الخليفة المقتدر سنة ٣٢٠هـ .

أسلوب الشاعر عبد الله بن المعتزّ

لعلّ أهم شاعرين أثّرا في ابن المعتزّ أبوه ، والبحتري ، ويمكن القول إن أغلب ما تركه يعدّ حسناً أو جيداً ، وأهم ملامحه دقة الإيقاع الصوتي ، ونجاحه ، وجمال نغمه ، واعتناؤه بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق ، وكان قد عرض لها - كما سلف - في كتابه البديع الذي لم يَقْصِرْه على ما يندرج اليوم في علم البديع فقط ، وهو يعدّ في جماعة الشعراء المحافظين في أسلوبهم على نهج القدماء وعمود الشعر القديم ، بصفة عامّة .

المديح في شعره

مدح عبد الله بن المعتزّ عمّه المعتمد بن المتوكّل ، ونادمه ، ومدح أيضاً عمّه الآخر الموفّق طلحة ، وكان بطلاً مغواراً قضى على ثورة الزنج ، وأذاق صاحبهم كأس المنون ، يقول ابن المعتزّ في ذلك :

ولمّا طغى أمرُ الدّعيّ رميتَه ... بعزمٍ يردّ السّيفَ وهو كليلْ
وأعلمتَه كيف التّصافحُ بالقنا ... وكيف تَرَوَّى البيضُ وهي مُحولُ[2]

وكان المعتضد بن الموفق طلحة أو قل ابن عمّ ابن المعتزّ شديد الدنوّ من نفسه ، ومرّ بنا مدح ابن المعتزّ له بدَعْم المُلْك ، وشَدّه بعد الضّعف ، وكان المعتضد قد بنى مجموعة من الدور والقصور أسماها " الثريّا " ، فيشير ابن المعتزّ إلى ذلك ، ويرى أن جنّ سليمان أعجز من أن تبني مثلها :

---

(١) تاريخ الخلفاء (بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ط٣ ، صفحة ٣٨٣ .

(٢) القنا : الرماح . البيض : السيوف . محول : مجدبة .

سلمْتَ-أمير المؤمنين-على الدَّهرِ	ولا زلْتَ فينا باقياً واسعَ العُمْـرِ
حَلَلْـتَ الثُّرَيّـا خـيرَ دارٍ ومـنزلٍ	فلا زال معموراً وبورك مـنْ قَصْرِ
فليس لـه فيما بنى النـاسُ مُشْبِهٌ	ولا ما بناه الجنّ في سالف الدَّهرِ

وكان الخليفة قد أنفق على تلك القصور مبالغ ضخمة ، وبثّ من حولها البساتين والرّياض ، وكانتْ منطقتها واسعة تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، فصارت بديعة في الحسن :

وأنهـارُ مـاءٍ كالسلاسـل فُجِّـرتْ	لتُرْضعَ أولادَ الرّيـاحين والزَّهْـرِ
جنـانٌ وأشـجارٌ تلاقـتْ غصونُهـا	فأورقْنَ بالأثمار والورقِ الخُضْرِ
ترى الطَّيرَ فـي أغصـانهنّ هواتفاً	تنقّلُ مـن وكْـرٍ لهـنّ إلـى وكْـرِ

ويتحدّث بعد ذلك عن قوّة المعتضد ، وعدْله وحسن سياسته :

حكمْتَ بعدْل لم يرَ الناسُ مثْله	وداويْتَ بالرِّفْق الجُموحَ وبالقَهْرِ

وما مِنْ شكّ في أنّ أبناء عمومته الخلفاء كانوا يُغدقون عليه مالاً موفوراً ، وهو إغداق كفاه التكسّب بشعره ، فلم يمدحْ إلاّ مَنْ تغلغلتْ مودّته في صدره ، مثل الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب الذي يقول فيه :

أيا مُوْصِلَ النُّعْمـى على كل حالـةٍ	إلـيَّ قريباً كنـتَ أو نـازحَ الـدّار
كما يلحـق الغيـثُ البـلادَ بسـيلِه	وإنْ جاد في أرض سواها بأمطار
لقـد عمـر اللـه الـوزارةَ باسـمِه	وردّ إليهـا أهلَهـا بعـد إقفـار[1]
وكـانت زمانـاً لا يَقِـرُّ قرارُهـا	فلاقتْ نصاباً ثابتاً غيرَ خوّار[2]

(١) إقفار : إجداب . كانت الوزارة لا تحظى بكفء لها حتى جاء ابن وهب

(٢) خوّار : ضعيف .

فالوزير ابن وهب – وزير المعتضد – كان لا يضن على ابن المعتز ببر ولا خير ، ويخصّه بوابل عطائه الوفير ، من غير حساب ، على نحو لا يُحْظيه سواه ، ولقد تسلّم منصب الوزارة بجدارة ، فكان أحقّ بها ، وأهلها ، فاستقرّت الأمور بعد طول اضطراب ، واستمرّتْ(1) بعد ضعف

رثـــــاؤه

يدلّ على صدق إحساس الشاعر في مِدْحته السالفة لابن وهب تفجُّعه عليه لما انتقل إلى جوار ربّه ، وتحسّره على افتقاد الدولة لكاتب بارع ، وسياسي محنّك ، قويّ الفكر ، سديد الرأي ، ويتوقع للحكومة من بعد ابن وهب مصاعب كثيرة :

هذا أبو القاسم في نَعْشِه	**قوموا انظروا كيف تسيرُ الجبالْ**
يا ناصر المُلْك بآرائه	**بعدك للمُلك ليالٍ طوالْ**

قلة الهجاء عنده

كان عبد الله بن المعتزّ يربأ بنفسه عن الأحقاد واللّددِ في الخصومات ، ويُعْرِض عن التعادي ، لذلك لا نرى في شعره هجاء إلاّ ما كان من قبيل الدُّعابة ، على شاكلة تندّره من الشاعر عليّ بن بسّام :

يا قذىً في العيون يا حُرقَةً بينَ	**التَّراقي ، حَزَازةً في الفؤادِ(2)**
يا طلوعَ العذولِ ما بين إلْفِ	**يا غريماً وافى على مِيْعادِ(3)**

(1) استمّرتْ : قويتْ ، من أمرّ الحبل إذا أحكم فتله .

(2) القذى : جمع قذاة ، ما قد يقع في العين من قشّ ونحوه . التراقي : جمع ترقوة . التقعّر بجوار العنق . حزازة : مؤلمة .

(3) العذول : اللائم يهاجم المحبّين . غريم : صاحب الدّين وافى المُستدين في الوقت المحدد .

خَـلِّ عَـنـا فـإنـمـا أنتَ فينــا　　واوُ عَمْرو أو كالحديث المُعَادِ

والـواو في كلمـة " عمـرو " زائـدة ، تكتـب ولا تلفـظ ، وإنّمـا زيــدتْ للتفرقة ما بين هذه الكلمة وكلمة عمر .

الــفــخــر

يفخر ابن المعتزّ ببني العباس ، وجموعهم الغلاّبة ، ولسنهم المفْلِق البليـغ ، وقوّتهم العارمة ، وبتْرهم لـرؤوس أعـاديهم ، فهـي تتطـاير بسـيوفهم ، وكأنهـا طيور كنّ واقعات على الأبدان فنفّرتْ عنها :

إنّـا لننْتـاب العُـداةَ وإنْ نــأَوْا　　ونهزُّ أحشـاء البـلادِ جموعـا[1]

ونقـولُ فـوق أسـرَّةٍ ومنــابرِ　　عجباً من القول المصيب بديعا[2]

قومٌ إذا غضبوا على أعدائهم　　جرُّوا الحديدَ أزجَّةً ودروعـا[3]

وكـأن أيدينــا تنفّــر عنهــمُ　　طيراً على الأبدان كُـنَّ وُقوعـا

ويدعـو الطـالبيّين إلى تناسـي الخلافـات الماضيـة ليتجمعـوا مـن جديـد ، ويُذْهبوا عنهم جميعاً كيد الشّيْطان ، وإحَنه الـتي عُهـدتْ منـه منـذ دسّ العـداوة والبغضاء بين أولاد يعقوب عليه السلام :

بنـي عمّنـا عودوا نعدْ لمــودّةٍ　　فإنّا إلى الحُسنى سراعُ التعطُّفِ

لقد بلغ الشيطانُ من آل هاشمٍ　　مَبالغَه من قَبْـلُ في آل يوسُفِ

---

(١) ننتاب : نغزو . نأوا : ابتعدوا .

(٢) أسرّة : جمع سرير .

(٣) أزجّة : جمع زجاج ، وهو رأس الرمح .

الـــوصـــف

في شعر ابن المعتزّ بعض الأوصاف الغزليّة ، هي أقرب إلى الدُّعابة والتندّر ، وله وصفٌ لمجالس اللهو والخمرة ، ولكنْ له قصيدة مزدوجة [1] تقع في مائة وعشرين بيتاً يذمّ فيها الخمرة ، على شاكلة قوله :

فأيُ فضلٍ للصَّبُوحِ يُعرفُ — على الغَبُوقِ والظَّلامُ مُسْدِفْ[2]

وهو يكثر من وصف البساتين والرياض والأزاهير ، كما في قوله :

وياسَمينٌ فــي ذُرَى الأغصــانِ — منتظــمٌ كقطـــعِ العِقْيـــانِ[3]

والسَّرْو مثل قضُــبِ الزَّبَرْجـدِ — قد استمدَّ العيشَ من تُرْبٍ ندي[4]

علــى ريــاضٍ وثــرىً ثَــريٍّ — وجَـــدْوَلٍ كـــالمبردِ الجلـــيِّ

وابن المعتزّ بارع في تشبيهاته ، فالهلال مثل زورق مصنوع من فضّة حمّل بالعنبر ، وهو نوع من الطّيب :

انظرْ إليه كزورقٍ مــن فضــةٍ — قد أثقلته حمولةٌ من عنْبرِ

ويشبّهه مرّة أخرى بمنجل مصنوع أيضاً من فضّة وهو يحصد النرجس :

كمنْجَلٍ قد صيغَ من فضَّةٍ — يحصُدُ من زهر الدُّجى نَرجسَا

---

(١) المزدوجة : قصيدة كل أبياتها مصرّعة ، أي ينتهي كل شطرين من البيت بحرف واحد ، ولكل بيت رويّ جديد مغاير لما قبله .

(٢) مسدف : مسدل الستائر .

(٣) العقيان : حجر كريم .

(٤) ندي : رطْب .

ويشبّه بعض الأزهار وقد تساقطت عليها أشعّة الشمس بمَداهن ذهبيّة فيها أَثارةٌ من المِسْك :

كـأنّ آذريونَهـا	**والشمسُ فيه كاليَة [(١)]**
مداهنٌ من ذهبٍ	**فيها بقايا غالية[(٢)]**

ويروى أن الشاعر ابن الرومي استمع إلى هذا التشبيه الأخير ، فصاح : واغَوْثاه ، وأعلن أنّه هو أعجز من أن يأتي بمثله ، وأغلبُ الظنّ أن ذلك إنّما كان تملُّقاً من ابن الرومي لشاعر من أبناء البلاط ، وإلاّ فمن يَعْدل تشبيه ابن المعتزّ بقول ابن الرومي في غروب الشمس :

وقد رنّقتْ شمسُ الأصيل ونفّضَتْ	**على الأفق الغربيّ ورساً مُزَعْزَعا[(٣)]**
وودّعت الدنيا لتقضي نحبَها	**وشَوّلَ باقي عمرها فتشعشعا[(٤)]**

وكان لابن المعتزّ وصفٌ موفّق للخيول ، وأشعار حسنة في الصّيد والطّرْديّات .

---

(١) الآذريون : زهر أصفر في وسطه خمل أسود . كالية : حافظة ، طالعة .

(٢) غالية : مسْك . والمسك أسود اللون .

(٣) رنّق الطائر بجناحيه : خفق بهما دون أن يطير . نفّضت : نثرتْ . الورس : نبات أصفر ، وبعضه أحمر. مزعزع : مبعثر ، مفرّق .

(٤) نحبها : أجلها . شوّل : نقص . تشعشع : تبدّد .



إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية – حلب – خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه وموطنه ونبذة عنه

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأَزْديّ ، من ، أزد عمان ، وقد انتقل أهلُه إلى البصرة بعد تمصيرها من غير أن تنقطع صلتُهم بموطنهم الأول .

ولد ابن دريد في البصرة سنة ٢٢٣ هجريْ (٨٣٨ م) ونشأ فيها ، وأخذ العلم عن عمّه الحسين وعن أبي عثمان الأشناندانيّ وأبي حاتم السجستاني وسواهما .

ولما دخل الزنج البصرة سنة ٢٥٧ هجري (٨٧١ م) هجرها ابن دريد إلى عُمان ، موطن الأزد حيث بقي اثنتيّ عشرة سنة ، وفي نحو سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م ذهب إلى الأهواز في صحبة واليها عبد الله بن ميكال (عبد الله بن محمد بن ميكال) ، مؤدباً لابنه إسماعيل الميكالي المشهور . ثم ولى ابن ميكال والي الأهواز ابنَ دريد على ديوان فارس ، فمكث ابن دريد في ولايته هذه نحو ستّ سنوات ثم انتهت ولاية عبد الله بن ميكال على الأهواز ، وذهب إلى خراسان فذهب ابن دريد معه ، ولمّا توفي عبدُ الله عاد ابن دريد إلى بغداد (٣٠٨هـ / ٩٢٠ م) فأجرى الخليفة المقتدر عليه خمسين ديناراً في الشهر .

توفيّ ابن دريد بمرض الفالج في الثامن عشر من شعبان عام ٣٢١هـ / ٩٣٣م ، وهو بحدود الثامنة والتسعين من العمر .

منزلته الأدبية ، وآثاره

يعد ابن دريد في علماء اللغة البارعين ، ومن النّقاد والشعراء ، ومن أئمّة الأدب ، ومن تلامذته السيرافي والمرْزباني وأبو الفرج الأصبهاني وأبو علي القالي والزّجاجي وابن خالويه .

ومن كتبه جمهرة اللغة ، ألفه لبني ميكال حينما كان في بلاطهم ، وله أيضاً كتاب الملاحن ، وغريب القرآن ، وأدب الكاتب والمقصور والممدود ، والمجتنى (من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم) والمقتنى ، والاشتقاق ، ووصف السّرج واللّجام ، ووصف المطر والسحاب والأمالي [1] .

وله ديوان شعر صغير ينطوي على مدح وهجاء ورثاء وغزل ، ووصف .. وتكثر في شعره الحكمة . وأشهر قصائده مقصورته الذائعة التي استغرقتْ مائتين وستة وأربعين بيتاً ، وهي من الشعر التعليمي .

قوة حافظته

نقل ياقوت الحموي في معجم الأدباء ١٨ / ١٢٩ عن ابن دريد قوله :

" كان أبو عثمان الأشناندانيُّ معلّمي ، وكان عمّي الحسين بن دريد يتولى تربيتي فكان إذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان ليأكل معه فدخل يوماً عمّي ، وأبو عثمان يروِّيني قصيدة الحارث بن حِلّزة التي أولها :

---

(١) الأمالي : في معهد المخطوطات بالقاهرة صورة عنه . وفي دمشق مخطوط آخر له بعنوان ذخائر الحكمة (انظر مجلة المجمع العلمي العربي ١٩/ ٧٤) وذكر ابن النديم في الفهرست كتباً أخرى له .

آذنتنا ببينِها أسماءُ ‏ ‏ ‏ ‏ ربَّ ثاوٍ يُملُّ منه الثَّواء

فقال لي عمي إذا حفظْتَ هذه القصيدة وهبتُ لك كذا وكذا ، ثمّ دعا المعلم ليأكل معه ، فدخل إليه ، فأكلا وتحدّثا بعد الأكل ساعة فإلى أن رجع المعلّم حفظت ديوان الحارث بن حلّزة بأسره " .

رأيٌ في بعض الناس

ممّا حزَّ في نفس ابن دريد مالحه لدى بعض الناس من إيثار طريق الظلم والريبة والضلال ، والنزوع إلى الخلاف ، والتّشكك في عمل الخير ، والخوض في أمور الشر يقول :

أرى النَاس قد أغروا ببغي وريبةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وغيٍّ إذا ما ميَّز الناسَ عاقـلْ

وقد لزمـــوا معنى الخلافِ فكلُّهم ‏ ‏ ‏ ‏ إلى نحوِ ما عاب الخليقَةَ مائلُ

إذا مـــــارَأَوْا خيراً رموه بظِنَّةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وإن عاينوا شرّاً فكل منـاضِلْ [1]

طُرفةٌ أدبية

كان النحويُّ الشهير نِفْطَوَيْهِ ، واسمه إبراهيم بن محمد بن عرفة ، يقع في ابن دريد ، ويطعن في روايته ، وإليه تعزى هذه الأبيات :

ابـــنُ دُرَيْـدُ بقَـرَهْ ‏ ‏ ‏ ‏ وفـيـه عُجْبٌ وشَرَه

ويـــدّعي بجهلـــهِ ‏ ‏ ‏ ‏ وضع كتاب الجمهرةَ

وهو كتابُ العينِ إلا ‏ ‏ ‏ ‏ أنه قـــد غيَـــره [2]

---

(١) ديوان ابن دريد (حققه محمد بدر الدين) ، طبع في القاهرة ١٣٦٥هجري.ص ٩٩.

(٢) معجم الأدباء ٤٧/١٧ ، ومقدمة جمهرة اللغة (للمصحّح) ١٤/١ .

فرد عليه ابن دريد فقال:

أفَّ على النحــو وأربابِهِ	**قد صارَ من أربابِهِ نفطويـــه**
أحْرقَهُ اللهُ بنصفِ اسمه	**وصيَّر الباقي صراخاً عليْه [1]**

أحاديث ابن دريد

أشارَ الحصريُّ في كتابه زهر الآداب إلى أنّ أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد أغرب بأربعين حديثاً استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، في معارض عجميّة وألفاظ حوشية (غريبة)، وقد عارضها فيما بعد بديع الزمان الهمذاني بأربعمائة مقامة في الكُدْية تذوب ظَرْفاً [2].

ولكن هذه الأحاديث الأربعين افتُقدت، ووقف الدكتور زكي مبارك على نصّ الحصري ثم مضى يعلن أن ابن دريد هو مبتكر المقامات، وأنه سماها أحاديث [3]. وبما أن هذه الأحاديث ضائعة فقد يلتمسها في أمالي القالي، ومقدمة ديوان أبي نواس الذي جمعه الأصفهاني.

وإلى هذا الرأي جنح أيضاً محمد كامل بركات في رسالته عن ابن دريد (آداب القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م).

---

(١) ديوانه ١١١ .

(٢) زهر الآداب (ط٢) ١/ ٣٠٧ .

(٣) النثر الفني في القرآن الرابع ١/١٩٩ .

لكنْ لابدّ من المَيْزبين هذه الأحاديث التي نقلها ابن دريد بأسانيد مُسلسلةٍ عن غيره ، ومقامات بديع الزمان التي أنشأها هو ، فهذا المَيْز (التمييز) ضروري حتى لا نقلل من شأن الأسانيد التي هي أدقّ الطرق في توثيق تراثنا .

من مدائحه (غير المقصورة)

أبو أحمد حُجْر الجويمي من رجال فارس النابهين ، ذو شرَف وعزّة وسيادة ، وسخاء ، أجرى الله تعالى على يديه أرزاق العباد وزان وجهَه بالنور والإشراق والسماحة :

حُجْرُ بن أحمد فارعُ الشَّرَف الذي	خضعَتْ لعزّته طُلَى الأعناقِ [1]
انظرْ أناملَه فلسن أنا ملاً	لكنّهُنّ مفاتحُ الأرزاق
وانظر إلى النّور الذي لو أنّه	للبَدْر لم يُطْبع برَيْنِ محاق [2]

رثاء محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ

كان محمد بن جرير الطبري رأساً في ثلاثة علوم ، كان فقيهاً مجتهداً ، له مذهب خاص به ، وذاب مذهبُه فيما بعد في المذاهب الأربعة المعروفة ، وكان مؤرّخاً فذاً . وله كتاب تاريخ الأمم والملوك ، وكان مفسّراً ينحو منحى التفسير بالمأثور ، وله تفسير مشهور . فلمّا توفي ترك من بعده ثغرة واسعة في أبناء عصره ، فحزنوا وتكدّروا عليه ، وأسِفوا على ما كان يبثّه في الناس حولَه من علم وهدى :

(١) فارع الشرف : عالي الشرف . طُلى : جمع طلية وهي أصل العنق .

(٢) يطبع : يدنس . رَيْن : أذى ، فساد . محاق : اضمحلال القمر آخر الشهر .

أن المنيَة لـم تتلِفْ به رجـلاً	**بل أتلفَتْ علماً للدّين منصوباً**
كان الزمان به تصفو مشاربُه	**والآن أصبحَ بالتكديرِ مقْطوباً [1]**
كلا وأيامه الغُرَ التي جُعِلـتْ	**للعلم نوراً وللتقوى محـاريبا [2]**

الإمام الشافعي

وأقرب المذاهب الفقهيه إلى مذهب الطبري مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى قبل وفاة الطبري بأكثر من مائة سنة ٢٠٤ هـ وكان إماماً فذاً متعمّقاً في كل أنواع العلوم ، متخصصاً في العلوم الدينيّة والعربية ، وألف مائة وخمسة وسبعين كتاباً عالَج بعضها اختصاصَه الأساسيّ ، مثل (الرسالة) في أصول الفقه ، و((الأم)) في مذهبه الفقهي ، وبعضها عالج موضوعات علمية بحتة كالطب ، وساق ابن النديم في الفهرست ، وياقوت في ((معجم الأدباء)) ما ينوف على مائة سفر للإمام الشافعي .

إنّ آراء الشافعي لنافذةٌ قويةٌ ، تبدد حُجُب المعضلات ، وتحلّ أعتى المشكلات : ولقد آزره الله تعالى ورفع مقامه ، ولا خافضَ لمن رفعه الله تعالى :

لرأي ابن إدريسَ ابنِ عمِّ محمـدٍ	**ضياءٌ - إذا ما أظلم الخطبُ - صادعُ**
إذا المعضلاتُ المشكلاتُ تشابهتْ	**سـمـا منـه نورٌ في دُجاهنّ ساطعُ**
أبـى الله إلا رفعَـه وعلـوّه	**وليس لما يعليـه ذو العرش واضعُ**

---

(١) مقطوب : ممزوج .

(٢) محاريب : جمع محراب ، وهو المصلّى .

وصف النرجس

للنرجس عيون ذهبية مفتّحةٌ ليلَ نهار ، يحيط بها ما يشبه الدر ، فهي تتلألأ :

عيـــــونٌ ما يلمّ بها الرُّقادُ	ولا يمحو محاسنَها السُّهادُ
لها حدق من الذهب المصفّى	صِياغةَ من يدينُ له العبادُ
وأجفــــانٌ من الدرّ استفادت	ضيـــاءً مثلَه لا يُسـتفـادُ

مدح عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبي العباس إسماعيل

كانت حالته نكدة ، فإذا بهذا الزعيم ، وابنه ، ينتاشانه منها ، ووصلاه برْفدهما فأورق غصنه ، وارتفعتْ مكانته والأمير عبد الله أحسن مثواه ، فأنقذه من ضياعِه ، وابنه أبو العباس أوسع عليه فاغتنى بعد فقر واستكثر بعد قلة ، ذلكم أبو العباس العالي الشمائل ، الرفيع السّجايا ، الذي كاد يسخائه وسنائه أن يبلغ الأَوْج ، وسالت عطاياه ، ثم يفدي الأميرين بنفسه وبالناس أجمعين :

تـــلافَيا العيشَ الذي رنّقـــــه	صرفُ الزّمان فاستساغ وصَفا [1]
وأجريا ماءَ الحيالي رغَـــــداً	فاهتّز غُصنُي بعدمـــا كان ذوَى [2]
إنّ ابن ميكال الأمير انتاشني	من بعد ما قدكنتُ كالشيء اللّقَا [3]

---

(١) تلافيا : أدركا . رنّقة : كدّره . صرف الزمان : نوائبه . استساغ : صار سائغاً . (تحسّنتْ أحواله المعيشيّة) .

(٢) الحيا : الغيث ، والخصب . ذوى : ذبل . اهتز غصني بعدما كان ذوى : : كناية عن تحسّن أحواله بعد أن كانت شقيةً .

(٣) انتاشني : أنقذني من شقوتي . اللّقا : المرميّ في عرض الطريق لا يُعبَأ به .

ومـــدَّ ضَبْعَيَّ أبو العبّاس مِنْ	**بعد انقباض الذرع والباع الوَزَى** [1]
ذاك الذي ما زال يسمو للعُلا	**بفعله حتّى عــــلا فوق الـعـلا**
لو كـــــان يرقى أحد بجوده	**ومجـدِه إلى السـمـاء لارتقى**
ما إن أتـــى بحرَ نداهُ مُعْتَفٍ	**على أوارَى علـــم إلا ارتوى** [2]
نفسي الفداءُ لأميريَّ ، ومَنْ	**تحتَ السـمـاءِ لأميـريَّ الفِدا**

مقصورة ابن دريد

الأبيات السابقة التي مدح بها عبد الله بن محمد بن ميكال والي الأهواز وابنه إسماعيل هي جزء من مقصورته المشهورة ، التي أخذت مائتين وستة وأربعين بيتاً ، وبناها على المقصور ، وهو ما انتهى من الأسماء بألف لازمة مفتوح ما قبلها .

وقد استهلّها بالنّسيب على طريقة الشعراء القدماء

يا ظبية أشبهَ شي بالمَها	**تَرْعى الخزامى بين أشجار النَّقَا (٣)**

وقد مضى يشكو من شيبه وحبّه وأرقه بسبب طول الفراق ، حتى إنه ليتحمل من ألم الشوق وتباريحه ما لا يحتمله الصَّخْر الأصمُّ ، ولقد ذوى غصنه الرطيب ، وأصبحت حياتُه كلها غُصَصاً لا تطاق . ويتجه إلى الدهر الذي يصبُّ عليه المحن فيقول :

---

(١) الضّبع : وسط العضد . مد ضبيعه : بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض الذرع والباع كناية عن ضيق الحال . الوزى : الرجل القصير الملّزز الخَلْق .

(٢) نداه : كرمه . المعتفي : طالب المعروف . الأوارى : النار . العلم : الجبل .

(٣) المها : بقر الوحش . الخزامى : نبات زهره طيب الرائحة. النقا : المنقطع من الرمل .

يـا دهـــر إن لم تكُ عتبى فاتّئدْ فإن إروادك والعتبى ســـوا [١]

لا تحســبَنْ يـــا دهرُ أني جازعٌ لنكبةَ تعرقُني عَرْق المُـــدى [٢]

مارستَ من لوهوت الأفلاك من جوانب الجوّ عليه ما شـكـا

لـكنـهـا نـفثةُ مصــــدورٍ إذا جاش لغامٌ من نواحيها عمًا [٣]

فهو يخاطب الدهر لعله يُحْظيه برضاه ، أو إن لم يكنْ ذلك فأن يتأنى في كيل الخطوب له ، ويستوي عند ابن دريد أو يتقارب رضى الدهر أو تأنّيه .

ويعود ليبدي صلابته وقوته أمام المحن ، فهــو غـير جـز ع ولا ضجـر ولا متخاذل ولو كانت المصائب تنهال عليه بقسوة حتى تسلخ لحمــه عـن عظمـه ، كمـا تصنـع السـكاكين ، فكـل ذلـك لا يهمّـه ، بـل لـو أن كواكـب السّـماء وأجرامها - على كثرتها - تساقطت عليه لتحمَّلهـا واصطبر ، وإذا كـان يُنمَـح منه في بعض الأحيان شكوى ، فمـا هـي في الحقيقـة بشـكوى ، إنّما هـي نفثـة مصدور ، وما أشبهها بالزبد الذي يخرج على فـم البعـير ، ويسـقط منـه ، فهـل يَعدِلُ ذلك الزبد من ذلك الجمل إلا القليل القليل .

(١) عتبى : رضا . إرواد : رفق . سوا : سواء ، مصطحبان .

(٢) تعرقه : تفصل لحمه عن عظمه

(٣) اللّغام : زبد يخرج من فم الجمل . عما : سقط .

ثم مضى ابن دريد يتغزّى بمن سطا عليهم الدهر قبل أن يحققوا آمالهم من أمثال امرئ القيس ويزيد بن المهلب .

ثم استطرد يتحدّث عن بعض ذوي الهمم الشامخة كسيف بن ذي يزن وعمرو بن هند ، ثم يصوّر ابن دريد نفسه بطلاً فارساً بحصانه وسيفه .

واستفاض يصفهما ، ثم يصف رحلته إلى الأهواز ، وهنالك يمدح الأميرين ثم يتغزل ، ثم يأتي بطائفة من الحكم ، مثل قوله :

وإنمّا المرء حديثٌ بعدَه فكنْ حديثاً حسناً لِمَنْ وَعَى

ويتحدث عن رحلة له قام بها مع بعض صحبه إلى الصحراء ، ويصف ما تجشّمه من أهوال ومشاقّ ، وما حفّ بهم من أخطار . ثم يصف الخمر .

ومع أنه أتى بأسماء مقصورة كثيرة لم يُغْرِبْ في لغته ، فشعره هاهنا شعر تعليمي لا يكلف الطلبة مزيدَ عناء ، وأغلب الظن أن الهمذاني أفاد من هذه الطريقة اللغوية التعليمية التي رآها في آثار ابن دريد وفي أحاديثه التي رواها ، فجاء بمقاماته الرائعة التي تنفع وتمتّع .

قصيدة ابن دريد في المقصور والممدود

وهذه القصيدة أيضاً من شعره التعليمي ، وهي أقرب إلى المتون اللغوية ، وهي تشتمل على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة ، من مادتها نفسها ، وبدأها بما يُفتَح أوله فيُقصَر ويُمدّ ، والمعنى مختلف مثل الهوى والهواء . وأتبع ذلك بما يُكسر أوله فيقصر ويُمدُّ والمعنى مختلف مثل : اللّوى واللّواء [١] .

ثم ما يكسر أوله فيقصر ، ويفتح فيُمَدّ ، والمعنى واحد ؛ مثل سوى وسَواء .

ثم ما يضمّ أوله فيُقْصر ، ويُكسر فيمد والمعنى واحد . مثل لُقا ونِقاء

ثم ما يفتح أوله فيُقصر ، ويكسر فيمد والمعنى واحد مثل الغذا والغِذاء.

ثم ما يفتح أوله فيُقصر ويُكسر فيمدّ والمعنى مختلف مثل السّحا والسِّحاء [٢] .

ثم ما يضم أوله فيقصر ، ويفتح فيمّد ، والمعنى مختلف ، مثل ضُحى وضحاء [٣] .

باب ما يُفتح أوّله ويُقْصر ويمدّ والمعنى مختلف

لا تــركنَن إلى الهــوى	**واحذر مفارقةَ الهــواء**
يوماً تصير إلى الثـَرى	**ويفوز غيرُك بالثّــراء**

(١) اللوى : منقطع الرمل . واللواء : الراية .

(٢) السّحا : القرطاس . السِّحاء : نوع من الشجر .

(٣) الضّحاء : النهار .

الهوى في البيت الأول مقصور ،وهو هوى النفس . وتثنيته هوَيان ، وكتابته بالياء غير المنقوطة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وأمَّا مَنْ خاف مقامَ ربِّه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى** ﴾ [1] .

والهواء ، بالمدّ ، ما بين السَّماء والأرض ؛ قال الله تعالى : (وأفئدتهم هواء) [2] أي منحرفة لا تعي شيئاً .

والثرى – مقصور – التراب النديّ ، وتثنيته ثريان ، وكتابته بالياء غير المنقوطة ، والثراء – ممدود –:المال .

كم من حفير في رجا	**بئـر لمنقطع الرَّجاء**
غطَّى عليـه بالصَّفا	**أهل المودَّة والصَّفاء**

الرَّجا : جانب البئر ، وتثنيته رجوان ، وكتابته بالألف . والرجاء : ممدود .

والصفا : الحجارة العراض ، واحدتها صفاة . وتثنيتها : صفوان . وكتابتها بالألف .

والصَّفا : إخلاص المحبة ، من الشيء الصافي .

ذهـب الفتى عن أهله	**أيـن الفَتِيُّ من الفَتاء**
زال السَّنا عن ناظريه –	**وزال عن شرف السَّناء**

(١) سورة النازعات ٤٠ –٤١ .

(٢) سورة إبراهيم ٤٣ .

الفتى : واحد الفتيان ، وكتابته بالياء ، وتثنيته : فتيان .

والفتاء (ممدود) : مصدر : يقال : إنه لفتى بيّن الفتاء والفتوّة . والسَّنا (مقصور) الضوء من برق وغيره ، وتثنيته سنوان ، وكتابته بالألف .

والسَّناء : المجد .

مــازال يَلتمِسُ الخلَى حتى توحَّد في الخلاء
قطع النَّسا منه الزما ن فلم يُمتَّعْ بالنِّســـاء

الخلى : العشب الرطب ، وتثنيته خلَيان .

والخلاء : من الخلوّ ، ويقال : خلا يخلو خلاء .

والنسا (مقصور) : عرق مستبطن الفخذ ، وتثنيته : نسَيان ونسَوان .

خاتمة

لابن دريد غير هاتين القصيدتين التعليميتين قصيدة طافحة بالغريب الوحشي ، ومقطوعة في أعضاء الجسم التي تذكر ولا تؤنّث ، وثانية فيما يؤنث ولا يذكّر ، ومقطوعة ثالثة لأخرى فيما يجوز فيه التذكير والتأنيث .

فابن دريد لغوي شاعر ، وفريق من شعره يحمل نفثاتٍ شعوريّة حية ، وفريق آخر إنما هو نظم تعليمي ، فائدته فيما يؤديه من معارف .



إعداد

الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

نسبه وأسرته

هو عليٌّ بن الجهم بن بدر من بني لؤي بن غالب ، القرشي المعتز بقرشيّته في مثل قوله :

فقلتُ لفتيةٍ من آل بدرٍ	**كرامٍ ، والهوى داءُ الكرام**
قِفُوا حيّوا الدّيارَ ، فإنّ حقّاً	**علينا أنْ نحيّيَ بالسّلامِ**
فأسرعَ كلُّ أروعَ من قريشٍ	**نماهُ أبٌ إلى العلياءِ نامِ**

كان يُكْنى أبا الحسن ، ويلقب بالسّامي نسبة إلى جدّه سامة بن لؤي بن غالب .

وكان أجداد الشاعر في الجاهليّة يسكنون مكّة موطن قريش ثمّ قدِّر لهم أن يَعْزُبوا (يغيبوا) عن قومهم ، ويستوطنوا البحرين ، فسُمُّوا بقريش العازبة . ثم كان الإسلام فدخلوا فيه ، وكان جدّه الحارث بن راشد النّاجي في صفّ علي رضي الله عنه في خلافه مع معاوية رضي الله عنه ، وقاتل معه الخوارج ، غير أنه ما لبث أن انفضّ عنه ، ومضى مع جماعة من رجاله إلى البحرين ، وارتدّ عن الإسلام ، فقاتله جيش الإمام علي بسِيف البحر[1] ، وقتله هو ومن معه وسبى ذراريَّهم ، وتوجه بالسَّبْي إلى الأهواز ، وفي الأهواز اشتراهم مصقلة

---

(١) السِّيف ، بكسر السين : الشاطئ .

ابن هبيرة الشيباني وأعتقهم ، وبذلك انتقل أحداد الشاعر من البحرين إلى بلاد فارس ، وكان ذلك سنة ٣٨هـ .

واستقرت أسرة الشّاعر في خراسان ، واتخذ آباؤه من " مرو " موطناً جديداً لهم ، ثم انتقلوا إلى العراق ، ومن هنا نعته ابن كثير في كتابه البداية والنهاية بالخراساني ثم البغدادي ، وقد أسند المأمون إلى الجهم بن بدر - والد الشاعر - بريد اليمن ، وولي له الثغر أيضاً . وولي بعد ذلك الشرطة في أحد جانبي بغداد .

نشأته وثقافته

من المرجَّح أن علي بن الجهم ولد ببغداد سنة ١٨٨هـ ، في دار أبيه بشارع دجيل ، وهي الدار التي يتلهّف عليها حين يلوح له شبح المنيّة ، فيقول بعد أن طُعن في الحرب :

أَزِيدَ في الليلِ ليلُ ... أم سال بالصُّبْح سَيْلُ
ذكرتُ أهلَ دُجَيلِ ... وأينَ منّي دُجَيْلُ؟

ونشأ ابن الجهم في بغداد ، فاختلف إلى مجالس الأدباء وشارك في الحركة الأدبية شاعراً ومَتذوّقاً وناقداً ، وتعرَّف إلى أبي تمام ، والبحتري ، والصولي ، والفتح بن خاقان ، والزيّات ، وابن أبي دؤاد ، وإبراهيم بن المدبّر ، وعلي بن يحيى المنجّم ، وأبي العيناء ، وشهد الصراع الذي جرى بين السنّة والمعتزلة ، وانحاز إلى أهل السّنّة .

وكلُّ شيء يدلّ على أنّ عليّ بن الجهم كان محبّاً للعلـم ، مقبـلاً عليـه ، متمكّناً من القرآن وبيانه ، عالماً بالشعر ونقده ، مزوَّداً بالثقافة العربية ، منصرفـاً عن الثقافة الأجنبية .

تديّنه ، وسياسته

كان عليّ بن الجهم حسن التديُّن صحيح العقيدة ، ويفيض شـعره بهـذه الظاهرة ، فهو يقول وقد توالتْ عليه الأرزاء :

مَنْ سَبَقَ السلوةَ بـالصَّبْرِ　　فاز بفضل الحمد والأجْرِ [1]
يا عجبـا مـن هَلِعٍ جـازعٍ　　يضيع بين الذمّ والـوزْرِ [2]
مصيبةُ الإنسان في دينـهِ　　أعظمُ من جائحـة الدَّهْرِ [3]

وقال وهو مصلوب

لنْ تسلُبوه - وإنْ سلبتُمْ كلَّ ما　　خوَّلْتُمـوه - وَسـامةً وقَبُولا [4]
هــل تملكــون لدينـــه ويقينـــه　　وجَنانِـــه وبيانـــه تبديـــلا ؟
إنّ المصائبَ - ما تعدَّتْ دينَه -　　نِعَمٌ وإنْ صَعُبَتْ عليـه قليــلا

---

(١)السلوة : التأسي ، السُّلْوان .

(٢) هلع : ضجر خائف . الوزر : الذنب .

(٣)جائحة : خَطْب ، مصيبة .

(٤) خوّلتموه : أعطيتموه . وسامة : هيئة حسنة .

والشاعر يحاسب نفسَه ويعلم أنّ الله لا تخفى عليه خافيـة في الأرض ولا في السماء ، فيقول :

انظرْ فَعَنْ يمناك ـ ويْحَكَ عـالِمٌ	**يُحْصي عليكَ وعن يسارِكَ كـاتِبُ**
وأرى البَصـيرَ بقلبِـه وبفهمِـه	**يعمَـى إذا حُـمَّ القضـاءُ الغـالبُ**

وكان علي بن الجهم في صف أهل السّنّة في وجه المعتزلة ، وكان يقـابل الإمام أحمد بن حنبل ويستفتيه في أمور الدين والعقيدة ، وكان على دراية حسنة بالفقه الحنبلي ، وبالحديث النبويّ ، وقد هاجم المعتزلة ، وهجا ابن الزّيّات .

أما في السياسة فكـان عباسـيّ المنزع ، يدافـع عـن النظريّـة العباسية في الحكم ، وهو دفاع قائم على قناعة مَحْضة ، وآيةُ ذلك أنه لقي على يد المتوكّل شرّ ما يلقاه المرء من مصادرة ونفي وسـجن وصلب ، فلمّا صُرِع المتوكّل توجّـه إلى بني العبّاس بهذا النداء المُشْفق الحزين ، فقال من قصيدة يرثيه فيها :

بني هاشم صَبْراً فكلّ مصيبـةٍ	**سيَبْلَى على طول الزمـان جديدُهـا**
عزيزٌ علينا أنْ نرى سرواتِكمْ	**تفـرّى بـأيدي النـاكثين جلودُهـا**
ولكنْ بـأيديكم تـراقُ دمـاؤكم	**ويَحكُمُ فـي أرحـامكم مَـنْ يَكيدُهـا**

وموقفه المدافع عن النظريّة العباسية في السياسة جعلـتْ خصومـه يرمونـه بالناصبيّة أي كرة الإمام علي رضي الله عنه لكننا إذا طالعنا ديوانـه لم نَجِـدْ فيـه كلمة واحدة تنال من الإمام علي رضي الله عنـه ، بـل نجـدُ مـا يخـالف ذلـك ، فحينما عرض في أرجوزته في التاريخ لخلافة علي رضي الله عنه تناولـه في كثير من الإجلال والإعظام ، حيث يقول بعد الحديث عن أبي بكـر وعمـر وعثمـان رضي الله عنهم :.

وفَـوّضَ الأمـر إلـى علـيٍّ | الهاشـميَّ الفـاضلِ الزكـيِّ
فقـام بـالأمر سـنيناً أربعـا | وتسعةً مـن الشـهور شُـرّعا
ثمّ قضى مستشهداً محموداً | عاش حميداً ومضى مفقودا

فتوّته وظرفه

كانت الفتوة في عصر الشاعر طعاماً موضوعـاً ، وأذى مرفوعـاً ، وأدبـاً ظاهراً ، وخلُقاً طاهراً ، وتركاً لمجالسة أهل الشرور ، والسموَّ إلى معالي الأمور ، وإحساناً لِمَنْ أساء ، ومكافأة لمن أحْسن ، وقضاء لحوائج الناس .

ونرى عليّ بن الجهم يقول حين يفتخر :

ومـنْ هِمَـمِ الفتيـان تفريـج كُرْبَـةٍ | وإطلاق عانٍ باتَ والبؤسُ فادحُـهُ[1]
وضيف تخطّى الليلَ يسألُ:مَنْ فتىً | يُضيـفُ؟ فدلَّتْـه عليـه نوابِحُـهُ[2]
فـأذهبَ عنـه الضُّرَّ حُرٌّ ، خصالُـه | عُجـابٌ ، ولكنْ محصنَـاتٌ نواصحُـهْ
ولهفـةُ مظلـومٍ تمنَّـاكَ حـاضراً | وقـد ذُعِـرَتْ أسـرابُهُ وسـوارحهُ[3]
فجئتَ تخوض الليل خوضاً لنصرهِ | ولولاكَ لم يدفع عن السَّرْح سارِحه
وليس الفتى مَنْ باتَ يحسُب ربحَه | بطيئـاً ضنينـاً بـالذي هـو رابحُـه
يـرى أنّـه لاحـقَّ إلا لنفسِـه | عليـه وأنّ الجـودَ بالمـالِ فادحُـهْ
لـه عِلَـلٌ دونَ الطعـام كثـيرةٌ | ووجـهٌ قبيـح أَرْبَـدُ اللـون كالِحُـهْ

---

(١) فادحه : مثقله . عان : أسير .

(٢) النّوابح : الكلاب .

(٣) ذُعرتْ : خافت ، وتفرّقت ، أي تبدّدتْ . أسرابه وسوارِحه : ما يملكه من قطعان الماشية .

والأبيات بمثابة لائحة بقوانين نظام الفتوّة ، وأيضاً كانوا يوجبون على الفتى الظريف أن يتحرّى ويدقّق في انتقاء الإخوان ، لأنَّ الرجل يُعْرف بأشكاله ، ويقاس بأمثاله ، وأنْ يجالس الرجال ذوي الألباب وينظر في الآداب ، ويقرأ الكتب والآثار ، ويروي الأخبار والأشعار . ويتحدّث ابن الجهم عن بعض صَحْبه فيقول :

وليلــةٍ كأنَّهــا نهــارُ	**ســهرتُها وفتيــة أخيــار**
لا جاهلٌ فيهم ولا ختّار	**ولا على جليسه هرّارُ[1]**
لهوُهمُ الأسمار والأشعارُ	**ومُلَحٌ تُقْدح منها النَّار**
بمثلهم تعاقَرُ العُقارُ	**وتُمتّعُ الأسماع والأبصار[2]**

وتُدرَكُ الآمال والأوطارُ

وكل ما ذكره من شمائل أصحابه حميد سوى تعاطي أمّ الخبائث ، ويضاف إلى هذه الخصْلة الذميمة عنده اتّباعه لهواه ، يقول :

فقلْتُ لفتيةٍ من آل بَدْرٍ	**كرامٍ ، والهوى داءُ الكرامِ**
قفوا حيّوا الدّيار؟ فإنّ حقّاً	**علينا أنْ نحيّي بالتحيّةِ والسّلام**

وكان علي بن الجهم شجاع القلب ثابت الجَنان ، صبوراً على المكاره ، فقد سجنه المتوكّل مرة فشبّه نفسَه بسيف أعيد إلى قرابه ، وأسد أوى إلى عرينه ، وشمس احتجبت وراء أفقها ، وبدر أدركه السِّرار[3] ، وغيث حبسه

---

(١) ختّار : غشّاش ، غدّار ، فاسد . هرّار : سفيه .

(٢) تعاقر العُقار : تَشرب الخمرة .

(٣) السّرار : آخر أيام الشهر حين لايظهر القمر .

الغمام ، وحين وَجَدَ[1] عليه آل طاهر صلبوه بباب الشّاذياخ ولكنّه لم يَهُنْ و لم يتضعضعْ ، بل قال والناس متجمّعون من حوله ينظرون إليه :

لم ينصبوا بالشّاذياخ صبيحة الاثنين - مغمـــوراً ولامجهـــولاً

نصبـوا بحمـد اللـه مِـلْءَ عيونهـمْ شرَفاً ومِلْءَ قلوبهم تبجيـلا

صداقته لأبي تمام

كان بين علي بن الجهم وأبي تمّام صداقة متينة ، وفيه يقول أبو تمّام :

إنْ يُكْدِ مُطّرفُ الإخاءِ فإنّنـا نغدو ونَسْري في إخاء تـالدِ[3]

أو يختلفْ ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدّر من غمـام واحـد

أو يفترقْ نسبٌ يؤلّف بيننـا أدبٌ أقمنــاهُ مُقـــام الوالـــدِ

ودامت صداقة الشاعرين مدى حياتهما ، فلمّا أجاب أبو تمّام نداء ربّه بكاه علي بن الجهم بقصيدته التي يقول فيها :

غـــاضتْ بدائـــع فطنـــةُ الأوهـــام وعـــدتْ عليهانكبـــةُ الأيّـــامِ

وغدا القريض ضئيل شخص باكِياً يشكو رزيّتـه إلـى الأقـلام[4]

---

(١) وجَد : غضب .

(٢) الشاذياخ : منطقة في بغداد .

(٣) مطّرف : مستحدث . تالد : قديم .

(٤) القريض : الشعر .

وتـــأوّهتْ غرر القوافي بعدَه	ورمى الزّمان صحيحَها بسقام [1]
أودى مثقِّفُها ورائضُ صعبها	وغديرُ روضتها أبــو تمّـــام [2]

مخاصمته للوزير ابن الزيّات

كان محمد بن عبد الملك الزيّات وزيـراً للمعتصـم ، ثـم الواثـق ، وكـان رأساً في فتنة الاعتزال ، شديد الوطأة علـى أهـل السّنّة ، وكـان ذلـك سـبباً في إيقاد العداوة بينه وبين علي بن الجهـم ، فكـان ابـن الزيّـات الـذي فـوّض إليـه الخليفة الواثق أموره كلّها دائماً يذكر عنده علـي بـن الجهـم بالسـوء ، ويعيبـه ، وكان علي بن الجهم يهجو ابن الزيات - مع كلّ ما كان له من منزلة - ويبصّـر الواثق بسوء سيرته ، ويحرّضه على التخلّص منه ، يقول :

لعـــائن اللـــهِ متابَعـــاتِ	مصبِّحـــاتٍ ومهجِّـــراتِ [3]
علـى ابـن عبـدِ الملـكِ الزّيّـاتِ	عرِّضَ شمل المُلْك للشّـتاتِ
وأنفـــذ الأحكـــام جـــائراتِ	علـــى كتـــاب اللـــهِ زاريـــاتِ
وعـن عقـول النـاس خارجـاتِ	يرمـــي الدوايـــن بتوقيعـــاتِ
معقّـــدات كرُقَـــى الحيّـــات	سبحان مَنْ جلّ عن الصّفاتِ
بعد ركوب الطّوف في الفراتِ	وبعـدَ بيـع الزيـت بالحبّـاتِ
صـرت وزيـراً شـامخَ الثبـاتِ	هـارونُ يـا بـنَ سيّد السّاداتِ

---

(١) غرر القوافي : أجملها .

(٢) مثقّفها : معدّلها .رائض :مذلّل ، مدرّب .

(٣) الهجير : وقت الظهر .

أما ترى الأمور مهملاتِ تشكو إليكِ عدمَ الكُفاةِ

فعاجل العِلْجَ بمُرْهَفاتِ من بعد ألفِ صُخَّبِ الأصواتِ[1]

بمثمرات غيرِ مورقاتِ تُرى بمتنيه مرصَّفاتِ[2]

تَرصُّفَ الأسنان في اللِّثاتِ

مع المتوكّل

عاش عليّ بن الجهم في حياته السياسية - منذ وعى - كلاً من المأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين ، لكنّ علاقته بالخليفة المتوكل كانتْ أشدَّ من أيّ علاقة له بسائرهم . وكان من أهمّ الأسباب التي رغبت ابن الجهم بالمتوكل إيقاف هذا الخليفة فتنة المعتزلة ، وانتصاره لأهل السّنّة ، وبذلك انتهت فتنة خلق القرآن التي ذهب ضحيّةً لها مسلمون كثيرون ، ويشبّه علي بن الجَهْم حركة الاعتزال بالردّة التي حدثتْ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه :

قام وأهلُ الأرض في رجفةٍ يَخْبطُ فيها المقبلُ المدبرُ

في فتنةٍ عمياءَ لا نارُها تخبو ولا مُوقِدُها يفترُ

والدّينُ قد أشفى وأنصارُه أيدي سبا موعدُها المَحْشَرُ[3]

كلُّ حنيفٍ منهم مسلمٌ للكفرِ فيه منظرٌ مُنْكَرُ

إمّا قتيلٌ أو أسيرٌ فلا يُرثى لمن يُقتلُ أو يُؤْسَرُ

---

(١) العلج : الكافر الغليظ من الأعاجم . مرهفات : سيوف حادّة .

(٢) مثمرات : سياط ذوات عقد في أطرافها .

(٣) تفرّقوا أيدي سبا : في كل مكان .

واللهِ لو أمْهَلَنا ساعةً	**ما هلَّل النَّاسُ ولا كبّرُوا**
الردّةُ الأولى ثنّى أهلَها	**حزمُ أبي بكر ولم يكفروا**
وهذه أنتَ تلا فيتَها	**فعاد ما قد كان لا يُذْكَرُ**

والأبياتُ تعكس مدى العنف الذي استعمله المعتزلة حين امتحنوا الناس ليكرهوهم على الاعتزال ، وما من شكّ في أنّهم عتَوْا ، وخالفوا سماحة الإسلام الذي نصَّ على أنّه ﴿ لا إكراهَ في الدين ﴾ ، وهذا في شأن الكافرين ، فكيف مع جمهور المسلمين من أهل السّنّة والجماعة ؟ مع ذلك لم يُبِحْ أهل السّنّة تكفير المعتزلة كما صنع ابن الجهم ، واكتفوْا بنعتهم بالفِسْق .

وكانتْ هذه القصيدة شديدة الوطأة على المعتزلة ، وتألّموا بهجومها عليهم ألماً ممضّاً .

وقد بلغت منزلة علي بن الجهم لدى المتوكل مكانةً عالية ، وحظي منه بعلاقة وشيجة وبأعطياتٍ سخية ، واتّخذه له نديماً ، وكل ذلك أوغر صدور بعض المقرّبين إلى المتوكّل ، فكادوا لعلي بن الجهم ، والتقى على الكيد له مروان بن أبي الجنوب ، والبحتري ، وعلي بن يحيى المنجّم ، وأبو العيناء ، وابن حمدون ، وبختيشوع الطبيب .

وسعَى هؤلاء لإخماده ، واستطاعوا أن يغيّروا قلب المتوكّل ، فكرهه ، وأقصاه عن القصر ، ثم حبسه .

دخل علي بن الجهم السّجن بنفس صُلْبة تأبى إظهار الاستكانة أو الضَّراعة ، يقول :

توكّلنا على ربّ السماء   وسلّمنا لأسباب القضاءِ

وأجمل قصيدة له في السجن دالية تُبدي صلابته ، وتجلّده ، وكان المتوكّل بعدما حبسَه قد صادر أمواله ، فلم يكترث لذلك . يقول في هذه القصيدة :

قالتْ:حُبِسْتَ.فقلتُ :ليس بضائري   حبسي ، وأيُّ مهنّدٍ لا يُغْمَدُ

أو ما رأيتَ الليثَ يألفُ غِيلَه   كِبْراً ،وأوباشُ السّباع تردّدُ[١]؟

والشمسُ لولا أنّها محجوبةٌ   عن ناظريكَ لمَا أضاء الفرقدُ[٢]

والبَدْرُ يدركُه السّرار فتنجلي   أيّامه ، وكأنّه متجدّدُ[٣]

غِيَرُ الليالي بادئاتٌ عُوّدٌ   والمالُ عاريةٌ يُفادُ وينفدُ[٤]

ولكلّ حالٍ مُعْقِبٌ ولربّما   أجلى لك المكروهُ عما يُحمَد

لا يُؤْيِسَنّكَ مِنْ تَفرُّجِ كُرْبةٍ   خَطْبٌ رماك به الزمانُ الأنْكَدُ

كم مِنْ عليلٍ قد تخطّاه الردى   فنجا ، وماتَ طبيبُهُ والعُوّدُ

والحبسُ ما لم تَغْشَه لدنيّةٍ   شنعاءَ ، نعم المنزلُ المتورَّدُ

بيتٌ يجدّد للكريم كرامةً   ويُزارُ فيه ،ولا يَزور، ويُحْفَدُ[٥]

---

(١) الغيل : موضع الأسد .

(٢) الفرقد : نجم .

(٣) السّرار : أخر الشهر ، حين لا يبدو القمر .

(٤) غير الليالي : المصائب .

(٥) يُحْفد : يُخْدَم .

ويثْني الشاعر على ابن أبي دؤاد الوزير لعله يشفع له عند الخليفة ، لكنّه لا يجد عنده أذناً صاغية ، ويمدح المتوكّل ، ويهاجم الذين وشَوْا به وسعَوْا لحَبْسه :

يا أحمد بنَ أبي دؤادٍ إنّما	**تُدْعى لكل عظيمة يا أحمد**
بلّغ أميرَ المؤمنين ودونَه	**خوض العدى ومخاوف لا تنفَذُ**
أنتمْ - بني عمّ النبيّ محمد -	**أولى بما شرعَ النبيُّ محمّدُ**
أمِنَ السويّة يا بنَ عمّ محمّد	**خَصْمٌ تقرِّبُه وآخر تُبْعِدُ؟**
إن الّذين سعَوْا إليك بباطلٍ	**أعداءُ نعمتك التي لا تُجْحَدُ**
لو يجمع الخصمَيْن عندك مشهدٌ	**يوماً لَبانَ لك الطريق الأَقْصَدُ(١)**
ولئنْ مضيْت لقلّما يبقى الذي	**قد كادني ، وليجمعَنّا الموعد(٢)**

وتتوالى عليه الأشهر وهو في السّجْن ، فيبدأ والضَّعف يسري في أحاسيسه ، ويعبّر عن هذه المرحلة في أبياته :

إلى الله فيما نابنا نرفع الشَّكْوَى	**ففي يده كشفُ الضرورة والبَلْوى**
خرجنا من الدنيا ونحن من اهْلها	**فلسْنا من الأحياء فيها ولا الموتى**
إذا جاءَنا السَّجَانُ يوماً لحاجةٍ	**عجبْنا ، وقلْنا جاء هذا من الدُنْيا**
ونفرح بالرُّؤْيا فجُلّ حديثنا	**إذا نحن أصبحنا يكونُ عن الرؤيا(٣)**
فإن حسُنَتْ لم تأْتِ عجلَى وأبطأَتْ	**وإنْ قبحتْ لم تَحتَبِسْ وأتتْ عَجْلَى**

وما زالتْ حالته النفسيّة تتدهور حتى صار يضرع ضراعةً لعلّ المتوكّل يعفو عنه ، يقول :

---

(١) بانَ : اتضّح . الأَقصد : السويّ ، المعتدل .

(٢) كادني : مكَر بي .

(٣) الرؤيا : الحُلم ، ما يراه النائم .

عفا الله عنكَ ألا حرمةٌ **تعوذُ بعفوكَ أن أبْعَدا**

لئنْ جلّ ذنبٌ ولم أعتمدْهُ **فأنتَ أجلُّ وأعلى يدا**

ألمْ تَر عبداً عدا طورَهُ **ومولى عفا ورشيداً هدى**

أقلْني أقالَكَ مَنْ لم يزلْ **يقيكَ ويصرفُ عنك الرَّدى**

وقد شمله بعد ذلك عفو المتوكّل ، فأخلى سبيله بعد أن أمضى في سجنه حولاً كاملاً .

وما إنْ نعِمَ الشاعر بحريته وشرع يعمل على استعادة مكانته عند الخليفة حتى نزل به من المكروه ما هو أدهى ، إذْ صدر أمر المتوكل بنفيه إلى خراسان ، وهناك سجنه الطاهريون ، وصلبوه ، وكان ذلك سنة ٢٣٩هـ . فلمّا أُطلق سراحه عاد إلى بغداد .

مصرعه

مع كلّ ما صنعه المتوكّل بالشاعر نراه يرثيه حين قُتل ، وكان الروم قد ضاعفوا من غزوهم لثغور الجزيرة الفراتيَّة ، وقتلوا بعض القادة من المسلمين ، فهاج الناس ، ونفروا إلى الجهاد ، ونَفر معهم علي بن الجهم ، وكان قد جاوز الستين ، وتوجّهوا إلى مناطق الثغور ، فخرجتْ عليهم في الطريق أعراب بني كلب تريد سلبهم ، فتصدّى لهم المجاهدون ، حتى هزموهم ، وفي ذلك يقول علي بن الجهم :

ولمّا رأيتُ الموت تهفو بنودُه **وبانتْ علاماتٌ له ليس تُنْكَرُ**

وأقبلت الأعرابُ من كل جانبٍ **وثارَ عجاجٌ أسودُ اللون أكْدَرُ**

فما صُنْتُ وجهي عن ظُبَاتِ سيوفهم **ولا انْحزتُ عنهم والقنا تتكسَّرُ**

واستُؤنف القتال في اليوم الثاني ، فأصابت علي بن الجهم طعنة قاتلة ، وكان ذلك سنة ٢٤٩هـ .

محبّرته في التاريخ

لعليّ بن الجهم أرجوزة في التاريخ ، على شكل مزدوجة ، أي كل شطرين يختصّان بروي ، وهي تقع في ٣٣٠ بيتاً ، أرّخ فيه للخليقة إلى أيامه ، يقول في البعثة النبويّة :

ثم أزال الظلمةَ الضياءُ ... وعاودت جدَّتها الأشياءُ
أتاهم المنتجبُ الأوّاهُ ... محمّد صلّى عليه اللهُ
أكرمُ خَلْقِ الله طُرّاً نَفْسا ... ومولِداً ومحتداً وجِنْسا

خاتمة

طرق علي بن الجهم كثيراً من أغراض الشعر العربي ، ويمتاز شعره ببساطة الفِكَر ، والتمكّن من ناصية القول ، وتصريفه كيفما يشاء ، وبالتصوير البارع ، والموسيقا العذبة .



اعـداد

الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص.ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٣٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

نبــذة عنـــه

ولد أبو بكر أحمد بن محمد الضّبيّ الصَّنَوْبريّ في مدينة أنطاكية ، في العقد الثامن من القرن الثالث للهجرة ، وتحوّل أبوه به إلى حلب ، فنشأ فيها ، واطّلع على علوم العربية والدّين ، وألمّ بعلوم الأوائل ، فلمّا قال الشعر صار يطوف به على أمراء مدينته وعلى الرّقّة والموصل ودمشق .

بعض ممدوحيه

مدح الصنوبريّ في بداية إلمامه بالشعر والي حلب ذكا بن عبد الله الأعور (٢٩٥-٣٠٢هـ) ، وابنه المظفّر وأشاد بسخائهما وشجاعتهما : وكان لوالي حلب وزير يدعى يحيى التّفري ، ونرى الصنوبري يطيل في مدحه مصوّراً بلاغته واهتمامه بحرب القرامطة والروم .

وعلى هذه الشاكلة تسترسل مدائحه للولاة الذين حكموا حلب مثل أحمد بن كَيَغْلَغ ، وابنه العبّاس ، ومحمود بن حبك ، وأحمد بن سعيد ، وابن مقاتل .

ثم تؤول حلب إلى سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان ، فيمدحه الصنوبري ، وينال جوائزه ، وجعله سيف الدولة أميناً لمكتبته .

وممن أشاد بهم طويلاً آل السبيعي في حلب ، ومنهم المحدّث الحسن بن أحمد ، وعلي بن محمد بن حمزة العباسي الهاشمي ، وصاحب الخراج أبو عبد الله الكرْخي .

ويمكن القول إنّه كان يمدح الأمراء أو المشاهير في كلّ البقاع التي كان يرحل إليها ، ممّن تنعقد بينه وبينهم علاقات صِلَة أو تعارف ، فهو يمدح عبد الرحمن الجُلّابي من أهل حرّان ، وابن سهل في حمص ، وابن كوجك في طرابلس .

صلته بالأدباء والشعراء

كان الصنوبري يلتقي خلال رحلاته هو وكثير من الأدباء والشعراء ، ولا سيّما عند سعد الورّاق في مدينة الرُّها ، فقد كانت دكانه ملتقى الوافدين من أدباء الشام والعراق ومصر ، حتى إذا ما صار أميناً لمكتبة سيف الدولة صار مكان عمله مجتمعاً لهؤلاء الأدباء ، وكان سيف الدولة يستقطب النابهين ، ويغدق عليهم ، فكان خَطيبه ابن نباتة الفارقي ، ومعلّمه ابن خالوَيْه ، وطبّاخه كشاجم ، وفيلسوفه الفارابي ، ومُدّاحه المتنبي ، والسلاميّ ، والوأواء الدمشقي ، والببَّغاء ، والنّامي ، وابن نباتة السَّعْدي ، والصَّنوبري .

وكان من أقربهم إلى نفس الصنوبري محمود بن الحسين المعروف بأبي الفتح كشاجم ، وكان شاعراً كاتباً مثقّفاً ، من رملة بفلسطين ، وطوّف في البلاد ، واستقرّ في حلب ، ولقبه " كشاجم " منحوت من عدّة علوم كان يتقنها ، فالكاف من الكتابة ، والشين من الشعر ، والألف من الإنشاء ، والجيم من الجدل ، والميم من المنطق . وتعلّم الطبّ ، فقيل له أيضاً " طكشاجم " . وكان أصغر من الصنوبري ، ومات سنة ٣٦٠هـ .

وكان علي بن سليمان النحوي المشهور بالأخفش الصغير قد رحل عن بغداد ، وسكن مصر قرابة ثلاثة عشر عاماً ، ثمّ غادرها إلى حلب ، فمكث فيها خمس سنوات ، كان يعقد خلالها حلقات تعليمية في الجامع الأموي الكبير،

فكان الصنوبري ممّن حضرها ، وفي الأخفش يقول :

كرعنّا منه في أبحُرِ - علمٍ غيرِ منزوفة
وطالعنّا رياضَ العلْمِ - بالآداب محفوفة

وكان للصنوبري في حلب ضيعة وبستان وقصر محفوف بالأشجار والورود والرياحين ، فكان يؤمّه غير قليل من الأدباء . ومات سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م .

شعره

جمع محمد راغب الطباخ طائفة من شعر الصنوبري ، ونشرها في مطبعته العلميّة سنة ١٣١٥هـ/١٩٣٢م باسم "الروضيات " ، ونشر لطفي الصقال ودريّة الخطيب " تتمّة ديوان الصنوبري " في دار الكتاب العربي بحلب سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، وحقّق الدكتور إحسان عباس ديوان الصنوبري ، ونشره في دار الثقافة ببيروت . وكان الدكتور عبد الرحمن عطبة قد اختار الصنوبري موضوعاً لنيل درجة ماجستير في الآداب .

ومن قديم جمع الصولي شعر الصنوبري في مائتي ورقة كما ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست .

أسلوبه

كان الصنوبري شاعراً يهتمّ بتحكيك شعره إلى حدّ ما ، ويقوم على تعديله وتحسينه ، وكان هذا الشاعر قد أكبّ على الشعراء من قبله يستوعبُ ويتمثّل آثارهم ، وبخاصّة أبو تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتزّ .

فهو أحياناً يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبي تمّام .
وأحياناً لايذهب بعيداً في استخدام هذه الفنون على طريقة البحتري .
وهو يكثر من التّشبيهات والصور على طريقة ابن المعتزّ ، كما يكثر من وصف الطّبيعة على طريقة ابن الرومي .

وصف الطّبيعة

طرق الصنوبريّ كثيراً من أغراض الشعر العربي ، غير أنّه برز في وصف الطّبيعة ، وشُغف به ، وكان هو ذا خبرة بزراعة الجنائن والحدائق ، ويفتنّ بغرس أجمل الأزاهير ، وكان الناس يحبون مَشْتَلَه حتى إن سيف الدولة قد زاره ، ومن ولوع الصنوبري بهذا الموضوع استغنى به عن وصف الديار والأطلال ، يقول :

وصفُ الرياض كفاني أن أقيم على ... وصف الطّلول فهل في ذاك من باسِ
يا واصفَ الروض مشغولاً بذلك عن ... منازلٍ أوْحَشَتْ من بعد إيناس
قُلْ للّذي لام فيه هل ترى كَلِفاً ... بأملح الروض إلا أملحَ النّاس

وأجملُ ما تكون الطبيعة في الربيع ، لأنّ الصيف - على ما فيه من فواكه متنوّعة ورياحين متأرْجحة - حرارته كاللّهب ، والخريف فصل اقتطاف البلح والرّطب ، لكنْ ليست الأراضي فيه مخضرة ، ولا الطقس بمعتدل ، إذ يبدأ البرد في نصفه الثاني - في حلب - بالاشتداد ، وإذا كان في الشتاء غيث طيّب فإنّ المرء مضطّر فيه أن يقبع في بيته كالحبيس أو الأسير فالربيع الربيع هو فصل النور وفصل الأزاهير والجمال والعطاء والتغريد :

إنْ كان في الصَّيف ريحانٌ وفاكهةٌ	فالأرض مستوقَدٌ والجوّ تنّور
وإنْ يكن في الخريف النَّخْلُ مُخْتَرَفاً	فالأرض عُرْيانةٌ والجوُّ مقرور[1]
وإن يكنْ في الشتاء الغيث متّصلاً	فالأرض محصورة والجوّ مأسور
ما الدهر إلا الربيع المُسْتنيرُ إذا	أتى الربيعُ أتاكَ النَّوْرُ والنُّور[2]
فالأرضُ ياقوتةٌ والجوّ لؤلؤة	والنَّبْتُ فَيْرُوْزَجٌ والماءُ بَلُّور[3]
تظلّ تنثر فيه السّحْبُ لؤلؤَها	فالأرضُ ضاحكةٌ والطير مسرور
حيث التفتّ فقُمْريٌّ وفاختةٌ	يُغَنّيان وشِفْنِيْنٌ وزُرْزُور[4]
إذا الهزّاران فيه صوّتا فهما -	السُّرْنايُ والنّاي بل عُودٌ وطُنْبور،[5]
تطيب فيه الصَّحارى للمقيم بها	كما تطيب له في غيرِه الدُّوْرُ

وهو متأثّر أبا نواس لا في ألفاظه ، مثل :

فالخمرُ ياقوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ	من كفِّ جاريةٍ ممشوقةِ القَدِّ

وإنّما أيضاً في ارتمائه في أحضان الربيع ، لا شاكراً لأنْعُمِ الله تعالى ، ولا متفكّراً في بديع صنعه ، وإنّما في اقتناص الملاذّ العابرة ، اللهمّ إلا لِماماً ؛ يقول الصنوبريّ :

(١) مخترف : مجتنى ، مقطوف . مقرور : فيه قُرّ أي برد .

(٢) النّوْر : الزهر الأبيض .

(٣) فيروزج : حجر كريم أخضر اللون ، وهو الفيروز نفسه .

(٤) القمريّ والفاختة من الحمام . والشِّفْنِينُ : من اليمام .

(٥) الهزار : طائر حسن الصوت ، متنوّع الأنغام .

يا ريمُ قومي الآن ويحكِ فانظري — ما للرُّبى قد أظهرتْ أعجابها[1]

كانتْ محاسنُ وجهها محجوبةً — فالآن قد كشَف الربيعُ حجابَها

وردٌ بدا يحكي الخدودَ ونرْجسٌ — يَحكي العيونَ إذا رأتْ أحبابَها[2]

وكأنَّ خُرَّمَه البديعَ وقد بدا — رُوسُ الطواوسِ إذ تديرُ رقابَها[3]

والسَّرْوُ تَحْسَبُه العيونُ غوانياً — قد شمَّرتْ عن سوقِها أثوابَها

وقال في النَّرْجس :

أرأيتَ أحسنَ من عيون النرجسِ — أمْ من تَلاحُظِهِنَّ وسط المجْلِسِ[4]

دُرٌّ تَشَقَّق عن يواقيتٍ على — قضبِ الزُّمُرُّدِ فوق بُسْط السُّنْدسِ

أجفانُ كافورٍ حُبِيْنَ بأَعْيُنٍ — من زَعْفرانٍ ناعماتِ المَلْمَسِ[5]

وقال مصوّراً التنافس بين النرجس والورد ، متأثّراً قصيدة لابن الرومي في هذا الموضوع :

خجلَ الوردُ حينَ لاحظَهُ النرجسُ — من حُسْنِه وغارَ البَهارُ[6]

فعَلَتْ ذاك حمرةٌ وعلتْ ذا — صغرةٌ واعترى البهارَ اصفرارُ

وغدا الأقحوانُ يضحكُ عجباً — عن ثنايا لثاتُهنَّ نُضارُ[7]

---

(١) أعجاب : أعاجيب .

(٢) يَحْكي : يشبه

(٣) خرّم : زهر بنفسجي .

(٤) التلاحظ : أن ينظر كلٌّ إلى الآخر .

(٥) حبين : أُعْطِيْنَ ، مُنِحْنَ .

(٦) البهار : نبت اصفر .

(٧) الثنايا : الأسنان . اللثات : جمع لثة وهي مغرس السن . نضار : ذهب .

ثمَّ نَمَّ النَّمّام واستمع السَّو — سَنُ لمّا أُذيعت الأسرارُ[١]
عندها أبرزَ الشَّقيقُ خدوداً — صار فيها من لَطْمِه آثارُ[٢]
سُكِبَتْ فوقها دموعٌ من الطّلِّ — كما تُسْكَبُ الدموع الغزارُ[٣]
فاكْتسى البنفسج الغضُّ أثواب — حِدادٍ قد خانها الإصطبارُ[٤]
وأضرَّ السَّقام بالياسمين الغضِّ — حتى آذى به الإضرار
ثمَّ نادى الجزاءَ في سائر الزَّهر — فوافاهُ جَحْفَلٌ جرّارُ[٥]
فاستجاشوا على محاربة النَّرْجس — بالجُرْم الذي لا يُبَارُ[٦]
فأَتوا في جواشن سابغاتٍ — تحت سِجْفٍ من العَجاج يُثار[٧]
ثمَّ لمّا رأيتُ ذا النَّرْجسَ الغضَّ — ضعيفاً ما إنْ لديه انتصار
لم أزلْ أعْمِلُ التلطُّفَ للورد — حذاراً أن يغلب النُّوَّار[٨]
فجمعناهم لدى مجلس فيه — تغنَّى الأطيار والأوتار
لو ترى ذا وذا لقلْتَ خدودٌ — تُدْمِنُ اللَّحْظَ نحوَها الأبصارُ

---

(١) نمّ : سعى بالنميمة . النّمّام : نوع من الأزاهير ، ومثله السوسن .

(٢) الشقيق : شقائق النعمان .

(٣) الطّلّ : الندى .

(٤) قطع همزة ألبنفسج ، وهمزة إصطبار لضرورة الشعر .

(٥) جحفل : جيش .

(٦) استجاشوا : ألّبوا . لا يبار : لا يُبْطل .

(٧) جواشن : دروع . سجف : جانب .

(٨) النُّوَّار : زهر أبيض .

وصفه مدينة حلب

للصنوبري قصائد كثـيرة في دمشـق والرقـة ، ولـه قصيـدة تقـع في مائـة وأربعة أبيات في وصف مدينة حلب ومتنزّهاتها وقراها وحامعهـا ومـا فيهـا مـن نشاط علميّ ، يقول :

احبسا العيسَ احبسـاها ... وسـلا الـدّارَ سـلاها[١]

وسَلا أينَ ظباءُ الدار - أم أيــنَ مَهاهـــا[٢]

حبـذا البـاءات بـــاءتْ ... وقويـــقٌ ورُباهــــا[٣]

بانقوسـاها بهـا بـاهى - المُبـاهي حين بـاهى[٤]

وبيـــاصَفْرا وبابلّـــا ... وبـــامثلي وتاهـــا[٥]

وبَعـــاذينَ فواهـــا ... لِبَعـــاذينَ وواهـــا[٦]

بيـــن نهـــر وقنـــاة ... قـــد تلتْـــه وتلاهـــا

وريـــاض تلتقـــي آ ... مالُنـــا فـــي ملتقاهـــا

زادَ أعلاهـــا علـــوّاً ... جوشـنـاً لمّـا علاهـا[٧]

وأرى المُنْيـــةَ فـــازتْ ... كـــل نفـــس بمناهـــا

إذ هوايَ العوَجان السا ... لــبُ النفــسِ هواها[٨]

---

(١) العيس : النوق .

(٢) المها : البقر الوحشي .

(٣) الباءة : البيئة ، المنزل ، الحال . باءت : رجعتْ . قويق : نهر حلب .

(٤) بانقوسا : محلّة في حلب .

(٥) باصفرا ، وبابلا (باب الله) من ضوا حي هذه المدينة . وبا : أشار . تاه : افتخر .

(٦) بعاذين : من ى حلب . واها :أتأوّه عليها ، أتوجّع .

(٧) جبل الجوشن : في غربيّ حلب ، بين منطقتي الحريري والزبديّة .

(٨) العوَجان : نهر قويق .

ومقيلـــي بركـــة التـــلّ	وســـيباتُ رحاهـــا[1]
كلَأ الراموسة الحســناء	ربّـــي وكلاهـــــا[2]
حلبٌ بدرٌ دجَا ، أنجُمها	الزُّهْـــرُ قُراهـــا[3]
حبّــذا جامعُهـــا الجـــا	مـــعُ للنفـــس تقاهـــا
موطنٌ يُرسي ذوو الـبِرّ	بمَرْســـاه الجباهـــا
شـــهواتُ الطّــرْف فيــه	فوق ما كـان اشتهاها
قِبْلـــةٌ كرّمهـــا اللـــهُ	بنـــورٍ وحباهـــا[4]
وذُرى مئذنـــة طـــالتْ	ذرى النجــم ذراهـــا
حَيِّـا الساريةَ الخضـراءَ	منـــــه حيّاهـــــا
قبلةٌ المستشرَف الأعلـى	إذا قابَلْتُماهـــــــــا
حيث يـأتي حلْقـةَ الآداب	منهـــا مـــن أتاهـــا
شَجْوُ نفسي باب قِنّسرينَ	وهـــنٌ وشـــجاها[5]
أنـــا أحمـــي حلبـــاً داراً	وأحمـــي مَـــنْ حماهـــا
أيّ حُسْـــنٍ مـــا حوتْـــهُ	حلـبٌ أو مـا حواهـا[6]

---

(١) مَقيله : استراحته في الظهيرة . التلّ : منطقة في الناحية الشمالية من حلب . سيب : عطاء ، مجرى الماء . الرحى : الأرض المستديرة المشرفة على ما حولها .

(٢) كلأ : حفظ ورعى . الراموسة منطقة جنوبي حلب .

(٣) دجا : اكتمل .

(٤) حبا : أعطى .

(٥) الشجو : الحزْن . وهن : ضعف . الشّجا : ما ينشب ويعترض في الحلق من عظم ونحوه .

(٦) ما : نافية .

وقال يصف ديك الصباح :

مغـرّدُ الليـلِ مـا يـألوكَ تغريـدا مَلّ الكرى فهو يدعو الصُّبْحَ مجهودا[1]

لمّا تطرّب هزّ العِطْفَ مـن طـرب ومـدّ للصـوت لمّـا مـدّه الجيـدا[2]

كلابـسٍ مُطْرَفـاً مُـرْخٍ جوانبَـه تُضاحِكُ البيضُ من أطرافِه السُّودا[3]

رانٍ بفِصَّيْ عقيـقٍ يدركـان لـه مـن حِـدَّةٍ فيهمـا مـا ليـس محـدودا

حـالي المقلّد لـو قيسـت قلادتُـه بـالورد قصّر عنهـا الـوردُ توريـدا

الفستق الحلبي

من الفُستقِ الشاميَ كلّ مصونةٍ تصانُ عن الأحداث في بطن تـابوتِ

زبـر جدةٌ ملفوفـةٌ فـي حريـرةٍ مضمّنـــة دُرّاً مغشّـــى بيـــاقوتِ

نهر العوجان (قويق)

ينبع نهر قويق (العَوْجان) من تركيا ، ويصب جنوبيَّ حلب ، وهو نهر قليل الماء ، بَيْدَ أنّه يغزر في الشتاء ، وكان أحياناً يفيض حتى يقتحم على بعض المناطق القريبة منه ، مثل العزيزيّة ، بيوتهم ، ثم خفّ ماؤه على ما كان عليه من قبل ، بسبب تحويل قسم منه قربَ منابعه ؛ ليسقي أراضيَ هنـاك ، ولأبي بكر الصَّنوبري قصائد ومقطوعات فيه على شاكلة قوله متندّراً :

(١) يألو : يقصّر . الكرى : النوم .

(٢) العطف : الجانب ، أراد الجناح .

(٣) المطرف : ثوب من حرير مخطّط .

قويقٌ لـه عهـدٌ لدينـا وميثـاقُ وهـذي العهـود والمواثيـق أطـواقُ
ففي الخوف أنّا لا غريقَ نرى لـه فنحـن علـى أمـن وذا الأمـنُ أرزاق[١]
ونَزّهَـهُ أنْ لا سـفينة تمتطـي مطـاه لهـا وخـدٌ عليـه وإعنـاقُ[٢]
وأنْ ليس يعتـاق التماسيحُ شربَه إذا اعتاق شربَ النيل منهنّ مُعتَاق[٣]
أقامتْ به الحيتان سوقاً ولم تزلْ تقـام علـى شـطّيه للطـير أسـواق
وقـد عابَـهُ قـومٌ وكلُّهـمُ لـه علـى مـا تعاطَوْه مـن العيـب عُشّـاق
يَهـابُ قويـقٌ أن يُمَـلّ فإنّمـا يُقيـم زمانـاً ثـم يمضـي فنشـتاق
وقالوا : أليس الصيفُ يُبْلي لباسه فقلت الفتى في الصيف يقنعه طـاق[٤]
ومـا الصُبـحُ إلا آيـب ثـمّ غـائب تواريـه آفـاق وتبديـه آفـاق[٥]
ومـا البـدرُ إلا زائـدٌ ثـم نـاقص لـه فـي تمـام الشـهر حَبْـسٌ وإطـلاقُ
ولو لم تَطاوَلْ غَيْبَهُ الورد لم تَتُقْ إليـه قلـوب تائقـاتٌ وأحـداق[٦]
وفضلُ الغنى لا يستبين لذي الغنى إذا لـم يبيّـن ذلـك الفضـلَ إمـلاق[٧]
قويقٌ رسيل الغيث يأتي وينقضي ويـأتي انسـياقاً تـارة ثـم ينسـاق[٨]

---

(١) الصحيح أنه كان له غرقى إبّان فيضانه .

(٢) المطا : المتن . الوَخْد والإعناق : نوعان من السير السريع .

(٣) يعتاق : يعوق ، يمنع .

(٤) طاق : طيلسان . يريد يكفيه في الصيف لباس قليل .

(٥) آيب : عائد . تواريه : تُخفيه .

(٦) تطاول : تتطاول .

(٧) إملاق : فقر . لا يحسّ الغنيّ بفضل الثراء إذا لم يفتقر ، كذلك قويق ، فإن اضمحلاله في الصيف يجعل الناس في شوق متجدّد لرؤيته .

(٨) رسيل : مبعوث .

الحسود

أيَها الحاسد المعدَ لذمَي ... ذُمَّ ماشئتَ ، رُبَّ ذم كحَمْد

لا فقدْتُ الحسودَ مدَّةَ عمري ... إنَ فقد الحسود أخْيَتُ فَقْدِ

كيف لا أوثر الحسودَ بشكري ... وهو عنوان نعمة اللهِ عندي(١)

الشيب

كان الصنوبري كثيراً ما يقرن وصفه للربيع وجمال الطبيعة بالغزل أو وصف الخمرة ، وظلّ على ذلك المنحى إلى أن داهمه الشيب ، فصار يشكو منه بمثل قوله :

هدَم الشيبُ ما بناه الشبابُ – والغواني غضبْنَ ؛ فيَ غِضابُ

قُلِبَ الآبنوس عاجاً فللأَعْيُنِ – منه وللقلوب انقلابُ(١)

وضلالٌ أنْ يُشْنَأ البازي على حسنه ويُهْوَى الغُرابُ(٢)

اعتداله

يفتخر الصنوبري إذ يفتخر برسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وصاحبيه أبي بكر عمر رضي الله عنهم ؛ وببني العباس :

---

(١) قال صلى الله عليه سلم : " كل ذيّ نعمة محسود " .

(٢) الآبنوس ، يضمّ الباء وبكسرها : شجر خشبه أسود صُلْب . العاج : ناب الفيل ، وهو أبيض .

(٣) يشنأ : يُبْغَض .

عدُّوا النبيَّ الهاشميَّ ورهطه   ووزيرَه الصدِّيق والفاروقا
ولهم خلائفُ من بني العبّاس قد   أعيَوْا جميعَ العالمين لحُوقا

وقال يمدح أبا العباس الهاشمي ، أحد أحفاد الرشيد :

أ أبناء الخلافة من قريشٍ   وساسةَ أمر عالمنا المسُوس[1]
ألنتمْ من حزُون الدهر حتى   توهّمتُ الحزُونَ من الوُعوسِ[2]

وقال في آل البيت يثني عليهم :

خيرُ ذا الخَلقِ صِبيةً وشباباً   وكهولاً وخيرُهمْ أشياخا
التقيُّون حيث كانوا جيوباً   حيث لا تأمن الجيوبُ اتّساخا
خلِقُوا أسخياءَ لا متساخِين   - وليس السّخِيُّ مَنْ يتَساخَى

وهو يُلمح إلى أعطيات سيف الدولة التي أغدقها عيه ، ولكن في معرض مدح آل البيت رضي ا لله عنهم .

رجـــز

إنّي لرحّال إذا الهمُّ بَركْ   رَحْبُ اللّبانِ عند ضِيق المعتَرَكْ[3]
عُسْري على نفسي ويُسْري مشتَرَكْ   لا تَهْلِكُ النفسُ على شيء هلكْ
فليس للهمّ إذا فاتَ دركْ   لا تُنْكِرَنْ ضراعتي لا أُمّ لَكْ

---

(١) ساس : قادَ ، أدار شأْناً .

(٢) الحزون : جمع حَزْن ، وهو الأرض الصّلبة . ووعوس : جمع وَعسْ ، وهو الأرض الرملية السَّهْلة .

(٣) برَكَ : قعد . اللّبان : الصَّدر .

إسفافه الأسلوبي

للصنوبري قطع وقصائد جيّدة ، وبعضها وسط ، وأحياناً يسفّ ، كما في قوله :

وللسُقّاط أمثالٌ ، فمنها ... تمثُّلهم لدى الشيء المُريبِ
إذا ما كنتَ ذا بولٍ صحيحٍ ... ألا فاضربْ به وجهَ الطّبيب

إتقانه الوصف والتصوير

قال في شمعة :

مجدولة في قدّها ... تحكي لنا قَدَّ الأَسَلْ[1]
كأنّها عمرُ الفتى ... والنار فيها كالأجَلْ

وقال في الشيب :

أقلّي لنْ يحلّ اللهوُ داراً ... إذا ألقى المشيبُ بها عصاهُ
دجى شعرٍ أرتْكَ يد الليالي ... نجومَ الحلْم تطلُع في دُجاهُ

وقال :

أضاعَ الحزْمَ مَنْ أمسَى مطيعاً ... طوالَ الدّهْرِ ذا حَزْمٍ مُضَاعِ
وأكثرْ ما استطعتَ الحلم إنّي ... رأيت الحِلْمَ مِنْ كرمِ الطّباع
ولا تتبعْ أخا سفَهٍ ودَعْهُ ... وكنْ للحُرّ - دهرَك - ذا اتّباع

وقال :

كنت أحبّ النبيذَ جدّاً ... فصار حبّي النبيذَ بغضا
فلستُ أرضاه لي شراباً ... والحمد لله لستُ أرضَى

وللصنوبري - غيرَ ما تقدّم - معاتبات ومراثٍ وهجاء ، لكنّ وصف الطبيعة هو غرضه الأساسي .

---

(١) قدّ : قوام . الأسل : الرّماح .



اعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٣٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بين المتنبي وأبي تمّام

من يقف عند الخصائص الفنّيّة لأبي تمّام ويتبيَّنْ معالمَ المدرسة الأدبية التي يَصْدر عنها ، ثمّ ينتقل إلى دراسة المتنبي ، فإنه لن يجد مزيدَ عناء في استكشاف سماته الفنيّة ، لأن أبا الطيّب هو ثاني اثنين رفعا من شأن تلك المدرسة نفسها ، وكان المتنبي شديد الإعجاب بأبي تمّام ، وانحاز له في المعركة التي ثارتْ بين النّقّاد في التفضيل بين الطّائيّين ، وكان يقول : أنا وأبو تمّام حكيمان ، والشاعر البحتري . وهي عبارة ردّدها فيما بعد أبو العلاء المعرّيّ .

وإضافةً إلى تشابه ذَيْنِك الشاعرَينْ في الملامح الفنيّة ، ترى ثلثي ديوان كلّ منهما في المدح ، وكُلّ قد حاز شمائل الرجولة ، وضرب في أرجاء الأرض ، وشارك في أحداث بيئته ، وبزَّ شعراء عصره ، وعَشِقَ المَجْد .

ولادته ونشأته

ولد المتنبي (أحمد بن الحسين) في الكوفة سنة (٣٠٣هـ) ، ووُجِّه منذ نعومة أظافره إلى الثقافة ، فنهل من منابعها غُرَفاً متنوعة المَذاق . ولمّا يَفَعَ خاضَ في فتنة قيل إنها فتنةٌ سياسيّة ، وقيل هي بِدْعة عقَديّة ، وأيّاً ما كانت فقد انتهت بحبْسه في حمص ، لمدّة سنتين ، ثمّ أُفرج عنه .

إعجابه بنفسه

صار المتنبي يحسّ منذ وقت مبكّـر مـن حياتـه بغير قليـل مـن الإعجـاب بنفسه ، وهو إعجاب جعله يتخيّل أنه ليس له شبيهٌ ، لا في فروسيّة ولا فضـل ، فهو الذي يَشْـرُف بـه قومـه ، وإنْ كـانوا أولي سَبْقٍ ، وهـو في نظـره الإنسـان الأكمل :

مـا مقـامي بـأرض نَخْلـةَ إلّـا — كمقـام المسيح بيـن اليهـودِ[1]

مَفْرَشي صَهْوةُ الحصـانِ ولكنَّ — قميصـي مسـرودةٌ مـن حديـدِ[2]

لَأمـــةٌ فاضـــةٌ أضـــاةٌ دِلاصٌ — أحكمـتْ نَسْـجَها يـدا داوُدِ[3]

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنتَ كريـمٌ — بين طعن القَنا وخَفْقِ البنـودِ[4]

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفوا بـي — وبنفسـي فخـرْتُ لا بجـدودي

وبهم فَخْرُ كلِّ مَنْ نطقَ الضّاد — وعَوْذُ الجاني وغوثُ الطَّريـدِ[5]

إنْ أكنْ مُعْجباً فعجـبُ عجيـبٍ — لـم يجدْ فوقَ نفسِه مـن مَزِيْدِ

أنـا تِرْبُ النَّدَى وربُّ القوافـي — وسمامُ العِدى وغيظُ الحسُودِ[6]

أنـا فـي أمَـةٍ تداركَهـا اللـهُ — غريـبٌ كصـالح فـي ثَمُـودِ[7]

---

(١) نخلة : اسم موضع .

(٢) مسرودة : درع منسوجة .

(٣) لأمة : درع .فاضة : فضفاضة . أضاة : غدير ، شبهها بـه لبريقهـا . دلاص : برّاقـة لّينة ملْساء . داود : نبيّ الله داود عليه السّلام أوّل مَنْ صنع الدّروع .

(٤) القنا : الرماح . البنود : الرايات .

(٥) عوْذ : التجاء .

(٦) ترب المرء : مَنْ ولد في وقت قريب من وقت ميلاده .

(٧) كان في عصر المتنبي آلاف العلماء في كل مجال ، وشعراء كثيرون ، لكنّـه لم يعترفْ لغيره بأيّ فضل ، ولم يجدْ لنفسه أيّ ندّ ، وأحسّ بالغربة ، ونسي جهاد النفس .

ولقد زاد إعجابه بنفسه مع الأيّام ، حتى بلَـغ حـدَّ الوَهْـم والنّرْجسيّة ، ولم يعدْ يقف لنفسه عند حجم ، فإذا هو يهجو كلّ النّاس :

أقَلُّ فَعالي بَلْـهَ أكثَره مَجْـدُ	**وذا الجِدُّ فيه نِلْتُ أم لم أنلْ جَدُّ[1]**
أذمُّ إلى هذا الزمـانِ أُهَيْلَـه	**فـأعلمُهمْ فَـدْمٌ وأحزمُهـمْ وَغْـدُ[2]**
وأكرمُهم كلبٌ وأبصرُهم عمٍ	**وأسـهدُهم فَهْدٌ وأشـجعُهم قِـرْدُ[3]**

ويقول :

أيَّ محـــلّ أرتقـــي	**أيّ عظيـــمٍ أتَّقـــي**
وكلُّ ما قد خَلَـقَ اللـه	**ومـــا لـــم يخلُـــقِ**
محتقـرٌ فـــي همّتـــي	**كشـعرةٍ فـي مَفْرِقـــي**

ويقول :

إنّـي وإنْ لُمْتُ حاسِدِيَّ فمــا	**أُنكر أنــي عقوبــةٌ لهــمُ**
وكيفَ لا يُحْسَدُ امـرؤٌ عَلَـمٌ	**له على كلّ هامّة قَدَمُ[4]**

---

(١) الفَعال : الفعل الحسن . بله : اسم فعل أمر بمعنــى دع . الجِـدّ : الاجتهـاد . الجَـدّ : الحظ .

(٢) فدم : عيّي غبيّ . وغد : أحمق خسيس .

(٣) الفَهْد : من أكثر الحيوانات نوماً .

(٤) العلم : الجبل . الهامة : الرأس .

مع سيف الدولة

كان المجد عند المتنبّي مَنُوطاً بسَعة ما في اليد ، وذيوع الاسم ، والسعي إلى كرسيّ الحكم ، فتوجه من أجل ذلك إلى الأمراء يمدحهم ، فكان ممّن مدحهم بدر بن عمّار ، وأبو العشائر ، وكان أبو العشائر الحمدانيّ على أنطاكية ، فوصله بأميره سيف الدولة في حلب .

وكان في حلب جمهرة من الأفذاذ ، كابن جنّي ، وأبي علي الفارسي ، وابن خالويه ، وأبي فراس .. فتعرّف عليهم ، وذاعتْ مدائحه في سيف الدولة ، ولكنّ إيغاله في الإعجاب بنفسه حوّل قلب الأمير – بعدَ مُدَّة – عنه ، فلم يَعُدْ يوليه رعايته الأولى ، وصوّر المتنبّي ذلك التّجافي عنه بقصيدته :

أرى ذلك القُربَ صار ازورارا ... وصار طويلُ السّلام اختصارا[1]

تركْتَنِيَ اليومَ في خجْلةٍ ... أموتُ مراراً وأحيا مرارا

ولي فيكَ ما لم يقلْ قائلٌ ... وما لم يَسِرْ قمرٌ حيثُ سارا

فلو خُلِقَ الناسُ من دهرهمْ ... لكانوا الظّلام وكنتَ النهارا

واستمر سيفُ الدولة في انصرافه عنه ، واستمرّ هو يعاني آلام الهَجْر ، وبلغ به الأمر أن أفصح عن معاناته بهذه القصيدة العتابية :

واحرَّ قلباه ممَّنْ قلبُه شَبمُ ... ومن بجسمي وحالي عندَه سَقَمُ[2]

مالي أكتّمُ حبّاً قد بَرَى جسَدي ... وتدّعي حبَّ سيف الدولة الأممُ[3]

---

(١) ازورارا : عدول وانحراف .

(٢)شبم : برودة . شبم : بارد .

(٣)برى : أنحل وأضنى .

إنْ كـان يجمعُنـا حـبٌ لِغرّتِـه فليـتَ أنّـا بقَـدْرِ الحـبّ نَقتَسِـمُ[1]
قد زُرتُه وسـيوفُ الهند مغمدةٌ وقـد نظـرتُ إليـه والسـيوفُ دمُ
فكـان أحسنَ خلْـق اللـهِ كلِّهـمِ وكان أحسنَ ما في الأحسن الشِّيَمُ[2]
يا أعدلَ الناسِ إلّا فـي معاملتي فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكَمُ
أُعيذُهـا نظـراتٍ منـكَ صادقـةً أن تحسِبَ الشّحْمَ فيمنْ شَحْمُه وَرَمُ
وما انتفـاع أخـي الدُّنْيا بنـاظره إذا استوتْ عنـدَه الأنـوارُ والظُّلَـم
أنا الذي نظَر الأعمى إلـى أدبـي وأسـمعتْ كلمـاتي مَـنْ بـه صَمَـمُ
أنام مِلْءَ جفوني عن شواردها ويَسْـهَر الخَلْقُ جرّاهـا ويختصِـمُ[3]
وجاهلٍ مـدَّه فـي جهلـهِ ضحِكي حتـى أتتْـه يـدٌ فرّاسـةٌ وفَـمُ[4]
إذا نظرْتَ نيوبَ الليـثِ بـارزةً فـلا تظنَّـنَّ أن الليـث مبتسـم
فالخيلُ والليل والبيـداء تعرفنـي والسيفُ والرمحُ والقرطاس والقلم

***

يـا مَنْ يعزّ علينـا أن نفـارقهمْ وجْدانُنـا كـلّ شـيءٍ بعدكـمْ عَـدَمُ[5]
إنْ كـان سركم مـا قـال حاسدنا فمـا لجـرحٍ إذا أرْضـاكمُ أَلَـمُ[6]
وبيننـا لـو رعيتـم ذاكَ معرفـةٌ إنّ المعارف في أهل النهى ذِمَمُ[7]
كم تطلبونَ لنـا عيبـاً فيعجزكـم ويكـرهُ اللـهُ مـا تـأتون والكـرَمُ

---

(١) غِرّة : طلعة . (٢) الشِّيَم : السجايا الرفيعة .

(٣) الشوارد : الأشعار السائرة . جرّاها : من أجلها . يقول الشعر الجيد وينام قرير العين ، ويُشْغل غيرهُ به ، ويختلفون في مراده ، وفي مدى إصابته .

(٤) فرَّاسة : فتّاكة . (٥) وجداننا : وجودنا .

(٦) كان الحسّاد يسعَون بأبي الطيّب لدى الأمير ، ويَشُون به ، حتى أوغروا عليه قلبه ، وضربه بمفتاح كبير فشجّه . وهو يشير إلى ذلك .

(٧) النهى : جمع نُهْية وهي العقل .

ماأبعدَ العيبَ والنقصان عن شرفي	أنا الثريّا وذانِ الشّيْبُ والهَرمُ[١]
لئنْ تركْنَ ضُمَيْراً عن ميامِنِنا	لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ ودَّعتُهم نَدمُ[٢]
إذا ترحّلْتَ عن قومٍ وقد قدروا	أنْ لا تفارقهمْ فالراحلونَ هُمُ
شرّ البلاد مكانٌ لا صديقَ به	وشَرُّ ما يكْسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ[٣]

مغادرته حلب

غادر المتنبّي حلب سنة ٣٤٦هـ ، وتوجّه إلى كافور في مصر ، وقلبه يكاد يتفطّر ألماً من الوشاة الذين حوّلوا قلب سيف الدولة عنه ، ولم يخفّف عنه بعض همومه إلا تعزّيه بحزن أصدقائه عليه لّما تركهم :

فراقٌ ومَنْ فارقتُ غير مذمَّمِ	وأَمٌّ ومَنْ يمَّمْتُ خير مُيَمَّمِ[٤]
وما منزلُ اللذّاتِ عندي بمنزلٍ	إذا لم أُبَجَّلْ عندَه وأُكرَّمِ
رحلْتُ فكم باكٍ بأجفانِ شادنٍ	عليَّ ، وكم باكٍ بأجفانِ ضيغمِ[٥]
وما ربّةُ القُرْطِ المليحِ مكانُه	بأجزع من ربّ الحُسَام المصمِّم
فلو كان مابي من حبيبٍ مقنّعٍ	عذَرْتُ،ولكنْ من حبيب معمَّم[٦]

---

(١) الثريا : مجموعة من النجوم في السَّماء . ذان : اسم إشارة إلى العيب والنقصان .

(٢) ضمير : جبل قرب دمشق . تركْنَ : الضمير يعود إلى الإبل .

(٣) يَصِمُ : يعيب ، يؤذي السُّمْعة .

(٤) فارق سيفَ الدولة محمودةً ذكراه عنده ، وقصد كافوراً ونعم المقصود . أمّ :قصد ، توجّه إلى .

(٥) باكٍ بأجفان شادن : كناية عن النساء اللائي بكَيْنَ لسفره . باك بأجفان ضيغم : الرجال .

(٦) حبيب مقنّع : النّساء . حبيب معمَّم : سيف الدولة .

في مصـــر

رحل المتنبي إلى كافور الإخشيدي في مصر ، فأكرمه كـافور ، وأحسن مثواه ، وأخلى له داراً ، وخلـع عليـه ، وحمـل إليـه آلافـاً مـن الدراهـم ، فقـال يمدحه ، وكان ذلك سنة ٣٤٦هـ :

كفى بكَ داءً أنْ ترى الموتَ شـافيا ... وحَسْبُ المنايـا أن يكُـنَّ أمانيـا[١]

تَمنَّيْتَهـا لمَـا تمنَّيْـتَ أنْ تـرى ... صديقـاً فأعيـا أو عـدواً مُداجيـا[٢]

إذا كنْـتَ ترضـى أن تعيـش بذِلَّـةٍ ... فـلا تسـتعدنَ الحُسَـامَ اليمانيـا[٣]

حبَبْتُكَ قلبـي قبلَ حُبِّـك مـن نـأى ... وقـد كـان غَدَّاراً فكنْ أنـتَ وافيـا[٤]

أَقِـلَّ اشـتياقاً أيَهـا القلـبُ ربَّمـا ... رأيتُك تُصفي الوُدَّ مَنْ ليس جازياً[٥]

خلقْتُ ألُوفاً لـو رَحلْتُ إلـى الصِّبـا ... لفارقت شيبي مُوْجَعَ القلب باكيـا[٦]

---

(١) كفى بك : كفاك . أي كفاك من الأذى أنّك صرت تتمنّى الموت .

(٢) تمنيتها : تمنَّيْتَ المنايا . المداجي : المـداري ، السـاتر للعـداوة . يفسـر معنـى الـداء في البيت الأوّل ، فلقد تمنّى الموت لمّا حاول الظفر بصديق مصـاف أو عـدو مـداجٍ فلـم يظفرْ بأيِّ منهما .

(٣) لا تستعدنّ : لا تتّخذ لك عدّة . إنّما يتّخذ السيف لرفع الـذّلّ ، فـإذا رَضِـيَ بـالذل فماذا يصنع بالسيف اليماني ولماذا يعدّه ؟

(٤) حَبَبْتُك : أحببتك . أحببتك يا قلبي قبل أن تحبّ أنت سيف الدولة ، فإنّك إنْ أحببتـه لم تكن وفيّاً لي : يعاتب قلبه على حنينه إلى مَنْ فارقه .

(٥) يأمر قلبه بألّا يشتاق إلى سيف الدولة الذي لم يجزِه على إخلاصه إخلاصاً مثله .

(٦) موجعَ : حال من التّاء في فارقْتُ .

ولكــنَ بالفُسْـطاط بحــراً أزرتُــهُ ... حياتي ونصحي والهوى والقوافيا

وجُـرْداً مدادنـا بيـن آذانهـا القَنـا ... فَبِتْــنَ خفافــاً يتْبعْــنَ العوَاليــا[1]

قواصــدَ كــافورٍ تَــوارِكَ غــيره ... ومن قَصَدَ البَحْرَ استقلّ السَّواقيا[2]

أبا المسك ذا الوجْهُ الذي كنتُ تائقـاً ... إليه وذا الوقتُ الذي كنتُ راجيـا[3]

أبـا كلّ طِيبٍ لا أبـا المِسْـكِ وحـدَه ... وكلّ سـحابٍ لا أخـصُ الغواديـا[4]

يُـدِلّ بمعنــىً واحــدٍ كــلُّ فــاخرٍ ... وقد جمع الرَّحْمنُ فيكَ المعانيـا[5]

إذا كسَـبَ النَّـاس المعـاليَ بـالنَّدىَ ... فـإنَك تُعْطـي فــي نــداك المعَاليــا

وغــيرُ كثـيرٍ أنْ يــزورَكَ راجِــلٌ ... فــيرجعَ ملْكــاً للعراقَيْــن واليــا

ومن الواضح أن المتنبي لم يكن صادقاً في مدح كافور ، وإنّما كان طامعاً أن يولّيه بعض البُلْدان ، وأن يتشفّى في الوقت نفسه من خلال مدح كافور من سيف الدَّوْلة ، ولقد كان كافور من الوعي على نحو لم تخف عليه أخطار تولية المتنبي فمثله لا يُؤْمَنُ أن يغير على أملاك سيف الدولة ، بل على أملاك كافور نفسه ، فلمّا أنْ أبى كافور إيصالَه إلى مبتغاه هجاه .

(١) جُرْداً : خيلاً . القنا : الرماح . العوالي : صدر الرماح .

(٢) قواصد وتوارك : جمع قاصدة وتاركة .

(٣) أبو المسك : كنية كافور

(٤) الغوادي : جمع غادية وهي السحابة التي تنتشر صباحاً .

(٥) يدلّ : يزهو .

مدحةٌ في سيف الدولة

وقفتَ وما في الموتِ شكٌ لواقفٍ	كأنّك في جَفْنِ الرَّدى وهو نائمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كلمَى هزيمةً	ووجهُكَ وضّاحٌ وثغرك باسم
ضَمَمْتَ جناحيْهِم على القلبِ ضمّةً	تموتُ الخوافي تحتها والقوادمُ[1]
ولستَ مليكاً هازماً لنظيرهِ	ولكنّك التوحيدُ للشِّرك هازِمُ
تشرّف عدنانٌ بهِ لا ربيعةٌ	وتفتخر الدنيا به لا العواصِمُ[2]
لك الحمدُ في الدّرّ الذي لي لفظُه	فإنّك معطِيه وإنّي ناظِمُ

وهذه الأبيات من قصيدته :

على قَدْر أهل العَزْم تأتي العزائمُ	وتأتي على قَدْر الكرام المكارِمُ

ومَن يطالع هذه القصيدة التي كاد فيها يؤلّه سيف الدولة من فَرْط ما بالغ ، وسائرَ سيفيّاته ، يتّضح له بجلاء أنّه لم يُخلِصْ لكافور ، ولا لأي ممدوح من قبل ولا من بعد كإخلاصه لسيف الدولة . بل إن مدحه لكافور فوق ما فيه من مبالغة يشتمل على تكلّف وغِشّ وسوء طَوِيَّة ، يقول في مدحه أخرى لكافور :

إنّما التهنئات للأكفاءِ	ولمنْ يدّني من البُعَداء[3]
وأنا منكَ لا يهنّئ عضوٌ	بالمسرّات سائرَ الأعضاءِ[4]

(١) جناحا الجيش : ميمنته وميسرته . القوادم : عشر ريشات في مقدّم جناح الطائر . الخوافي : ما تحتها . أي أنه أهلكهم جميعاً .

(٢)ربيعة : قبيلة سيف الدولة . العواصم : أنطاكية وما حولها .

(٣)يدّني : يقترب . يهنّئه عندما ابتنى داراً .

(٤)المتنبي – بزعمه – وكافور كالشخص الواحد .

أنــتَ أعلـــى محلّـــة أن تُهَنّـــا بمكان في الأرض أو في السَّماءِ

تَفْضَحُ الشمسَ كلّما ذرَّت الشـمسُ بشـــمس منـــيرةٍ ســـوداءِ

إنّ فـي ثوبـك الـذي المجـدُ فيـه لضيـاءً يُـزْري بكـلّ ضيـاءِ[1]

إنَّما الجلدُ ملبس وابيضـاضُ النفـ ـسِ خير من ابيِضاضِ القَباءِ[2]

كـرمٌ فـــي شـجاعةٍ ، وذكـــاءٌ فـي بهـاءٍ ، وقـدرةٌ فـي وفـاءِ

مَنْ لبِيض الملوكِ أن تُبْدِلَ اللّـوْ نَ بلـونِ الأسـتاذِ والسَّـحْناءِ[3]

ولقـد أفْنَـتِ المفـاوزُ خيلـي قبل أن نلتقي وزادي ومـائي[4]

فـارْمِ بـي مـا أردتَ منّـي فـإنّي أسَـدُ القَلْـبِ آدمـيُّ الـرُّواءِ[5]

وفـؤادي مـن الملـوك وإنْ كـا نَ لسـاني يُـرَى مـن الشّـعراءِ

هجـــاؤه لكافـــور

لمّا يئس المتنبي من توليه كافور له انقلب يهجوه ، ويرميه بالخِسّة والغَـدْر والكذب ، ويعيّره بلونه تعبيراً ينمّ على تكبّر واستعلاء لدى المتنبي ، وضعْـفٍ في النزعة الإنسانية الراشدة التي مهما أسرفتْ في ابتداع قِيم المذمّة فإنها تُبْقي اللون في منجاة عن أنْ يكون معياراً يُقَدَّرُ بمكياله وَضْع الناس . ومن أشهر ما هجا بـه كافوراً هذه القصيدة التي قالها عند خروجه من مصر سنة ٣٥٠هـ :

---

(١) يُزري : يستهين .

(٢) القباء : القميص ، الثوب .

(٣) السَّحْناء : الهيئة .

(٤) المفاوز : جمع مفازة ، وهي الفلاة .

(٥) الرُّواء : المنظر .

عيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدتَ ياعيدُ ... بما مضى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ[1]

أمّا الأحبّةُ فالبيداءُ دونَهمُ ... فَليتَ دونَك بيداً دونها بِيدُ

لولا العُلا لم تَجُبْ بي ماأجوبُ بها ... وجناءُ حَرْفٌ ولا جَرْداءُ قيدود[2]

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجَبُهُ ... أنّي بما أنا شاكٍ منه محسودُ

أمسيتُ أرْوَحَ مُثْرٍ خازناً ويداً ... أنا الغنيّ وأموالي المواعيد[3]

إنّي نزلتُ بكذّابين ، ضيفُهمُ ... عن القِرى وعن التَّرحالِ محدودُ[4]

جُودُ الرِّجالِ من الأيدي وجودُهمُ ... من اللّسان فلا كانوا ولا الجُودُ

ما يقبضُ الموتُ نفْساً من نفوسِهمُ ... إلّا وفي يده من نَتْنِها عودُ

أكلّما اغتالَ عبدُ السُّوءِ سيّدَه ... أو خانَه فلَهُ في مصرَ تمهيدُ

صار الخَصِيُّ إمامَ الآبقِين بها ... فالحرّ مستعبدٌ والعبدُ معبودُ[5]

نامتْ نواطيرُ مصرٍ عن ثعالبِها ... فقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقِيدُ[6]

العبدُ ليس لحرٍّ صالحٍ بأخٍ ... لو أنّه في ثياب الحُرّ مولود

لا تشترِ العبدَ إلّا والعَصا معه ... إنّ العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ [7]

---

(١) أعادَ العيد وقد تحسنتْ حاله أمْ عاد وهو على حاله من البؤس عندما لم يظفرْ بآماله في مصرٍ ؟

(٢) تجوب : تقطع . وجناء : ناقة عظيمة صُلْبة . حرف : ضامرة .جرداء : فرس قصيرة الشعر . قيدود : طويلة الظّهر .

(٣) أَرْوَحُ : من الراحة . أصبح غنياً ولكنّ خازنه ويده في راحة من أعباء الثراء ، لأن ثروته قائمة على مواعيد كافور الوهميّة .

(٤) محدود : ممنوع .

(٥) أبق العبد : هرب من سيّده .

(٦) نواطير : حرّاس . يحرّض أهل مصر على الثورة .

(٧) منكود : تعيس مشؤوم .

ما كنتُ أحسبُني أحيا إلى زمَنٍ يُسِيءُ بي فيه عبدٌ وهو محمودُ
ولا توهَمْتُ أن النــاس قد فقدوا وأنّ مثل أبي البيضاء موجـود[1]
وأنَ ذا الأسودَ المثقوبَ مشفَرُهُ تطيعُه ذي العضاريطُ الرَّعـاديدُ[2]
جَوْعانُ يأكلُ من زادي ويمسكني لكـي يُقَـالَ عظيم القَدْرِ مَقْصُــود
ويلُمّهــا خطــةً ويلــمّ قابلِهـــا لمثلها خُلِـقَ المَهْرِيَـةُ القـودُ[3]
وعندَها لذَّ طَعْمَ المـوتِ شـاربُه إنّ المنيَّـة عنـد الـذّلّ قِنْديــد[4]
مَنْ علّم الأسود المخصيَّ مكرُمـةً أقومُه البِيضُ أم آباؤه الصّيد[5]
أم أذنـه فـي يد النّخَّــاس داميــة أم قَدرُه وهو بالفلسَيْن مــردود
أولــى اللئـــام كويفــيرٌ بمعــذرةٍ في كلّ لؤمٍ وبعضُ العذرِ تَفْنيدُ[6]

---

(١) كنّاه أبا البيضاء استهزاء .

(٢) العضاريط :جمع عضروط ، وهو الذي يخدم الناس بطعام بطنه . الرعديد : الجبان .

(٣) ويلمّها : كلمة تقال عند التعجّب ، أصلها : ويْ لأمّهــا . خطّـة : تمييز . المَهْرِيّـة : الإبل . القود : الطويلة . ما أعجب هذه الحــال . ومـا أعجـب مـن يقبلهـا ، وإنّمـا خُلقت الإبل للفرار من مثلها .

(٤) القنديد : عصارة قصب السّكر إذا جمد ، والخمر .

(٥) الصيّد : الملوك .

(٦) تفنيد : لوم ، وتضعيف للرأي .

كل ذلك لأن كافوراً الحكيم لم يُجب المتنبي حين سأله ولاية في صيدا أو في صعيد بمصر ، مع إلحاح المتنبي في السؤال ، ورأينا إلحاحه بذلك فيما سبق ، وهو بادٍ في مثل قوله أيضاً :

أمولايَ هل في الكأس فضلٌ أنالُه ... فإنّي أغنّي منذ حين وتَشْرَبُ

وقوله :

قالوا هجرتَ إليه الغيثَ قلتُ لهم ... إلى غيوث يديه والشآبيبِ[1]
إلى الذي تهبُ الدَّوْلاتِ راحتُه ... ولا يمنّ على آثار موهوبِ

وما من شكّ في أنّ المتنبي قسا على كافور ، وألبسه من الصفات الجسمية والنفسية ما ليس فيه .

(١) الشآبيب : خيوط المطر .

نهاية المتنبّي

غادر المتنبي مصر سنة ٣٥٠هـ ، فقصد العراق وخراسان ، ومدح ابن العميد وعضد الدولة البويهي ، ونال عطايا كثيرة وخلال أَوْبته إلى بغداد خرج عليه فاتك الأسدي ، وكان المتنبي قد هجا ابن أخته ضبّة بن يزيد ، وأمّه - اخت فاتك - فقتله ، وذهب دمه هَدْراً ، وكان مقتله يوم الأربعاء في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٣٥٤هـ



٨

اعـداد

الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومولده ونشأته

هو الحارثُ بن سعيدِ بن حمدانَ الحمدانيُّ التَّغلبيُّ ، كان أبوه والياً على الموصل للخليفة الراضي[1] ، وكان مشهوراً مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقترن بفتاة روميّة أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ هـ ، ولقّبه أبا فراس ، وهي كنيةُ الأسد .

ولم يلبثْ سعيدٌ أَنْ قُتل غَدْراً وابنه يخطُو في سنته الثالثة ، وعُنِيتْ به أمّه فهيّأتْ له معلّمين أكفاءً ، وكذلك عُنِي بتربيته ابنُ عمه وزَوْج أخته سيف الدولة (علي بن عبد الله بن حمدان) ، فلمّا انتقل سيف الدولة إلى حلب سنة ٣٣٣ هـ اصطحبَ معه أبا فراس ، واهْتم بتدريبه على الفروسيّة ، كما اهتمّ بتعليمه الأدب ، وكَلّفَ ابنَ خالويْهِ بتعليمه ، وما مِنْ ريب أنّه أَفاد من الحركة الأدبية العلمية الكبيرة التي حرص سيف الدولة على تنشطتها في بلاطه ، وما كادَ أبو فراس يبلغ السادسة عشرة من عمره حتّى ولاّه منطقة منبج في الشمال الشرقي من حلب ، وفي تلك الأثناء كان سيف الدولة يكثر من الإغارة على الدولة البيزنطيّة ، فكان يصحبُه أبو فراس ، وأحياناً كان أبو فراس يُغير عليهم من دون سيف الدولة ، فقد نشأ على حبّ الجهاد ومصاولة الأعداء ، وهو القائل :

---

(١) أبو العباس محمد بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل ، ولد سنة ٢٩٧ هـ ، وبويع بالخلافة سنة ٣٢٢ ، ومات سنة ٣٢٩ هـ عن اثنتين وثلاثين سنة .

أتعجبُ أنْ ملكنا الأرضَ قَسْراً — وأن تُمْسي وسائدَنا الرِّقابُ

وتُرْبَطَ في مجالسنا المَذاكي — وتبرُك بين أرْجلنا الرِّكابُ ؟[1]

فهذا العزُّ أورثَنا العوالي — وهذا المُلْكُ مكَّنه الضِّرابُ[2]

وأمثال القِسِيِّ من المطايا — يجبّ غراسَها الخيلُ العرابُ[3]

فقصْراً إنّ حالاً ملكتْنا — لحالٌ لا تُذَمّ ولا تُعابُ[4]

الطالبيّة

مع أنّ حكام حلب كانوا وُلاة للعباسيّين ، كانوا يمارسون حُكْماً ذاتياً غير مركزيّ ، وكانوا على المذهب الجعفري الإمامي الاثني عشري ، بينما أهل حلب من مذهب الجماعة ، وما كان ذلك بضائر للخلفاء ما دام القائمون على الثغور يذُبّون عن ديار الإسلام ، وكأن هؤلاء الخلفاء نظروا إلى واقع المسلمين ، فأخذوه على ما هو عليه ، فليس ثمّة خطر في المخالفات الفقهية التي توسّع على المسلمين ، مما يَنطوي تحت إرشاد الحديث الشريف : ((اختلافُ أمّتي رحمة)) ، وهو اختلافٌ بسبب مناهج البحث للوصول إلى الحكم الأَصَحّ ، بحسب اجتهاد المجتهدين ، ولا يؤدّي إلى تعادٍ ولا تحاقد ، فإن مارسه المسلمون بأسلوب وَرع كان لمصلحتهم جميعاً ، وإنْ تناولوه بتعصّب وبغير حكمة لم يكن سليم العاقبة .

(١) المذاكي : الخيول الفتيّة . الركاب : الإبل . كان الأمير يخصّص بعض غرف قصره للخيول وأخرى للإبل ، بسبب حياتهم الحربيّة .

(٢) العوالي : الرماح . يقول إنّ قوة السّلاح هي التي بنتْ مجدَهم .

(٣) المطايا : الركائب ، يريد الخيول . يجبّ : يلقّح . العراب : الأصيلة . ومّما أورثهم هذا المجد الخيول المولودة من آباء أُصُل .

(٤) قصْراً : أي أقصروا وكفّوا عن استغرابكم لحالنا .

وكان بنو حمدان شيعةً جعفريّـة ، ويُحْمَـدُ لهـم أنّهـم جعلوا دَيْدَنهـم[1] ووُكدهم[2] في مجاهدة الدولة البيزنطيّة ، وصدّ هجماتها ، وكان سـيف الدولـة كلّما رجع من غزوهم نفضَ عنه غبار المعركة وجمـع ذلـك الغبـار ، فلمـا صـار لديه منه مقدار يكفي لصُنْع لَبِنَةٍ صنعها ،وأوصى بوضعها تحت رأسه في جدثه .

وعلى هذه الشّاكلة من الاهتمـام بمناضلـة البـيزنطيين كـان أبـو فـراس ، لكنْ قد يكبو الجواد ، وقد ينبو السَّيف ، وقد يشرد المـرء ، فـإذا هـو ينسَـى أن العباسيين هم الذين ولّوْا بني حمدان ، وإذا هو يفاخرهم ، بـل يهـاجمهم هجومـاً في إحدى قصائده ، في مثل قول :

يـا للرّجـال ، أمـا للّـه منتصـفٌ	**من الطُّغاة ؟ أما للدّين مُنتقِمُ .؟**
لا يُطْغَيـنَّ بنـي العبـاس ملكهـمُ	**بنـو علـيّ مواليهـم وإنْ زعمـوا**
وما تـوازنَ يومـاً بينكم شَرَفٌ	**ولا تَساوت بكـم فـي موطـن قـدمُ**
كم غدرةٍ لكمُ في الدِّين واضحةٍ	**وكـم دمٍ لرســول اللـــه عندكــمُ**

ويشـير في البيـت الأخـير إلى مـا صنعـه العباسـيّون ، وكـانوا دُهـاةً ، إذْ استغلوا نقمة الشِّيْعة على بني أميّة ، فنظّموهم في خلاياهم السّرية وقتَ الإعـداد للثورة ، فلمّا انتصرت الثورة أعلنوها عباسيّة ، ولم يولُّـوا مـن الطـالبيين إلا مَـنْ سار في ركاب السياسة العباسيّة ومن ثار منهم عصفوا به .

ويَمْضي الشاعر فيذكر إيقاع الرشيد بيحيى الـبرمكيّ ، وكـان يميـل إلى الطالبيّة ، فيقول :

يا جاهداً في مساويهم يكتّمها	**غَدْرُ الرشيد بيحيى كيف ينكتمُ**

---

(١) ديدن : عادة .

(٢) وُكد : اجتهاد واهتمام .

وكان الرشيدُ شديدَ الإكبار ليحيى البرمكي ، لأن المهدي والد الرشيد هو الذي أدنى يحيى ، فنشأ الرشيد على محبّته ، فلمّا آل الحُكم إلى الرشيد أطلق يدَ يحيى البرمكي في الدولة ، فلم يكن يصدر شيءٌ في الدولة إلا عنه وعن ولديه جعفر بن يحيى والفضل بن يحيى ، ولكنّه أحسّ فيهم ميولاً لإحياء الأمجاد الفارسية والقوميّة الفارسيّة ، والانفصال بإيران عن بغداد ، فنكّل بهم .

ثم يشير أبو فراس إلى تسلّط الأتراك على قيادة الجيش لمدة قرن من الزمان (١٣٢ – ٢٣٢) ثم نفوذ بني بويه من الفرس بعد ذلك (٢٣٢ – ٣٣٤) ، فيقول :

أبلغْ لديكَ بني العباس مألُكَةً :	لا تدَّعوا ملْكَها ؛ ملّاكُها العَجَمُ[١]
أيُّ المفاخرِ أَمسَتْ في منابركم	وغيرُكم آمرٌ فيهنَّ مُحتَكِمُ

فصحيحٌ أنَّ الخلفاء من بني العباس ، لكن كثيراً من زعماء الدولة وكبار ساستها أعاجم . ويقول أبو فراس إنّ الطالبيّن كثيرو التلاوة ، لا يتعاطَوْن الخمرة ، ولا يقارفون معصيةً بينما العباسيّون – في زعمه – عاكفون على اللهو والإفساح للمغنيات والمغنّين ، وعلى شرب الخمور :

تبدو التلاوةُ من أبياتهم أبداً	وفي بيوتكمُ الأوتار والنَّغَمُ
منكُم عليّةُ أم منهم وكان لهم	شيخ المغنّين إبراهيم أم لكمُ[٢]
ما في ديارهم للخمر معتصرٌ	ولا بيوتهم للسُّوء معتَصَمُ

(١) مَأْلُكَة : رسالة .

(٢) عليّة بنت المهدي : شاعرة ماجنة عباسية ، وإبراهيم الموصلي : مُغَنّ .

عبث وغفلة

في ديوان أبي فراس وأخباره أنّه مَجن في بعض الفترات من حياته ، ولها ، وغفَلَ يقول :

يا ليلةً لستُ أنسى طيبَها أبداً — كأنّ كلّ سرور حاضرٌ فيها
باتتْ وبتُ وباتَ الزقّ ثالثنا — حتى الصباح تُسقّيني وأسقيها[1]
كأنّ سود عناقيدٍ بلِمّتِهَا — أهدتْ سُلافَتَها صِرفاً إلى فيها[2]

وقال أيضاً :

تواعدْنا بآذار — لِسَعْي غير مختارِ
وقمنا نَسْحَبُ الرَّيْطَ — إلى حانةِ خمّار[3]
وما في طَلبِ اللهو — على الفتيان مِنْ عار

ويقول :

أقبلتْ كالبدر تسعى — غَلَساً نحوي براح
قلت أهلاً بفتاةٍ — حَمَلتْ نورَ الصَّباحِ
عللي بالكأس مَنْ — أصبح منها غيرَ صاحِ

(١) باتتْ : الضمير يعود إلى السّاقية . الزقّ : وعاء للخمر .

(٢) اللمّة : ما جاوز شحمة الأذن من الشعر . سلافة : خمر . صرفاً : خالصة .

(٣) الرّيْط : الملاءة . أي الثوب .

أَسْــرُ الرُّوم لــه

خرج أبو فراس مرَّةً إلى الصيد في ضواحي منبج سنة ٣٥١ هـ مع بعض غلمانه ، ولمّا كان في طريق إيابه باغته تيودور البيزنطي في كتيبة مسلّحة ، فقاوم أبو فراس حتى أثخنتْه الجراح ، عندئذ أسره الروم وذهبوا به إلى خَرْشَنَةَ ، على الفرات ، فبقي في حصنها مدّة ، ثم نقلوه إلى القسطنطينيّة ، وبقي في أسره إلى سنة ٣٥٥ هـ . ومعنى هذا أن مدّة أسره كانت أربعة أعوام ، ويقال بل كانت سبعة أعوام ، فيكون ابتداؤها بحدود سنة ٣٤٨ هـ .

وخلال سنوات أسره ألّف قصائد عُرِفَتْ بالروميّات ، وهي تفيض بمشاعر الأسى والحنين إلى الوطن والأهل ، وبالإلحاح على سيف الدولة كيما يفتكّه ، ويمكن تعليل تأخير سيف الدولة افتكاكه بأحد أمرين ، الأوّل أنه كان لدى الروم أسرى كثيرون من المسلمين ، سوى أبي فراس ، بلغوا ثلاثة آلاف ، وكان لدى سيف الدولة أسرى من الروم كُثر ، فانتظرَ إلى أن جرت مفاوضات لتبادل الأسرى ، وتمّ ذلك التبادل في بلدة خرشنة سنة ٣٥٥ هـ .

والأمر الآخر أنّ سيف الدولة ربّما لمح في نفس أبي فراس بعضَ أمارات انقلابيّة ، فلم يطمئنَّ إليه . فقد كان في نفس أبي فراس طموح كبير ، وهو طموح جعله يصطدم مع المتنبي في بلاط سيف الدولة ، وهو طموح أدى إلى قتله فيما بعد ، إذْ مات سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ ، فأعقبه ابنه أبو المعالي ، وكان صغيراً ، فكان قُرْغُوَيْهِ وصياً عليه ، فطمع أبو فراس بالحكم ، وثار في حمص ، وأخفقت ثورته ، وأصيب إصابةً بالغة ، فقال يخاطب ابنته وهو في أنفاسه الأخيرة :

أبنيّتــــي لا تحزنــــي | كلُّ الأنــام إلــى الذهــاب
أبنيّتــي صَـبْراً جميــــ | ـلاً للجليل مـن المُصـابِ
نُوحــي علــيَّ بحسـرةٍ | من خلف سترِكِ والحجابِ
قولــي إذا نــاديْتني | وعييتُ عـن ردّ الجـوابِ
زيـنُ الشبـابِ أبـو فرا | سِ لـم يُمتَّعْ بالشبـابِ

وكان مصرعه سنة ٣٥٧ هـ .

أغراض شعره

ينطوي ديوان أبي فراس على فخر وغزل ورثاء ووصف وأغراض أخرى ، بَيْدَ أنّ أبرز قصائده هي الروميّات ، فهي تتّقد أحاسيسَ وتضطرم مشاعر وعواطفَ وانفعالاتٍ ، سواء كانت في الحنين والشوق ، أم في استعطاف سيف الدولة ليفكّه ، أم في الافتخار بسالف أمجاده أو أمجاد الحمدانيين .

من روميّة له

دعوتُـك للجَفْـنِ القريـحِ المُسَـهَّدِ | لـديَّ ، وللنَّـوم القليلِ المشـرَّدِ(١)
ومـا ذاك بُخْـلاً بالحيـاة ، وإنّهـا | لأَوّل مَبــذولٍ لأوّل مُجتَــدِ(٢)
وما الأَسْرُ مما ضقْتُ ذرْعاً بحملـهِ | وما الخطبُ مَما أنْ أقول له قَـدِ(٣)
ولكنّني أختار موتَ بني أبــي | على صهوات الخيل غيرَ مُوسَّـدِ

(١) القريح : الجريح . المسهّد : المؤرَّق .

(٢) مجتدٍ : طالب لها .

(٣) قد : اسم فعل مضارع بمعنى يكفي .

وتـأبى وآبـى أنْ أمـوتَ موسَّـداً | بأيدي النصارى موت أكمدَ أكْبـدِ[1]
دعوتُـك والأبـواب تُرْتَـج دوننـا | فكنْ خـيرَ مدعوٍ وأكـرمَ مُنْجـدِ[2]
ولاتقعدَنْ عنّي - وقد سيمَ فِديتي | فلستُ عن الفعل الكريم بمُقْعَدِ[3]
متى تَلـدُ الأيّـام مثلـي لكـم فتـىً | شديداً على البأسـاء غير مُلَهَّدِ[4]
وإنَّـك للمولـى الـّذي بـكَ أقتـدي | وإنَّـكَ للنَّجْـمُ الـذي بـك أهتـدي
فيا مُلبِسي النُّعمى التي جَلَّ قدرُها | لقد أخلقَتْ تلـك الثِّيـابُ فجـدِّدِ[5]

رومية أخرى

أقولُ وقد نـاحتْ بقربـي حمامـةٌ | أيـا جارتـا لـو تشـعرينَ بحـالي
مَعاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارقةَ النّـوى | ولا خطَـرتْ منـكِ الهمـومُ ببـالِ
أتحمـلُ محـزون الفـؤادِ قـوادمٌ | على غُصنٍ نائي المسافة عـالي[6]
أيـا جارتـا مـا أنصـفَ الدهرُ بيننـا | تعـاليْ أقاسـمْكِ الهمـومَ تعـالي
تعـالي تَـرَيْ نفسـاً لـديَّ ضعيفـةً | تـردَّدُ فـي جسْـمٍ يعـذّبُ بـالِ[7]
أيضحـك مأسـورٌ وتبكـي طليقـةٌ | ويسـكتُ محـزون ويندبُ سـالي
لقد كنتُ أولَى منكِ بـالدمع مُقْلَةً | ولكن دمعي في الحـوادث غالي

---

(١) أكمد : حزين . أكبد : مصاب (مريض) في كبده .

(٢) تُرْتج : تُقفل ، تُغْلق .

(٣) عرف الروم أن أبا فراس أمير منبج ، فعرضوا على سيف الدولة أن يُطْلق لهم ابن أخت ملك الروم ، وكان أسيراً لدى سيف الدولة ، لقاء تسليمه أبا فراس . سيم : طُلب .

(٤) ملهَّد : ضعيف ، مدفَّع . (٥) أخلقتْ : بليتْ .

(٦) القوادم : أربع ريشات طويلات في مقدّم جناح الطائر . نائي : بعيد .

(٧) بال : مُدْنَف ، ضعيف .

رومية اخرى :

لـــولا العجـــوزُ بمنَبْـــجِ ... مـا خِفـتُ أسـبابَ المنيَـة
ولكــانَ لـــي عمــا ســألتُ ... مــن الفــدا نفــسٌ أبيَّــة
لـم تطَـرقْ نُــوبُ الحــوادث ... أرض هــاتيكَ التَّقيَّــة (١)
لكـنْ قضـاءُ اللـهِ والأحكــامُ ... تنفــذُ فـــي البريَّـــة
والصـــبر يـــأتي كـــلَّ ذي ... رُزْءٍ علـــى قـــدر الرزيـــة
لا زال يطـــرقُ مَنْـبِحـــاً ... فـــي كـــلَّ غاديـــةٍ تحيَـــة
فيها التقى والدِّيْن مجموعـان ... فـــي نفـــسٍ زكيَّـــة
يـــا أمَّتـــا لاتيأســـي ... وثقـي بفضـل اللـه فيَـه (٣)
يـــا أُمَّتـــا لاتيأســـي ... للـــهِ ألطـــافٌ خفيَـــة
كـــم حـــادثٍ عنَّـــا جـــلا ... هُ ، وكـم كفانــا مــن بليَّــة
أوصيــكِ بـــالصبر الجميـــل ... فإنَّـــه خـــيرُ الوصيَـــة

من روميّة أخرى

ترك الرومُ عليه ثيابه التي أُسِرَ بها ، ودِرعـه وسـلاحه ، لكنّهـم مَنُّـوا عليه بذلك فقال يردّ على ذلك ، ويعتذر عن أسره :

أراكَ عَصِيَّ الدمع شيمتُكَ الصَّبْرُ ... أمـا للهـوى نَهْـيٌ عليـكَ ولا أمْـرُ
بلـى أنـا مشـتاقٌ وعنـديَ لوعـةٌ ... ولكــنَّ مثلــي لايــذاعُ لـــه ســرُّ
كـأنّي أنــادي يـوم مَيْثـاء ظبيـةً ... على شرفٍ ظمياء حُلِّيَتْها الذُّعـرُ (٤)

---

(١) تطّرق : تصيب . النوب : المصائب . (١) الرُّزْء والرزيّة : المصيبة .

(٣) فِيّ : جار مجرور . والهاء للسَّكْت (للوقفْ) .

(٤) ميثاء : اسم موضع . شرف : مرتفع . ظمياء : قليلة اللحم . حليتها الذُّعْر أجمل أحوالها عندما تكون خائفة مذعورة متيقظة ، لأنها عندئذ تمدّ عنقها ، وتحدّق ببصرها بشكل خلاّب .

وإنّـي لَـنزّالٌ بكـلّ مَخوفَـةٍ | كثيرٍ إلى نُزّالها النَّظَرُ الشَّزْرُ(١)
وإنّـي لجـرّارٌ لكـلّ كتيبـةٍ | معـوّدةٍ أنْ لا يُخِلّ بها النَّصْـرُ
فأصدى إلى أن ترتوي البيضُ والقنا | وأسْغَبُ حتى يشبع الذِّئبُ والنَّسْـرُ(٢)
ولا أُصْبِحُ الحيَّ الغيورَ لغارةٍ | أو الجيشَ ما لم تأتِهِ قبليَ النُّذْرُ(٣)
ويـاربَّ دار لـم تُخفْني منيعـةٍ | طلعْتُ عليها بالرَّدى أنا والفَجْـرُ
ولا راحَ يُطْغيني بأثوابـه الغنى | ولا بـات يثنيني عن الكرم الفقْـرُ
وما حاجتي في المال بَغْيَ وفورهِ | إذا لم أَفِرْ عِرْضي فلا وَفَرَ الوفْرُ(٤)
أُسِرْتُ وما صَحبي بعُزْلٍ لدى الوغى | ولا فرَسي مُهْرٌ ولا ربُّه غُمْرُ (٥)
ولكنْ إذا حُمّ القضاءُ على امرئ | فليس لـه بـرٌ يقيه ولا بحـر (٦)
وقال أصيحابي الفرارُ أو الردّى | فقلتُ هما أمران أحلاهما مُـرُّ
ولكنّني أمْضي لما لا يعيبني | وحسبُكَ من أمرين خيرهما الأسْرُ
يَمُنّونَ أنْ خَلّوا ثيابي وإنّما | عليَّ ثيابٌ مِنْ دمائهم حُمْـرُ(٧)
وقائمُ سيف فيهمُ دُقّ نَصلُه | وأعقاب رُمح فيهم حُطِّمَ الصّدْرُ(٨)
سيذكرني قومي إذا جَـدَّ جِدُّهمْ | وفي الليلة الظَّلْماء يفتقدُ البَدْرُ(٩)
ولو سدّ غيري ما سددْتُ اكتفوا به | وما كان يغلو التِّبْر لو نَفَقَ الصُّفْرُ(١٠)

(١) مخوفة :مكان مُرْعب مخيف . النّظر الشَّزْر : الكريه ، أي ينظرون إليها نظرة كراهة .

(٢) أصدى : أعطش . البيض : السيوف . القنا : الرماح . أسغب : أجوع .

(٣) أَصْبح : أهاجم صباحاً . (٤) أفر عرضي : أحميه .

(٥) غُمْر : جاهل . (٦) حُمّ : قُدّر .

(٧) يشير إلى إبقائهم له سلاحه وثيابه . خلّوا : تركوا . (٨) دقّ : كُسِر .

(٩) في البيت تشبيه ضمني ، يشبّه حالة افتقاد قومه له في الحروب بافتقاد القمر وتذكّره في الظُّلْمة .

(١٠) التِّبر : خالص الذهب . الصُّفْرُ : النّحاس .

ونحـن أنــاسٌ لا توسُّط بيننــا   لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القَبْرُ
تَهُـونُ علينا في المعالي نفوسُنا   ومن يـخطُب الحسناءَلم يَغْلُه المَهْرُ[1]
أعزُّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلا   وأكــرمُ مِنْ فوق التُّراب ولا فَخْرُ

روميّة أخرى

قـفْ فـي رسـوم المسـتجاب   وحـيِّ أكنــافَ المصلّــى[2]
فالجوسقِ الميمونِ ، فالسُّقْيا   بهــا ، فــالنَّهر أعلـــى
تلــك المنــازلُ والملاعـــبُ   لا أراهــا اللــهُ مَحــلاّ[3]
أوْطِنْتُهــا زمَـــنَ الصِّبــا   وجَعَلْـتُ منبـجَ لـي مَحــلاّ
حيـثُ التفـتُّ رأيـتُ مــاء   ســابحاً وســكنتُ ظِــلاّ
تــرَ دار وادي عيـنِ قــاصرَ   مــنزلاً رحبــاً مُطِــلاّ[4]
وتحــلَّ بالجسـرِ الجنــان   وتسـكنُ الحصــنَ المعلّــى
تجلـــو عرائسُــه لنــا   هــزَجَ الذُّبــاب إذا تجلّــى
وإذا نزلنــــا بالســـــوا   جير اجتنينـا العيشَ سَـهلا[5]
والمــاءُ يفصــل بيــن زهــرِ   الرَّوضِ فـي الشَّـطَّين فَصْـلا

---

(١) يغلو : يكون غالياً . وتعدّى هنا إلى الهاء مباشرة ، وفي الأصل لم يغل عليه .

(٢) الرسوم : آثار الديار . مفردها رسم . أكناف : جوانـب . المستجاب والـمصلى : موضعان . وكذلك الجوسق في البيت التالي .

(٣) مَحْلاً : قحطاً .

(٤) وادي عين قاصر : اسم موضع .

(٥) الساجور : التّنور . وهنا اسم موضع .

كبساط وَثني ، جَـردَتْ ... أيدي القيونِ عليه نَصْلا[1]

مَنْ كان سُرّ بما عراني ... فليَمُتْ ضُرّاً وهَزْلا

لم أخلُ فيما نابني ... من أنْ أعَزّ وأنْ أُجَلاّ

رُعْتُ القلوبَ مَهابةً ... وملأتُها فضلاً ونبلا

ما غَضّ منّي حادثٌ ... والقَرْمُ قرمٌ حيث حلاّ[2]

أنّى حَلَلْتُ فإنّما ... يدعونني السيف المُحَلّى

فلئنْ خلصتُ فإنني ... شرَقُ العدى طِفْلاً وكهْلا[3]

ما كنتُ إلاّ السيف زا ... د على صروف الدهر صقلا

ولئن قُتِلْتُ فإنّما ... موتُ الكرام الصِّيْدِ قتْلا[4]

يغترّ بالدنيا الجهولُ ... وليس في الدنيا مُمَلّى[5]

---

(١) القيون : جمع قين ، وهو الحدّاد .

(٢) القَرْم : الفحل . البطل .

(٣) شرق : ما يغصّ لدى ذكره أعداؤه .

(٤) الصِّيد : السّادة الأعزّاء .

(٥) مملّى : إمهال . ليست الدنيا دار بقاء .

تعليق على النصّ الأخير

يبدأ الشاعر أبياته بالوقوف على الأطلال ، ويتغنّى بذكر مواقعها أيّام الصِّبا ، ويدعو لها بالخير ، ثم يذكر مَنْبجاً ، وهي عنده ماء كثير ، وظلّ ظليل ، ومنظر جميل .

وينتقل من التعبير عن عاطفة البين والشَّوْق إلى الحديث عن الشامتين ، فيصبّ عليهم جام سُخْطه ، ويفخر بصبره وشجاعته وثباته ، أمام الأعداء ، وأمام النوائب ، ويُنْهي أبياته بتعزية نفسه بأنّ الكريم معرّض للموت ، فلا تثريب عليه إن قتل ، وليست الدنيا بدار قرار .

والأبيات نديّة بالعاطفة ، وهي متنوّعة ، فيها شوق وحنين وحبّ وكُرْه وزَهْو وخيلاء .

وألفاظ النصّ سهلة تصدر من نبع غزير ، ولها رنّة موسيقيّة حسنة الوقع في السَّمْع ، وفي بعضها إيحاء مثل كلمة الملاعب التي تصوّر أطوار الصّبا والشباب ، وكلمة الظل توحي بمناظر الأشجار والحدائق التي ترتاح إليها النفوس .

ويغلب على جمله الطول والإطناب ، ولها إيقاع موسيقي سريع يتأتى من نغمة مجزوء الكامل ، وهي نغمة راتبة تلائم جواء الأسر .

والأبيات غنيّة بالصور الموجزة أو المفصّلة ، ومن صوره الموجزة تلك الأشجار التي تمدّ ظلالها ، ومن الصّور المفصّلة صورة منبج ، وهي تعتمد على التشبيه التمثيلي ، وتتّسم بالهدوء والصفاء والنّقاء والجمال ، وإن لم يكن فيها خرير الماء وحفيف الأشجار ، وتغريد الأطيار .

والأبيات تمتاز بصدق العاطفة ، وعذوبة اللفظ ، وسلاسة الأسلوب ، وجمال الخيال ، وأبرز خصائصها طرّاً الاتّقاد العاطفيّ الذي أسعرتْه مرارةُ الأَسْر ، ومصاعبُ الغُرْبة .



إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبدالله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ونشأته

هو أبو الحسن محمد بن الحسين (أبي أحمد الطاهر) الموسوي ، نسبة الى موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ولد الشريف سنة ٣٥٩هـ ، وعايش ثلاثة من الخلفاء ، أولهم المطيع لله ، وهو الفضل بن المقتدر الذي حكم تسع عشرة سنة (٣٣٤ - ٣٦٣) ومات والشريف في الرابعة من عمره .

والخليفة الثاني الطائع بن المطيع ، واسمه عبد الكريم بن الفضل ، وحَكَم ثمانية عشر عاماً (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) وكان بينه وبين الشريف الرضيّ صداقة وطيدة ، ومع ذلك فقد حبس عضد الدولة البويهي الحسينَ بن موسى ، والد الشريف مدة سبع سنوات (٣٦٩ - ٣٧٦) ، ولم يخرج الحسين من سجنه إلا بعد موت عضد الدولة سنة ٣٧٦ ، ومجيء ابنه شيرويه بن عضد الدولة من بعده ، وكان في شيرويه رحمة ، وحبٌ للخير ، وكره للظُّلم ، فأحسن معاملة الحسين في سجنه ، ثم أطلق سراحه ، وكان الشريف قد بدأ الشعر يسيل على لسانه ، فقال يشكر شيرويه الذي لُقّب شرف الدولة ، لتحسينه معاملة أبيه ، وذلك قبل إطلاق سراحه :

أحظَى الملوك من الأيام والدُّول — من لاينادم غيرَ البيضِ والأسَلِ [١]
إيهٍ لقد أسر الدنيا بنجدتِهِ — أبو الفوارس ، والإقدامُ للبطل [٢]
ماض على الهَوْل ، طلاّع بغرّته — على الحوادث ،مقدامٌ على الأجَل [٣]
هُنِّئتَ يا ملك الأملاكِ منزلةً — ردّتْ عليك بهاء الأعصر الأُول [٤]
دعاك ربُّ المعالي زينَ ملّته — وملةٌ أنت فيها أعظمُ المِلَل [٥]
ياقائد الخيل إن كان السنانُ فماً — فإنّ رمحَك مشتاقٌ إلى القُبَل [٦]
لله زهرةُ مُلكٍ قام حاسدُها — وليس يعلم أن الشمس في الحَمَل [٧]

مع القــادر الله

الخليفة الثالث الذي عايشه الشريف الرضي هو القادر بـا لله (أحمد بن إسحاق بن المقتدر) الذي حكم إحدى وأربعين سنة (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) ، وقال الشريف يهنئه حين تسلم الخلافة :

(١) أكثرُ الناس نجاحاً وتوفيقاً ذلك الذي يرافق السلاح ، من بيض : أي سيوف وأسل : رماح .
(٢) إيه اسم فعل أمر بمعنى زدني .
(٣) غرته : إشراق وجهه يقول : إنه شجاع يستقبل النوائب بالصبر ، ولايهاب موارد الموت .
(٤) ملك الأملاك : ملك الملوك ، وهو شرف الدولة شيرويه كبير رجال الخليفة الطائع ، ودام في منصبه ثلاث سنوات ، ومات شاباً سنة ٣٧٩ هـ .
(٥) رب المعالي : الخليفة الطائع ، وكان قد لقب شيرويه زين الملة .
(٦) يردد زعم المنجمين : إذا كانت الشمس في برج الحمل كان ذلك وقت إسعاد . وأقوال المنجمين لا صحة لها .

شرفُ الخلافة يابني العباس   اليوم جـدّده أبو العبـــاس [1]

ذا الطّود أبقاه الزمان ذخيرةً   من ذلك الجبل العظيم الراسي

وكان والد الشريف الرضي قد علا شأنه كثيراً ، فصار قاضي القضـاة ، والمشرف على المساجد ، ونقيـب الطـالبيين ، وأمـير الحـج ، ومراقـب المظـالم ، لكن القادر با لله أعفاه من كل هذه المناصب سنة ٣٨٤ ، و تسـلمها بعـد أربـع سنوات ابنه الشريف الرضي في حياة أبيه .

وكما مدح الشريف الرضي الطائع مدح أيضاً القادر با لله ، لكنّ مديحه له مشوب بشعور منه أنه هو الأجدر بالخلافـة مـن العباسـيين ، فـإذا هـو يفخـر بنفسه خلال مدحه للقادر بمثل قوله :

عطفاً أمير المؤمنين فإنّنا   في دوحة العلياء لا نتفــرّق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت   أبداً كلانا في المعالي مُعـرق

إلا الخــلافة ميزتك فأنني   أنا عاطلٌ عنها وأنـتَ مُطوّقُ

شـــيوخـــه

تتلمـذ الشـريف الرضـي لعلمـاء عصـره في بغـداد مـــن رجـــال الشـــيعة وغـيرهم ، مثـل أبـي علـي الفارسـي وابـن جـني والمرزبـاني في اللغـة والنحـــو ، والقـاضي عبـد الجبـار في الاعـتزال ، والشـيخ المفيـد في الفقـه وأصـول العقيـــدة الإمامية . وحذق الشريف الرضي في علوم العربية وعلوم الدين والتاريخ .

---

(١) أبو العباس : كنية الخليفة القادر با لله .

آثـــــاره

١- ديوان شعره .   ٢- معاني القرآن .   ٣- حقائق التنزيل .

٤- مجاز القرآن .   ٥- مختارات من الشعر .   ٦- مختار شعر الصابئ .

٧- مختارات من شعر ابن الحجّاج .   ٨- طيف الخيال .

٩- المجازات النبوية .

وينسب إليه أيضاً كتاب نهج البلاغة . قال الأستاذ نعيم الحمصي : ((ويعتقد بعضهم أنّه وضع أكثَره ونسَبه إلى علي رضي الله عنه ، ويستدلون على ذلك بما فيه من المواضيع التي لاتتفق مع عصر الخلفاء الراشدين ، كالمواضيع التي تتصل بفلسفة الأخلاق وقواعد الاجتماع ، وبما فيه من تعرض لأبي بكر وعمر ومعاوية رضي الله عنهم ، وتكلف الصنعة ، ودقة في وصف أشياء لاتعني علياً رضي الله عنه في عصره كثيراً ، كوصف الطاووس مثلاً ، وقد يكون سبب هذا أن الشريف جمع كل ما نسب إلى علي رضي الله عنه من صحيح ومنحول [1])) .

وقال الدكتور شوقي ضيف :

((وقد خلّفَ علي خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبري ، على أنه ينبغي أن نقف موقف الحذر مما ينسب إليه من خطب في الكتب المتأخرة ، وخاصة نهج البلاغة ، فإن كثرته وُضعت عليه وضعاً . وقد تنبه إلى ذلك السابقون (انظر ترجمة الشريف المرتضى في ابن خلكان ، وراجع مرآة الجنان لليافعي ٣/٥٥ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٥٧)) ، واختلفوا في واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضي .

---

(١) الرائد في الأدب العربي (دار المأمون للتراث ط٢) ص ٣٦١ .

وممن يقول إنه الشريف المرتضى الذهبي في ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو ٢٠١/٢) ، وابن حجر في لسان الميزان (طبعة آباد ٢٢٣/٤) .

وذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابة ((الرجال)) إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضي (كتاب الرجال ، طبعة - بومباي ، ص ١٩٢ ، ٢٨٣) ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفّه ووسَمَه باسمه ((نهج البلاغة)) (حقائق التنزيل للشريف الرضي [طبعة النجف] ١٦٧/٥) . وذكر ذلك أيضاً في [1] كتابة ((مجازات الآثار النبوية)) (طبع بغداد ، ص ٢٢ ، ٤١) . وقد تحدث عن الشريف الرضي وترجمه أصحاب وفيات الأعيان ، وتاريخ بغداد ، والمنتظم ، ويتيمة الدهر ، ونزهة الجليس ، والذريعة .

وأفاد فيه كتاباً كلٌّ من زكي مبارك ، ومحمد رضا آل كاشف الغطاء ، وحنا نمر ، وطارق كيلاني ، وإحسان عباس ومحمد عبد الغني حسن .

موته

لم يستمر الخليفة القادر في تقديم الشريف الرضي ، لما مسه لديه من حب الثورة والرغبة في الإطاحة بالعباسيين ، مما تجلى واضحاً في مثل قصيدته :

متى أرى الزَّوْراء مرتجّةً — تُمطرُ بالبيض الظُّبا أو تُراحْ [1]

يصيحُ فيها الموتُ عن ألسُنٍ — من العوالي والمواضي فِصَاح [2]

---

(١) العصر الإسلامي (الطبعة الرابعة) ١٢٨ .

(٢) الزوراء : بغداد . الظُّبا : جمع ظبة ، وهي حد السيف . تراح : تهلك .

(٣) العوالي : الرماح . المواضي : السيوف .

واتهّم الشريف بميل إلى الفاطميين في مصر ، فنحّاه الخليفة القادر با لله عن مناصبه الرسمية سنة ٤٠٣ هـ ، فأمضى آخر أيامه في سُرَّ من رأى ، ومات فيها سنة ٤٠٦ هـ .

الشريف يردد أصداء المتنبي

كان الشريف الرضي محباً لشعر المتنبي ، على عكس أخيه الشريف المرتضى ، ومن هنا كان تأثر الشريف الرضي بمواقف المتنبي ، وطموحه ، ورغبته في إنشاء دولة وتزعُّمِها ، وعلى شاكلته كان شديد الاعتداد بنفسه ، والإكثار من الحكم وضرب الأمثال ، إلا أن المتنبي كان يتكسب بشعره ، ولم يكن يتكسب بشعره الشريف الرضي ، مكتفياً بما ورثه عن أبيه ، وبما يدرّه عليه خُمس آل البيت من نصيبب .

ومن الأبيات التي نحسّ فيها بأنفاس تشبه أنفاس المتنبي قول الشريف الرضي :

سئمت زماناً تنتحيني صروفُه وُثوبَ الأفاعي أو دَبيبَ العقاربَ (١)

مُقامُ الفتى عجز على مايضيمُه وذُلُّ الجرئ القَلْبِ إحدى العجائب (٢)

سأركبُها بَزْلاءَ إما لمادحٍ يُعدّد أفعالي ، وإمّا لنادِب (٣)

(١) تنتحيني : تصيبني . لقد ملّ حياته لكثرة النوائب التي تستهدفه ، وتثب عليه كوثوب الأفاعي أو تدب إليه كدبيب العقارب .

(٢) من العجز الإقامة في موطن الذل ، ولاسيما إذا كان ذلك المقيم شجاعاً .

(٣) خطة بزلاء : تفصل بين الحق والباطل . والبزلاء : الداهية . سيغامر ويخاطر ، فإن نجح مدح ، وإن هلك رثي .

إذا قلَّ عزمُ المــرء قـلَّ انتصــارُه ... وأقلعَ عنه الضَيمُ دامـي المخـالبِ [1]

وما بلغ المرمى البعيدَ سوى امرئٍ ... يـروحُ ويغــدو عُرضــةً للجــواذبِ

ومــاجرَّ ذُلاً مثـلُ نفــسٍ جزوعــةٍ ... ولاعاق عزماً مثلُ خوفِ العواقب [2]

ألا ليتَ شعري هل تُسالمني النَّــوى ... وتخبو هُمومي من قِراع المصائب[3]

إلـى كـم أذودُ العيـنَ أن يسـتفزَّها ... وميضُ الأماني والظنونِ الكواذب [4]

حُسدتُ على أنــي قنعتُ فكيف بي ... إذا ما رمى عزمي مجالَ الكواكب [5]

ومــا عِفَّــةُ الإنســان إلا غبــاوةٌ ... إذا لـم يكـافحْ داءَ وجـدٍ مغـالب [6]

وكثيراً ما تـرى أشعاره تفيـض بأحاسيس أو انفعـالات جيّاشـة بـالقوة والفتوة والعزة ، يقول :

لغير العُلا مني القِلى والتجنُّبُ ... ولولا العلا ماكنت في الحب أرغب

وإن تـك سـني ماتطـاولَ باعُهـا ... فلـي مـن وراء المجد قلب مُدَرّب

وحسبيَ أني في الأعادي مُبَغَّض ... وأنــي إلــى غـرّ المعـالي مُحبَّـب

وللحِلـم أوقــاتٌ وللجهـل مثلُهـا ... ولكنَّ أوقــاتي إلــى الحلـم أقـربُ

ولا أعرف الفحشاءَ إلا بوصفِها ... ولاأنطق العـوراءَ والقلـبُ مُغْضبُ

(١) إذا ضعفت همة المرء لم ينتصر ولم يعزّ .

(٢) جزوعة : غير صابرة .

(٣) النوى : البعد . تخبو : تفتر .

(٤) أذود : أقاوم . يستفزها . يستخفها .

(٥) حسد مع أنه قاعد عن طلب العلا ، فكيف إذا طلبه ؟

(٦) من الخطأ في رأيه عدم إشباع المرء لرغائبه (من الطُّرق المشروعة) .

براعة شـعـره

يختار الرضي ألفاظاً جزلة ، هي أحياناً حسنة الوقْعِ ، أو خلابـة ، لكنهـا في الأغلب الأعم غريبة المعاني ، غامضة ، في حاجة إلى إيضـاح حتـى ينكشـف المعنى الذي تحمله ، والانشغال في استجلاء فحواهـا يعـوق حركـة الاستمتاع بها .

لكـنّ تأليفـه لألفاظـه متسـم بالإحكـام ، وعواطفـه تتشـح في أكثرهـا بالعنفوان والطموح ، ولكنها ترق لدى الغزل ، وفي مغزى غزله رأيٌ سأبينه إن شاء الله لدى الحديث عن حجازياته .

وهو متمكّن في الوصف ، سيالة فيـه عبارتـه ؛ يقـول في الشـيب الـذي أسرع إلى لِمّته :

تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدي … وتـضـل في ليل الشباب الغابر

لــو يُفتدى ذاك الـشـبــابُ فديته … بسواد عيني بل سواد ضمائري

وأحياناً يبرع في وصف المشاهد الطللية ، كما في قوله :

ولقـد وقفتُ على ديارهُم … وطلولُها بيـد البلى نهْبُ

فبكيت حتى ضجّ من لَغَب … نِضْوي ولجّ بعذليَ الركْبُ [١]

وتلفّتت عيني فمذ خفيت … عني الطـلـولُ تلفّتَ القلبُ

حجـازيّـاتــه

طرق ديوانُ الشـريف الرضـيّ أبـوابَ المديـح والفخـر وشـكوى الزمـان والرثاء والغزل والوصف .ولكنه شهر بالغزل الذي ساقه خلال قصائده في الحج

---

(١) لغب : تعب . نضوي : راحلتي الهزيلة .

غالباً ، وهنا تتوارد إلى الذهن عدة تساؤلات ، منها : لَمَ يحسّ قارئ ديوان هذا الشاعر الفقيه المتمكن في الفقه الجعفري خلوّه أو شبهَ خلوه من الشعر الديني الواعظ أو المثني على الله جل جلاله ، أو المادح للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ؟

فإذا أقبل الباحث على حجازيات الشريف ليسلكها في الغزل الرمزي الذي أُثِر عن المتصوفة ، ويخاطب في ظاهره سلمى وسُعْدى وهنداً .. وهو إنما يرمز إلى حقائق دينية عظيمة ، من خلال لغة خاصة اصطلحوا عليها وتعارفوا عليها فيما بينهم ، وهي لغة يُوعظ المطّلِع عليها بالتأنّي لفهم المراد ، وعدم المسارعة في قذْفِ القوم بألوان التُّهم ، وفي الوقت نفسه يُوعَظ أصحاب تلك اللغة بألاّيتمادَوْا في الرموز ، وبأن يحرصوا على إيضاح المغزى ، وبأن يبقى قولهم – مهما أمعن في الرمْز . سليماً من المتشابهات والعبارات المُلبِسةِ أو الموهمةِ بوحدة الوجود أو الاتّحاد أو الحلول أو غيرها من الموبقات .

وبعبارة أخرى ألاّيَنْسَوا أن التصوف الإسلاميَّ مستقلٌ استقلالاً تامّاً عن تصوف سائر الأمم ، فتصوف كل أمة تابع لشريعتها وإذاً فتصوُّفُ الأمة الإسلامية مصُونٌ بالشريعة الغراء والمحجَّة البيضاء ((ليلُها كنهارها)) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تصوف يغاير تصوف النصارى أو اليهود أو الهنادكة أو السقراطيّين ..

إذا أراد الباحث أن يسْلك حجازيات الشريف الرضي في هذا الغزل الصوفي وجد بعض النصوص تعينه على ذلك ، وبعضها يتأبى .

فمن النصوص التي تندرج في طواعيةٍ في الغزل الصوفي قوله :

أيُّهـا الرائحُ المُغِـذُّ تـحـمَّلْ — حاجةً للمتيَّمِ المشتـاقِ [١]
اقْرَ عنِّي السَّـلامَ أهلَ المصلَّى — فبلاغُ السّلامِ بعضُ التَّلاقـي
وإذا ما مررْتَ بـالخَيْفِ فاشـهدْ — أنَّ قلبي إليـه بالأشـواقِ [٢]
وإذا ما سُئلتَ عنِّي فقلْ نِضْـوُ — هوىً ما أظنُّه اليـومَ باقـي [٣]
ضاع قلبي فانشُدْه لي بينَ جَمْـعٍ — ومِنىً عند بعضِ تلك الحِدَاقِ [٤]
وابكِ عني فطالَما كنتُ من قبـلُ — أُعيـرُ الـدمـوعَ للعُشّـاقِ

ومن النصوص التي تستعصي على الباحث أن يدرجها في غزل المتصوفه قوله :

ورامِيـنَ وهْـنـاً بالجمار وإنَّما — رمَوْا بين أحشاء المحبّين بالجَمْـر [٥]
رمَوْا لا يُبالون الحشا وتروّحـوا — خليلَيْن و الرامي يُصيب ولا يَدْري [٦]
وقالوا:غداً ميعادُنا النَّفْرُ عن مِنىً — وما سـرَّني أن اللقاءَ مع النَّفْـر [٧]
ويـابـؤسَ للقربِ الذي لا نذوقُه — سوى سـاعةٍ ثم البعادُ مدى الدَّهرْ
فيا صـاحبي إن تُعْطَ صبراً فإنّني — نزعت يدَيَّ اليومَ من طاعة الصَّبْر
وإن كـنتَ لم تـدرِ البُكا قبل هذهِ — فميعادُ دمعِ العَيْن مُنْقلبُ السَّـفْر [٨]

---

(١) المغذّ : المسرع في سيره . المتيم : العاشق .

(٢) الخيف : منطقة قرب مكة فيها مسجد .

(٣) نضْو هوى : أصابه النحول من أثر الهوى . باقي : مفعول به ثان لفعل أظنه ، وحقّه النصب .

(٤) انشدْه : اطلبْه . جمع ومنى : اسما موضعين . الحداق : العيون .

(٥) رامين : اسم فاعل من رمى (رام – رامون – رامين) وهناً :بجزء من الليل . الجمار : الحصى التي يستعملها الحجيج في الرجم

(٦) الحشا : ألم الحشا . (٧) النّفر : النفور للرجوع إلى بلادهم .

(٨) المنقلب : وقت العودة . السفر : المسافرون .

ظبيـة الـبـان

من أجمل قصائد الشريف الرضي ميميّـة حجازيّـة ذهـب النّقـادُ إلى أنهـا تندرج في الغزل المعروف عند الشعراء ، ورأى فريق من هؤلاء النقاد أنّها أقـربُ إلى الغزل العفيف الـذي عـرف في العصـر الأمـوي . لكننـا لـو عرضناهـا علـى أصحاب الطرق الصوفيّة فإننـا نجدهـم لا يمـانعون أن تكـون هـذه القصيـدة مـن الشعر الرمزي الصوفي . يقول الشريف الرضي فيها :

يـا ظبيةَ البانِ ترعى في خمائِلِه　　　ليَهْنِكِ اليومَ أنّ القلب مَرْعـاك [1]

المـاءُ عندكَ مبذولٌ لـشـاربـهِ　　　وليس يُرويكِ إلا مدْمعي الباكي [2]

(١) البان : شجر في البادية لين معتدل القـوام . الخمـائل : جمـع خميلـة ، وهـي الشـجر الملتفّ الأغصان الناعم الأوراق . ليهنك : ليهنئك ، من هنأ الطعام الرجل إذا سـاغ له ولذّ . يخاطب محبوبته بأن حبها قـد استولى على قلبـه ، فهـي تتصرّف بـه كمـا تشاء ، وهو يشبّهها بظبية البان ترعى خلال أشجاره و أعشابه .

وفي قوله ظبية البان استعارة تصريحية ، وفي قولـه ((أنّ القلـب مرعـاك)) تشـبيه بليغ . وقد ردّ عجز البيت ((مرعاك)) علـى صـدره ((ترعـى)) ، ونظـر في هـذا البيت إلى قول أبي نواس :

مقنّعةٌ بثوبِ الحُسْنِ تَرْعَـى　　　بغيرِ تكلّفٍ ثمرَ القلوبِ

(٢) مبذول لشاربه أي مبذول لك .

هبَّتْ لنا من رياح الغَوْرَ رائحـــةٌ بعدَ الرُّقاد عرفناها برَيّـــاك [1]
ثـم انـثـنَـيْـنـا إذا مـــا هزّنا طربٌ على الرِّحال تعلّلْنا بذكـــراكِ [2]
سهمٌ أصابَ ورامـيـــه بذي سلَمٍ مَنْ بالعراق لقد أَبعدْتِ مَرمـاكِ [3]
وعــدٌ لـعينَيْكِ عندي ما وَفَيْتِ بهِ يـا قُرْبَ ما كَذَبتْ عينيَّ عَيْنـاكِ
حكَتْ لحاظُك ما في الرّيمِ مِنْ مُلَحِ يومَ اللّقاءِ فكان الفَضْلُ للحـاكي [4]
كـــأنَّ طرفَك يوم الجِزْعِ يخبرُنا بما طوى عنكِ من أسماءِ قتلاكِ [5]
أنـــت الـنـعيم لقلبي و العذاب له فما أمرّك في قلبي وأحـــلاك [6]
عندي رسائلُ شوق لسْـت أذكرها لولا الرقيبُ لقـــد بلّغْتُهـا فـاك

---

(١) الغَوْر : منطقة تهامة ، رائحة : ريح مسائية . الرّيّا : الرائحة الطيبة ، و جانس بين رياح ورائحة ، وطابق بين هبَّتْ و الرّقاد ، و الرضي نظر في هذا البيت إلى قول عمر بن أبي ربيعة :

فدلّ عليها القلبَ ريّا عرفتُها لها وهوَى النّفْس الذي كاد يظْهرُ

(٢) انثنينا : رجعنا . تعلّلّ :تسلّى وتعزى . والطَّرب هنا الحزن و الشوق

(٣) ذو سلم : موضع قرب مكّة . وفي سهم استعارة تصريحية . وفي البيت رد العجز على الصدر (راميه .. مرماك) .

(٤) حكت : شابهت . الريم : الظبي الأبيض . ملح : محاسن .

(٥) الجِزْع : موضع بالحجاز . الطَّرف : العين . طوى : أخفى . واستعار القتلى للعشّاق . يصف أثر عينيها في القلوب ويرمز بذلك إلى تأثير الدعوة الإسلامية في البشر .

(٦) أنت النّعيم : سببه ، وكذلك العذاب (مجاز مرسل) وفي أمرَّك وأحلاك استعارتان .

سقى منىً وليالــي الخَيْفَ ما شربَتْ — من الغَمــامِ و حــيَّاها وحيَــاكِ [1]

إذ يـلـتـقــي كـــلُّ ذي دَيْنٍ وماطِلُه — منَّا ، ويجتمعُ المشكوّ والشَاكي [2]

لما غدا السِّـــرْبُ يَعْطو بينَ أرحلِنا — مـــا كــان فيه غريمُ القلبِ إلاّكِ [3]

هامتْ بك العينُ لم تتبعْ سواك هوىً — من علَّمَ البَيِّنَ أنَّ القــلبَ يهواك

حتى دنا السِّرْبُ،ما أَحْيَيْتِ من كَمــدٍ — قتْلَى هواك ، ولا فاديتِ أَسْــراكِ [1]

وحــبــذا وقْــفــةٌ والـركــب مغتفلٌ — على ثرىً وخَدتْ فيه مطايـــــاكِ [2]

---

(١) منى : بلدة قرب مكة فيها مسجد الخَيْف .

(٢) ماطِلُ الدين : المؤجِّلُ لموعد وفائه ، المسوِّف .

(٣) السِّرْب : المجموعة ، يعطِو : يتناولُ .

(٤) قتلى : مفعول أحييت .

(٥) وخدت : أسرعت ، المطايا : الإبل .

خـاتـمـــة

يعدّ الشريف الرضي من أشهر شـعراء الشّـيعة ، وعلمـائهم ، وهـو يهتّم بألفاظه وبمعانيه ، ويفخر بشعره أو بجيد شعره فيقول :

منتصبـــاتٌ كالقنا لا تَرَى — عِيّاً من القول ولا أَفْنــــا [1]

لا يفضُلُ المعنى على لفظه — شيئاً ، ولا اللفظ على المعنى

---

(١) القول المأفون : ظاهره مُعْجب ، ولاخير فيه لضعف فكره ، واضطراب معانيه .



١٠

إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ونشأته

هو أحمدُ بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، وُلِدَ سنة ٣٦٣هـ في بلدته معرّة النعمان ، بين حلب وحماة ، وأسرته تنحدر من قبيلة تنوخ اليمنيّة ، وقد أصيب بمرض الجُدَري وهو في الرابعة من عمره ، فذهب بيصره ، وكان أهله قد ألبسوه ثوباً أحمر عندما مرض فلم يذكرْ بعد ذلك من الألوان إلا هذا اللون .

وكان بيتُ المعرّي بيت علم وقضاء وشعر ، ونراه يستفيد من هذه البيئة فاستظهر القرآن الكريم ، وأكبّ على علوم الدين والعربيّة ، ثم تابع استيعابه اللغوي والعلمي في حلب ، ولمّا بلغ الثلاثين من عمره عزَم على الصَّوم الدائم فلم يفطر حتى مماته إلّا في العيدين ، يقول :

أنا صائمٌ طولَ الحياةِ وإنّما　　　فِطْري الحِمامُ ، ويوم ذاكَ أعيدُ[1]

وأمضى سحابة عمره في تقشُّف شديد ، وضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها كثيراً ممّا أباحه الله تعالى ، فكان يأكل العدس والتين والدبس ، ولا يأكل شيئاً آخر ، وكان يلبس خَشِنَ الثياب ، وكان مورده المالي من وَقْف يدرّ عليه ثلاثين ديناراً في السنة ، فكان يكتفي بها ، وقد رزقه الله داراً فسيحة ، وأولاد أخ يخدمونه ، ويقرؤون بين يديه ، ويكتبون له .

---

(١) الحِمام : الموت .

تأثّره بوفاة أبيه

مات والد المعرّي سنة ٣٩٥هـ ، وكان عالماً ، متأدّباً ، يقول الشعر ، رقيق القلب ، وكان خير مِعْوان له ومؤاسٍ في مصيبته لّما ألمتْ به ، إذْ أخذ يعلّمه ويعوّض له بعض ما مُنِيَ به ، حناناً وعطْفاً ورحمة ، وقد ترك موته لدى أبي العلاء فراغاً كبيراً ، مع أنه كان قد تجاوز الثلاثين ، فقال يرثيه :

نقمْتُ الرِّضى حتّى على ضاحكِ المُزْنِ	فلا جادَني إلّا عُبوسٌ من الدَّجْنِ[1]
فلَيْتَ فمي إنْ شامَ سِنّي تبسُّماً	فمُ الطعنة النجلاءِ تُدْميْ بلا سنّ[2]
أبي حكمَتْ فيه الليالي ولم تزلْ	رماحُ المنايا قادراتٍ على الطَّعْنِ
أمولَى القوافي كم أراك انقيادُها	لكَ الفصحاءَ العُرْبَ كالعجَم اللُّكْنِ[3]
هنيئاً لكَ البيتُ الجديدُ موسَّداً	يمينُك فيه بالسَّعادة واليُمْنِ[4]
مُجَاوِرَ سَكْنٍ في ديارٍ بعيدةٍ	من الحيّ ، سَقْياً للديّار وللسَّكْنِ
أمُرُّ بربْعٍ كنتَ فيه كأنّما	أمُرُّ من الإكرام بالحِجْرِ والرُكْنِ[4]

---

(١) المُزْن : السحائب . الدَّجْن : الغيم .

(٢) شام : طلب (نظر إلى) .

(٣) يشير إلى تملُّك أبيه لناصية الشِّعْر ، إلى درجة بات يبدو معها الفصحاء ضعافَ البلاغة ، كأنهم الأعاجم أولو العِيّ والرَّطانة .

(٤) بيته الجديد : القبر .

(٥) الحِجْر : مقام إبراهيم عليه السلام في البيت الحرام . والرُّكْن : الكعبة ، عبَّر بجزئها عنها كلّها على سبيل المجاز .

وإجلالُ مَغنـاكَ اجتهـادُ مُقصِّرٍ إذا السيفُ أوْدَى فالعفاءُ على الجَفْنِ[1]
لقد مسَختْ قلبي وفـاتكَ طـائراً فأقسَـم ألّـا يسـتقرّ علـى وكْـنِ[2]
يقضّي بقايا عيشِـه ، وجناحُـه حثيثُ الدّواعي في الإقامـةِ والظّعْنِ[3]
كـأنَّ دعـاء الموت بِاسْمكَ نكزةٌ فرتْ جسدي ، والسُّمُّ ينفُث فـي أُذْني
سأبكي إذا غنّى ابنُ ورْقاءَ بهجةً وإن كان ما يَعْنيه ضِدَّ الذي أعْني[4]
ونادبـةٌ فـي مسمعي كـلُّ قَيْنَـةٍ تغـرّدُ بـاللحن البريء عـن اللحـنِ[5]
وأحملُ فيكَ الحزنَ حياً فإنْ أمُتْ وألْقَكَ لم أسْلُكْ طريقـاً إلـى الحُزْنِ
وبعدَك لا يهـوى الفـؤادُ مَسـرّةً وإنْ خان في وصل السرور فـلا يَهْني[6]

سفره إلى بغداد

لم تستطع أمُّهُ - على شدّة إخلاصها إليه وحَدْبها عليه - أنّ تسـدّ الثّغْرة التي أحدثها موت أبيه ، وعاش ثلاث سنوات عجـاف قاسية ، لم يَنْعَـمْ خلالها برعاية أبيه ، وعنايته ، وبرّه ، فأراد أن يرحـل إلى بغـداد ليتأسّى شيئاً ما عـن

(١) المغنى : المنزل . أودى : ذهب . العفاء : الهلاك والتّلَفُ . الجَفْن : الغِمْد . هو - مهما عظّم ديار أبيه - مقصّر غير موفّ له حقّه عليه ، بل إنّه لم يعدْ شيئاً من بعده ، ويشبّه نفسَه بقراب افتقد حُسَامَه .

(٢) وَكْن : وكْر ، عشّ .

(٣) حثيث : سريع . الظّعن : الارتحال .

(٤) ابن ورقاء : ولد الحمامة .

(٥) قينة : مغنّية . اللحن (الأول) : الإيقاع . والأخير : الخطأ .

(٦) لا يَهْني : لا يتهنّأ

مُصابه ، وكيما يطّلع على كنوز العلم هناك في دار السَّلام ؛ ولم يرحلْ طمعاً بمال أو ثرْوة ، يقول :

أإخوانَنا بينَ الفراتِ وجلّقٍ ... يدَ الله ، لا خبّرْتُكمْ بمُحالِ [١]
أنبّكم أنّي على العَهْد سالمٌ ... ووجهيَ لمّا يُبْتَذلْ بسؤالِ
وأنّي تيمّمْتُ العراقَ لغير ما ... تيمّمه غَيْلانُ عندَ بلال[٢]
فأصبحتُ محسوداً بفضلي وحدَه ... على بُعْد أنصاري وقلّةِ مالي

واختار أبو العلاء الشاعر ذا الرّمّة (غيلان) لأنه كان عفيفاً لا يتكسّب بالشعر ، وقد قصد الكوفة في عهد واليها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، فجادَ عليه بلال من دون أنْ يسأله غيلان . فالمعرّي لم يَرْضَ أن يذكر شاعراً متكسّباً ، حتى طريقة غيلان لم يسلكْها ، فذو الرمّة قَبلَ عطاءَ بلال ، والمعرّي - مع كثرة ما عُرِض عليه من عطاء - أبى أن يتعاطى منه شيئاً ؛ لأنه مقتنع - كما ذكر بحكمة زهير :

ومَنْ لا يزلْ يستحملُ الناسَ نفسَه ... ولا يُعفها يوماً من الذّلّ يُسأَمِ

سافَر الشاعر إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ أو في سنة ٣٩٩هـ ، وهناك أكبّ على خزائن دار الكتب العريقة التي كان قد أنشأها أمير المؤمنين هارون الرشيد ، وكانت في أمانة عبد السلام البصري ، فرَحّب بابي العلاء ، ويسَّر له أمرَ الاطّلاع على ذخائر الكتب عنده .

---

(١) جلّق : الشام (دمشق) . مُحال : مستحيل ، كلام محرَّف . يدَ الله : يقسم بها على صحّة قوله ، ونصب يد بنزع الخافض . ويد الله تعالى : قدرته .

(٢) تيمّم : قصد .

من أخبار الرِّحلة

مرّ أبو العلاء خلال طريقه إلى بغداد بشجرة ، وكان راكباً دابّته ، فقال له مَنْ يقودُه : طَأْطِئْ رأسَكَ . ففعل . فلمّا آب من الرحلة بعد عام وبعض عام ، ومرَّ بذلك الموضع ، طأطأ رأسَه مِنْ تِلقاء نفسِه . فسُئل عن ذلك فأجاب : هاهنا شجرة . قالوا : ما هاهنا شيء . ثم فحصوا الموضع فإذا أصل شجرة مُجتثّة .

يوم وصوله

اتّفق يومَ وصوله إلى بغداد أن مات الحسين الطاهر والد الشريفين : الرضيّ والمرتضى . فدخل أبو العلاء إلى عزائه والناس مجتمعون والمجلس غاصّ بأهله . فتخطّى بعضَ الناس فقال له ، ولم يعرفه : إلى أين يا كلب ؟

قال أبو العلاء : الكلب مَنْ لا يعرف للكلب سبعين اسماً ثم جلس في أُخريات المجلس ، إلى أنْ قام الشعراء وأنشدوا مراثيهم ، فوقف أبو العلاء وأنشد مرتجلاً قصيدته في رثاء الفقيد :

أودى فليتَ الحادثاتِ كفاف

فلمّا سمعه ولدا الشريف الطّاهر قاما إليه ورفعا مجلسه وقالا له : لعلّك أبو العلاء المعرّي ؟ قال : نعم . فأكرماه واحترماه .

وكأنَّ هذه اللفظة التي طعنه الجاهل بها لدى وصوله قد عَجَّلَتْ من توافد أشواقه إلى المعرّة .

لامية له في الشوق إلى المعرّة

طَرِبْنَ لضوء البارق المتعالي ... ببغداد وهْناً ، ما لهنَّ ومالي[1]
سمَتْ نحوه الأبصارُ حتى كأنّها ... بناريْه مِنْ هنّا وثَمَّ صوالي[2]
تمنَّت قويقاً والصَّراةُ حيالَها ... سرابٌ له من أينُقٍ وجمالِ[3]
إذا لاح إيماضٌ ستَرتُ وجوهَها ... كأنّيَ عمروٌ والمطيُّ سَعالي [4]
لقد زارني طَيْفُ الخيالِ فهاجَني ... فهَلْ زارَ هذي الإبْلَ طَيْفُ خَيالِ
فيا بَرْقُ ليس الكَرْخُ داري وإنَّما ... رماني إليه الدَّهْرُ منذ ليالِ[5]
فهل فيكَ من ماء المعرَّةِ قطرةٌ ... تغيث بها ظمآنَ ليسَ بِسَالِ[6]
ندمْتُ على أرض العواصم بعدما ... غدَوْتُ بهافي السَّوْمِ غيرَ مغالي[7]

---

(١) حنَّتْ النّياق ببغداد لمّا لمحتْ برقاً شآمياً في جُنْح الليل . وهْناً : في جزء من الليل .

(٢) صوالي : مضطرمة ، محترقة . ثَمَّ : هنالك . تعلّقت أبصارها بذلك البرق وكأنها تتحرّق بضوئه .

(٣) قويق : نهر حلب . الصَّراة : نهر ببغداد . أينق : نوق .

(٤) إيماض : لمع . سعال : جنّيات . عمرو : هو عمرو بن يربوع ، تزوّج سعلاة (أنثى الغول) فقيل له : إذا رأتْ بَرْقاً تركتْكَ . فكان عمرو إذا لاح برق سترها عنه . إلى أن غفل ذات ليلة ولاح البرق ، فولّتْ لا تلوي على زوج ولا ولد .

(٥) الكَرْخ : منطقة في وسط بغداد .

(٦) سالٍ : متعزٍّ عن مصابه .

(٧) أرض العواصم : المعرَّة وما حولها . السَّوْم : المساومة في البيع ، فصل الثمن . باع بلاده بثمن بخس فندم .

في العاصمة العباسيّة

أقام المعرّيّ ببغداد في محلّة القطيعة على شط دجلة ، وكان يدبّر ضرورات عيشه من ماله الخاصّ الذي حمله معه من المعرَّة . وقد توافد إليه الناس يختبرونه بادئ الأمر ، فأحضروا دستور الخراج الذي في الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ما فيه وهو يسمع إلى أنْ فرغوا . فابتدأ أبو العلاء فسرد عليهم كلّ ما أوردوه له . عندئذٍ أقرَّ البغداديون بأنّه أعجوبةُ الزَّمان في حِفْظه وعلمه باللغة . وأيضاً فقد قرؤوا عليه ديوانه سقط الزَّنْد بعد وصوله إلى بغداد ، وشهدوا له أنّه شاعر أصيل مبدع .

وأهمّ ما أحبّه في بغداد مجالسها العلمية وخزائن كتبها ، تلك الخزائن التي اطّلع خلال مقامه ببغداد الذي دام سنة وسبعة أشهر على ما فيها من كنوز بحيث لم يَلْقَ فيها ما يحمله معه عند خروجه من بغداد إلّا ديواناً واحداً استعاره من خزانة بيت الحكمة ، وهو ديوان شعر تيم اللّات ، قبيلة أبي علاء التنوخيَّة .

لاميّة أخرى في الشوق إلى أهله

فأذهلُ أنّي بالعراق على شفى	**زريُّ الأماني لا أنيسٌ ولا مالُ**[1]
مُقِلٌّ من الأَهْلَيْنِ : يُسْرٍ وأسرةٍ	**كفى حزَناً بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقلالُ**[2]
مَتى سألتْ بغدادُ عنّي وأهلُها	**فإنّي عن أهل العواصمِ سَآّلُ**[3]
إذا جَنَّ ليلي جُنَّ لُبِّي ، وزائدٌ	**خُفُوقُ فؤادي كلَّما خفَقَ الآلُ**[4]

---

(١) شفى : طرف ، هامش . زريّ : مَعِيب ، ناقص ، أي لم تتحقّق آماله .

(٢) يُسْر : ثروة . بَيْن : ابتعاد . مشتّ : مفرّق .

(٣) العواصم : الحصون . يريد المعرّة وما حولها .

(٤) جَنّ ليلي : أقبل بسواده . جُنّ : غُيِّب . خفَقَ : رقَص ، لَمع . الآل : السَّرَاب .

وماءُ بلادي كان أَنْجعَ مَشْرَباً ولو أنّ ماء الكَرْخ صَهْباءُ جِرْيالُ[1]

فيا وطني إنْ فاتني بكَ سابقٌ من الدهر فَلْيَنْعَمْ لِساكنِكَ البالُ[2]

فإنْ أستطعْ في الحشر آتِكَ زائراً وهيهاتَ ، لي يومَ القيامةِ أشغالُ

العَوْدة

لاقى أبو العلاء في بغداد إكراماً ، وتعرَّض لمواقف ليس فيها إكرامٌ ، أشرْتُ من قبل إلى ما كان منها يوم وصوله إلى بغداد ، ومنها أيضاً أنّه قصد مجلس عليّ بن عيسى الرّبَعي ، فلما استُئذن له قال الربعي : ليصعد الإصطبل ، يريد (الأعمى) .

ومنها أنّه كان يوماً بمجلس الشريف المرتضى ، وقد جاء ذكر المتنبي ، فتنقّصه الشريف ، وجعل يتتبّع عيوبه ، فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قصيدته :

لكِ يا منازلُ في القلوب منازلُ أقفَرْتِ أنتِ وهنّ منْكِ أواهِلُ

لكفاه فضلاً .

فغضب الشريف المرتضى ، وأَمَرَ فسُحِبَ أبو العلاء برِجْله ، وأُخرجَ مُهاناً من مجلسه ، وقال لمن يحضرونه :

---

(١) أنجع : أنفع . الكرخ : محلة في بغداد ، يريد بغداد . صهباء : خمرة . جرْيال : حمراء، الجِرْيال : صبغ أحمر .

(٢) سابق : موت .

أتدرون أيّ شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، فإن_ للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكره ؟

قالوا : النّقيبُ السّيِّدُ أعْرَفُ .

فقال : أرادَ قولَ المتنبّي في هذه القصيدة :

وإذا أتتكَ مَذمّتي من ناقصٍ	**فهي الشهادةُ لي بأنّي كامل**

ومثلُ أبي العلاء في دقّةِ إحساسه يكون تأثّره بمثل هذه المواقف أو لدى استماع أيّ كلمة لا تليق شديداً جداً ، فكانت هذه المؤثّرات من جُمْلة ما وجّهه بعد عودته إلى العُزْلة حتى الممات . وهذه المواقف المُحْرِجة ، وما ماثلها ، كانت سبباً لعودته ، وإلى جانبها كان ثمّة سببان آخران ، هما ضيق ذات يده . فقد نفِد ما أتى به معه من مال ، ولم يكنْ يقبلُ من أحد عطيّة ، وما نُمِيَ إليه من نبأ مرض أمّه ، فعَجلَ إليها ، ولكنّ الموت إليها كان أعجلَ منه :

أثارني عنكمُ أمران : والدةٌ	**لم ألقها ، وثراءٌ عاد مَسْفوتا[1]**
أحياهما الله عصرَ البَيْنِ ثم قضى	**قبلَ الإيابِ إلى الذُّخْرَينِ أنْ مُوتا**

ومنذ وصَل إلى المعرَّةِ بدأ بحياة عُزْلة دامت قرابة خمسين سنة ، ولم يغادرْ منزله إلّا لصلاة جماعة ، أو لضرورة قصوى ، وفرَض على نفسه ثلاثةً من ألوان الحبس :

أراني في الثلاثةِ من سجوني	**فلا تسألْ عن الخبرِ النَّبيثِ[2]**
لِفَقْدي ناظري ولزوم بيتي	**وكونِ النفس في الجسم الخَبيثِ**

(١) مَسْفوت : قليل البركة .

(٢) النبيث : الشرّير ، المخبوء (السّرّ) .

ذكريات بغداد

لم يَقْلِ أبو العلاء مدينةَ السَّلام ، وإنْ ناله بعضُ إساءات من فريق فيها ، لأنّ أكثر أهلها أكرموه ، فقال وهو يودّعها ويودّع أهلها :

أودّعُكم يا أهلَ بغداد ، والحشا على زفراتٍ ما ينِيْنَ من اللَّذْعِ[1]
فبئسَ البَدِيلُ الشَّامُ منكم وأهلُه على أنّهم قومي وبينهمُ رَبْعي
ألَا زوِّدوني شربة ولو انّني قدرت إذاً أفنيتُ دجلةَ بالجَرْعِ[2]

وكلام أبي العلاء هاهنا متناقضٌ وما قاله حين فضَّل ماء بلاده ، وسالك مَسْلك كثير من الشعراء أو أكثر الشعراء الذين ﴿ في كلّ وادٍ يَهيْمون ﴾ .

وبقي أبو العلاء يذكر العاصمة العباسيّة بخير ، ويتذكّر بعض أصحابه فيها ، مثل أبي القاسم التنوخي الذي بعث إليه بتائيّته الذائعة التي يقول في تضاعيفها :

يا عارضاً راح تحدوه بوارقه للكَرْخ سُلّمتَ من غَيْثٍ ونجيتا[3]
لنا ببغداد من نهوَى تحيّتَه فإنْ تحمّلْتَها عنا فحيّيتا
يا بن المحسِّن ما أُنْسِيتُ مكرُمَةً فاذكرْ مودّتنا إن كنتَ أُنْسيتا[4]
سقْياً لدجلة ، والدنيا مفرّقةٌ حتى يعودَ اجتماعُ النَّجْم تشتيتا
وبعدَها لا أريدُ الشُّرْبَ من نَهرٍ كأنّما أنا من أصحاب طالوتا[5]

---

(١) ينين : يضعفن ، يفترُنَ .

(٢) الجرْع : الشرب .

(٣) عارضاً : سحاب .

(٤) ابن المحسّن : هو أبو القاسم التنوخي .

(٥)يشير إلى قوله تعالى ﴿ومن لم يطعمه فإنّه منّي﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

رحلْـتُ لـم آتِ قِرْواشــاً أزاولــه ... ولا المهـذَّبَ أبغـي النَّيـلَ تقويتـا[1]

والموتُ أَحْسَنُ بالنفس التي أَلِفـتْ ... عزَّ القَناعـةِ مـن أنْ تسـأَلَ القُوتْـا

بـتَّ الزَّمــانُ حِبـالي مـن حبـالِكمُ ... أعززْ عليَّ بكونِ الوصلْ مبتوتـا[2]

أَعُـدُّ من صلواتي حفظَ عـهـدكمُ ... إنَّ الـصَّــلاةَ كتابٌ كان موقوتــا

من رثائه لأمه

مضَتْ وقد اكتهلْـتُ فخلْتُ أنّـي ... رضيعٌ مـا بلغْتُ مـدى الفِطَـامِ

فيـا ركْبَ المَنُـونِ أمــا رسـولٌ ... يبلّـغ روحَهــا أرَجَ السـلام[3]

سألْتُ متـى اللقـاءُ فقيل حتّـى ... يقـومَ الهـامدون مـن الرِّجـام[4]

فـليـتَ أذِيْنَ يومِ الحشرِ نادى ... فـأجْهَشَتِ الرِّمام إلى الرِّمام[5]

شعره وآثاره

ترك أبو العلاء من بعده قُرابة مائة وخمسة وسبعين كتاباً ، فُقِـدَ معظمهـا عندما اقتحم الصليبيّون المعرّة وعاثوا فيهـا فسـاداً ، ولـه في الشـعر ثلاثـة آثـار : سقط الزند ، والدَّرْعيات ، واللُّزُوميّات .

سقط الزند

هو مجموع القصائد التي نظمها الشاعر في الطَّوْر الأوّل من حياته إلى مـا بعدَ رجوعه من بغداد ، ويدخل فيه أيضاً بعـض مـا نظمـه بعـد ذلـك إلى حـين وفاته .

---

(١) قرواش ، والمهذّب : من زعماء بغداد آنئذ . النَّيْل : العطاء .

(٢) بتَّ : قطع .

(٣) أرج : رائحة .

(٤) الهامدون : الموتى . الرجّام : القبور .

(٥) أذين : منادي الحشر . أجهشت : ارتفع صوتها بالبكاء . الرِّمام : العظام البالية .

ومن البديهيّ أن يشمل هذا الديوان ثلاث مراحل من حياة المعرّي ، طور الصبا ، ويشمل ما قاله وهو دون العشرين ، (سنة ٣٨٣هـ) ، وطور الشباب ، ويمتدّ إلى حين عودته من بغداد سنة ٤٠٠هـ، وطور الكهولة والشيخوخة ، وينتهي بموته سنة ٤٤٩هـ .

وما قاله في طَوْر الشباب هو أجمل شعره - في الغالب - إذ كان قد استوى فيه فنّه الشعريّ ، وأسوق مثلاً منه قوله في اللامية :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلٌ	**عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ**
وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُه	**لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائلُ**
إذا كان في لبس الفتى شَرفٌ له	**فما السيفُ إلّا غِمْدُهُ والحمائلُ[1]**
ولمّا رأيتُ الجهلَ في النّاس فاشياً	**تجاهلْتُ حتى ظُنَّ أنّيَ جاهلُ**
فواعجبًا كم يدّعي الفضلَ ناقصٌ	**ويا أسفاكم يدّعي النّقص كاملُ**

وهذا نموذج آخر :

علّلاني فإنّ بيضَ الأماني	**فنيت والظّلام ليس بفانِ**
إنْ تناسيتما ودادَ أناسٍ	**فاجعلاني مِنْ بعض مَنْ تذكرانِ**
ليلتي هذه عروسٌ من الزّنج	**- عليها قلائدٌ مِنْ جُمانِ**
هربَ النّومُ عن جفونيَ فيها	**هربَ الأَمْنِ عن فؤاد الجبان**

الدِّرْعيات

تُسمّى أيضاً ضوءَ السّقْط ، لأنها تُكْمل سقط الزند ، وأفردها وحدَها لأنّها تتناول موضوعاً خاصّاً هو وصف الدروع على لسان رجلٍ طعن في السّن فترك لُبْسَها ، أو على لسان رجل رهَنها، وأحياناً يعقد حواراً بينها وبين سيف قاطع ، أو بين غلام وامرأة باعتْ درع أبيه .. وهي تدلّ على تضلّعه باللغة وأحوال العرب .

---

(١) الحِمالة : علاقة السِّيف .

اللزوميـــــات

قصائد قالها المعري بعد رجوعــه مـن بغْداد إلى المعـرّة ، وفيهـا يُـلْزم نفسَه أن يأتي بحرفين (رويّيْن) في القافية ، وأحيانـاً يلـتزم ثلاثـة أحـرف . ومـن ناحيـة المضمـون أوعاهـا فلسـفته في الحيـاة ، وضمّنهـا أيضـاً إشـارت تاريخيـة واصطلاحـات علميـة ، وألوانـاً مـن الغمــوض وأسـاليب البـداوة والمحسنات البديعيّة والألغاز ، وانتقاد مثالب المجتمع والحُكْمِ الفـاطمي الـذي كان في مصر ،ووجّه بعوثه فاحتلّت الشّام وغيرها .

تـــديّنـــــه

اختلـف الدارسـون في أبـي العـلاء ، فذهـب فريـق إلى إخراجـه مـن الإسـلام ورمـاه بـالكفر البـواح ، وبإنكـاره للحـجّ ، وباتباعـه الطريقـة الهندوكية في الحياة . وهذا رأي الدكتور طه حسين . وذهـب آخـرون إلى أنه مؤمن راسخ العقيدة .

ومن يقرأ فيما نُسِبَ إلى المعـري مـن أشـعار يجـد في بعضهـا انحرافـاً واضحاً عن الإسلام ، ويجد أكثرها لا تخالفه . ويهمّنـا هنـا القسـم الأول ، فإنّ فيه ما يخرجه – إن ثبتَ لـه – مـن ديـن الله إخراجـاً ، لكـنّ أبـا العـلاء نفسَه تنصَّل منه وتبرّأ مـن أيّ كلمـة تنطـوي علـى مـروق ، واتّهـم أعـداءه بأنّهم هم الذي افتروها على لسانه افتراء :

وقد نطقوا مَيْناً على الله وافتَرَوْا فما لهمُ لا يفترونَ عليكا[1]

وألَّف في هؤلاء رسالته "زجْر النَّابح" ، وفيها يدفع عـن نفسـه نسـبة الأبيات الملحدة ، ويؤول أخرى يحاول أعداؤه أن يوجّهوا معناها بحسب مـا تمليه خصومتهم .

---

(١) مَيْناً : كذباً .

وأبو العلاء يحاجّ عن الدّين بمنهج عقلي أحياناً ، كما في قوله :

زعَم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهمـا … أنْ لا مَعـادَ فقلـت ذاك إليكمـا
إنْ صـحَّ قولكما فلستُ بخاسِرٍ … أو صحّ قولي فالوَبالُ عليكمـا[1]

وأحياناً يتبدّى معتقده السليم من أقواله وإخباره عن أفعاله :

أقيم خَمْسِي وصومَ الدهرِ آلِفُهُ … وأدمنُ الذِّكْر أبكاراً بآصـال[2]

* * *

قـد راعنـي للحسـاب ذِكْـرٌ … وغرّنـي أنّـه بعيـدُ
وعـن يمينـي وعـن شِـمالي … بصحبتـي حـافظٌ قَعِيـد

* * *

ومغفـرة اللـه مرجـوّةٌ … إذا أصبَحتْ أعظمي فـي الرِّمَـمْ
ويـا ليتَنـي هـامدٌ لا أقـومُ … إذا نهضوا ينفضُـون اللِّمَـمْ[3]
ونـادى المنـادي علـى غَفْلـةٍ … فلمْ يَبْـقَ فـي أذْنٍ مِـنْ صمَـمْ
وجاءت صحائف قـد ضُمّنَـتْ … كبـائرَ آثـامهمْ واللّمَـمْ[4]
وليـتَ العقوبـةَ تحريقـةٌ … فصاروا رمـاداً بهـا أو حُمَـمْ[5]

* * *

وما أنا يائسٌ من عَفْـوِ ربّي … على مـا كان من عَمْدٍ وسَهْوِ

وله قصيدة رائعة في مديح النبي صلى ا لله عليه وسلم والإشـادة برسـالته السمحاء ، آخرها:

فصلّى عليه اللهُ ما ذرّ شارقٌ … وما فَتّ مسكاً ذِكْرُهُ في المحافلِ[6]

إنّما عليه مآخذ ، و لم يُعْصم إلّا الأنبياء .

---

(١) الوبال : الخسار . (٢) الأصيل : وقت ما بين العصر والمغرب .
(٣) اللِّمم : جمع لِمّة ، وهي ماجاوز شحمة الأذن من الشعر .
(٤) اللّمم : الذنوب الصغيرة . (٥) الحُمم : ما أحرق من خشب ونحْوه .
(٦) ذرّ : ظهر . شارق : نجم ، شمس .



تاريخ شعراء العربية
العصر العباسي الثاني
الأبيوردي
١١
إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى
مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الأبيوردي في سطور

هو أبو المظفَّر محمدُ بنُ أبي العباس أحمدَ بنِ محمدٍ الأبيوَرْديُّ كان مولدُه في قرية كوفَن[1] ، وهي قرية قرب أبيوَرْدَ (أو أبا وَرْد) .

قدم الأبيوردي إلى بغداد ، وعلّم أبناء زين المُلْك الأمير بُرْسُق ، نائب السُّلْطان السلجوقي لدى الخليفة في بغداد من سنة ٤٥١ إلى سنة ٤٥٦ هـ ومن المستبعد أن يختار نائب السلطان معلّماً لأولاده دون الخامسةِ والعشرين من العمر ،على الأقلّ ، فتكون ولادة الأبيوردي في الربع الأوّل من القرن الخامس .

وممّن اتّصل بهم الأبيوردي في العقد التاسع من هذا القرن الخامس مؤيّد الدولة عبيد الله بن نظام الملك .

على أنّ أجدى عمل اشتغل فيه هو تولّيه خزانة الكتب في المدرسة النظاميّة ببغداد بعد وفاة خازنها السَّابق يعقوب بن سليمان الأسفراييني .

وتولّى في أواخر أيّامه أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه في أصفهان ، ولكنّه سُقِيَ السّمّ فمات سنة ٥٠٧ هـ /١١١٣ م .

معارفه

كان أبو المظفّر أحد القُرّاء في أبيورد ، وكان ضليعاً في علوم العربية والأنساب، وله شعر متين السَّبْك ، وأسهم في معظم أغراض الأدب .

---

(١) في كتاب الأبيوردي لمملوح حقي (طبع دار اليقظة) ص٧ : الكوفن . نسبة إلى قرية كوفن ، بالفاء الموحَّدة .

كـتـبـه

كتاب تاريخ أبيورد ونَسا . كتاب في الأنساب . كتاب ما اختلف وائتلف من أنساب العرب . قَبْسَةُ العَجْلان في نسب آل أبي سفيان . نُهْزة الحافظ . المجتبى . طبقات العلم في كل فنّ . تعلّة المشتاق إلى ساكني العراق . كتاب كوكب المتأمّل (في وصف الخيل) . كتاب تِعلّة المقرور (في وصف البرد والنيران وهمذان) . كتاب الدّرة الثمينة . كتاب صهلة القارح ، ردّ فيه على سقط الزَّنْد للمعري .

نـسـبـه

ينحدر الأبيورديُّ من سلالة معاوية بن محمد من ذراريّ أبي سفيان(١) ، ومن هنا يُلَقّبُ أيضاً بالمعاويّ ، ويشير في شعره إلى هذا النَّسَب فيقول :

ونحن معاويّون يرضى بنا الورى ... ملوكاً ، وفينا مِنْ لُؤَيٍّ لِواؤها

شـمـائـلـه

كان الأبيورديُّ مؤمناً حسن الاعتقاد ، محبّاً لرسول الله ﷺ راوياً لحديثه ، نقل عنه جماعةٌ من الحُفّاظ الثّقات ، معظّماً لشعائر الله تعالى ، يكثر من التعبّد والتنفّلِ والتهجُّد ، ويعتاد المساجد ، يقول :

ولَرُبَّ داجيةٍ كأنَّ سماءها ... بَحْرٌ تلاطَم والنجومُ فواقعُ(٢)

مارستُها بتهجُّدي وتجلُّدي ... أنا والدعاءُ وسُبْحتي والجامع

حتى اعتصمتُ بها فأصبحتُ امرأً ... ثَلْجَ الضّمير ولي فؤادٌ طيِّعُ

---

(١) أبو سفيان : هو صخر بن حرب ، صحابي ، رضي الله عنه .

(٢) داجية : ليلة مظلمة . تلاطم : كثرت أمواجه فتضاربت . فواقع : صفراء ناصعة صافية .

وهو شــاعر متّزن حكيـم ، موقّـرٌ لرسـول الله ﷺ ، ولسـائر صحابتـه رضوان الله عليهم ، لا يفرّق بين أحد منهم :

يا خاتم الرسل إن لم تُخْشَ بادرتي — على أعاديك غـالتني إذاً غُـولُ[1]
وكلّ صَحْبِكَ أَهْـوَى فـالهدى معَهم — وغَرْبُ مَنْ أَبْغَضَ الأخيارَ مفلُولُ[2]
وأقتـدي بضجيعَيْـكَ اقتـداء أبـي — كلاهمـا دمُ مَـنْ عـاداه مَطْلـولُ[3]
ومـنْ كعثمـانَ جُوْداً والسماحُ لـه — عِبْءٌ على كـاهل العليـاء محمـولُ
وأيـنَ مثـلُ علـيٍّ فـي سـبالتِه — بمـأزقٍ مِنْ يَـرِدْه فهـو مقتـولُ[4]
فمَـنْ أحبَّهـم نـال النجـاةَ بهـم — ومَـنْ أبى حبَّهم فالسيفُ مَسْـلولُ

وما من شكٍّ في أنّ الأبيات تدلّ على قائل حكيم وعقـل عظيـم ، يحـبّ النبيّ ﷺ وصحابته كلّهم أجمعـين ، وكـان الأبيـوردي دقيقـاً في فَهْمـه ، وكـان ذلك يدفعه أنْ يسكت لـدى الأحـاديث المتشـابهة أو المتعلّقـة بالصّفـات ، فهـو يمرُّها كما جاءتْ ويقولُ عبارةً لطيفة " نُقِرُّ ونُمِـرُّ " . وكـان يكـثر مـن الصـوم والصَّلاة والتّهجُّد ، ويتحرّى العفّة ، وهو القائل :

ومَنْ عَلِقَ العَفافُ ببُرْدَتَيْهِ — رأى هِجْرانَ غانيةٍ وِصالا

ومن شِيمه المحمودة أيضاً وفاؤه لأصدقائه ، يقول :

أرعـى ذِمـامَ أخـي إذا واصلتُـه — وكـذاك أرعـاه علـى الهجْـران
وأفيضُ إحساني عليه فإنْ نـأى — ضـاعفْتُ إحساناً إلى إحْسَانِ

---

(١) غول : مهلكة .   (٢) غَرْب : حدّ . مفلول : متثلّم .

(٣) ضجيعاه : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، لأن قبريهما اللذيـن يضطجعـان فيهمـا قرب قبره ﷺ . مطلول : مهدور .

(٤) سبالته : رجولته . والسَّبَلَةُ اللحية ، وشعر الشارب .

وكان هذا الشّاعر العالم الوقور مترّفعاً أبيّاً ، ينأى عن اللهو والمزاح . وهو يَرْكَنُ بل يتمسّك بالحلْم تمسُّكاً ، لاييأس لدى العسر ، ولايأشَرُ في اليُسر :

لم يتبسّمْ إذْ أنهَضتْهُ نغمةٌ — أو أجهضتْهُ شِدّةٌ فما بكى[1]

ويرى الأبيورديّ أنّ من الحكمة التجافي عن أرض تضيق السبل عليه فيها ، والبكور في الارتحال عنها :

إذا قَصُرَتْ عمّا أحاولُه يدي — فإنيٍّ بأرض لا أُطيل بها لبْثا[2]

أفارقها والفَجْر في حِجْرِ أُمِّه — ولم تلفظ الوكرَ الخُداريّةُ الغَرْثى[3]

إيثاره الوحدة

لمسَ الأبيوردي في كثير ممَّنْ صاحبهم مخادعة ، وقلّةَ إخلاص ، فآثر تركهم على معاشرتهم :

بلَوْتُ بني الدُّنيا فغُثْوان ودَهمْ — خداعٌ ، وعُقْباه قِلىً وصدودُ[4]

فلا مُنْعِمٌ تُثْنى إليه أزمّتي — ولا صاحبٌ تُرعى لديه عُهودُ[5]

أكلُّ صديق في المودّة كاذبٌ — وكلُّ قريب في الإخاء بعيدُ؟

خُلقْتُ وقورَ الظّل لا يستفزّني — بروقُ وصالٍ خَلْفَهن رعودُ

أرى البعدَ عن هذا الأنام فضيلةً — وأَغْبَطُ خَلْقٍ في الأنامِ وحيدُ

(١) أجهضتهْ : أسقطته . زعزعته .

(٢) اللُّبث : بفتح اللام وضمّها : المُكْث .

(٣) حجرْ : حضن . الوكر : عشّ الطائر . الخداريّة : الصقور ، الطيور .

(٤) بلوت : اختبرت . عقْبى : عاقبة . قلىً : كره وبغض .

(٥) تثنى : تنعطف . أزمّة : جمع زمام ، وهو مِقوَدُ الدّابة .

صَلَفُه

يفخر الأبيوردي بمَحْتِدِه[1] العريق ، فيطاول به الملوك :

وأقْرَعُ أبوابَ الملوك بوالدِ ... حوى بأبي سفيان أشرفَ منتمي

ويرى نفسه فوق الناس :

وإنْ بلغ الرجالُ مداي فيما ... أحاوله فلستُ من الرِّجالِ

وهو يترفّع أو يتأبّى من أن يتذمّر أو يتشكّى :

وكيفَ يشكو الدهرَ مَنْ شِعْرُهُ ... على جبين الدَّهْرِ مكتوبُ

ويقول :

تنكّرَ لي دَهْرِي ولم يَدْرِ أنَّني ... أَعِزُّ وأحداثُ الزّمان تَهُونُ[2]

فباتَ يُريني الخطب كيفَ اعتداؤهُ ... وبتُّ أُريهِ الصَّبْرَ كيفَ يكونُ؟

وقال في شعره :

كلماتي قلائدُ الأعناقِ ... سوف تفنى الدُّهور وَهْيَ بَواقِ[3]

فقريضي يراه من ينقد الأشعار - سَهْلَ المرامِ صَعْبَ المراقي[4]

لم يَشِنْهُ المعنى العويصُ ولا لَفْظٌ ... يَكُدُّ الأسماعَ ، مُرُّ المذاقِ[5]

وهْوَ في مَنْجَمِ الفصاحةِ مِنْ فَرْ ... عَيْ نِزارٍ مُقابلُ الأعْراقِ[6]

وإليه يصبو الرُّواةُ ، وفيه ... مع شَكْلِ الحجاز ظَرْفُ العراقِ[7]

---

(١) المَحْتِد : الأصل . (٢) تهون : تَذِلُّ .

(٣) قلائد : جمع قلادة ، ما يوضع في العنق .

(٤) قريض : شعر . المرام : المطلب . المراقي : الارتقاء ، البلوغ . يقول : إن شعره من السهل الممتنع . (٥) شان : عاب . العويص : الغامض المُشكل . كدّ : أتعب .

(٦) منجم : أصل . مقابل : مكافئ . الأعراق : أصول النسب .

(٧) يصبو : يشتاق . ظرف : لباقة .

شيء من التفصيل عن حياته

ولد في كوفن (كوقن) وترعرع في أحضان أبوَينْ ذَوْي نفوذ اجتماعي ومال وافر ، وقد فسَحا أمامه طريق الدَّرْس على أيدي مشايخ قريته ، ثم انتقل إلى أبيورد حاضرة مقاطعته واتّصل بكبار علمائها ، وأخذ عنهم الأدب والتاريخ واللغة ، وتفتق الشعر على لسانه فشدا به .

وكان الأبيورديّ حسن الشَّكل ، طويل القامة ، وسيم الهيئة ، يقول :

فلا غَرْوَ أنْ يستودع المجدُ همَّه   أغرَّ طويلَ السَّاعدينِ نجيبا[1]

وكان الأبيورديّ متمرساً بلعب السيف وركوب الخيل ، يقول :

وكفِّي بهَزِّ المشرفيِّ لبيقةٌ   وباعي بتصريف القناة رحيبُ[2]

وعلى شاكلة ما كانت تعتري فريقاً من الشعراء مثل المتنبي والشريف الرضيّ أحلامُ يقظة تطمعهم بالمُلْك ، وتغريهم بالتَّسلُّط ، نَجد الأبيوردي يلوّح بأهَمّيّة السّلاح في الوصول إلى المجد من أقرب السّبل إنْ أُتيحتْ فُرْصة :

مَنْ رامَ عِزّاً بغير السّيف لم يَنَمِ   فاركبْ شَبا الهندوانيّات والأَسَلِ[3]

إنّ العُلا في شفار البيضِ كامنةٌ   أو في الأسنّةَ من عَسَّالةٍ ذبُلِ[4]

فَخُضْ غِمارَ الرّدى تسلمْ وثِبْ عَجلاً   لفرصةٍ عرضتْ فالحزمُ في العَجلِ

لكنّه لم يوفَّق إلى تحقيق ما كان يصبو إليه في بلده ، وكان ينعم بالوفرةِ في عصر أبيه فلمّا توفي أبوه رحل إلى نجد ، واطّلع من كتبٍ على بقايا الفصحى

---

(١) لاغرْو : لا عجب .

(٢) لبيقة : لبِقة ، ماهرة . المشرفيّ : السيف . القناة : الرمح .

(٣) شبا الهندوانيات : حدّ السيوف . الأسل : الرماح .

(٤) شفرة السيف : حدّه . البيض : السيوف . عسالة : ليّنة .

هناك ، واغتبط بهذا الزاد اللغوي ، وإليه يشير في مثل قوله متحدثاً عن شعره :

ودونَك شعراً إنْ فضضتَ ختامَه تضوَّعَ رِيْحُ الشَّيِّحِ بين رواتِه[1]

لكنّه عانى في هذه الفترة من العُدْم ، وذلك ضيّق عليه من فرص السَّبْق ، بينما أُتيحت لغيره ، ولم ينتفع في عُسْرته بحسبه ، يقول :

ومُتَّشح باللؤم جاذبني العلا فقدَّمه يُسْرٌ وأخَّرني عُسْرُ[2]
ولو نيلت الأرزاق بالفضل والحجا لما كان يرجو أن يَثُوبَ له وَفْرُ[3]
ولي حسَبٌ يستوعب الأرض ذكْرُهُ على العجم والأحساب يدفنها الفَقْرُ

واشتدّت الأزمة به حتّى غدا نحيلاً شاحباً أغْبرَ من الجوع وكثرة الأسفار . يقول :

وما لهمْ نسَبٌ لكنْ لهم نشَبٌ وكل لؤمٍ به في الناس مرفوعُ[4]
وهم شِباعٌ رِوَاءٌ في الغنى ، ولنا أحسابُ آل أبي سفيان والجوعُ[5]

ثم اتّصل بالعظماء والوزراء والملوك في خراسان وأصفهان وبغداد ، واتّصل بنظام الملك فقرّبه منه ، ومدح الخليفة المقتدي بأمر الله ، ثم الخليفة المستظهر من بعده ، وتسلّم في عصره أمانة مكتبة المدرسة النظامية ، ويتكدّر الجوّ في عينيه ، فيبرحُ بغدادَ إلى أصفهان ، وهناك أدّب أولاد زين المُلْك برسق .

---

(١) دونك : خذ . تضوّع : فاح . الشيح : نبات برّي مرّ المذاق ، لكنّه يأنس به لحبّه للأماكن التي ينبت فيها .

(٢) متّشح : متصّف ، متلبّس ، والوشاح ما يُزْدان به من الكتف الأيمن إلى الخاصرة اليسرى .

(٣) الحجا : العقل . وفر : ثروة .

(٤) نشب : مال .

(٥) شِباع من الجوع ، رِواء من العطش .

وشعر أنّ الذين كره المُقامَ في بغداد من أجلهم زالوا ، فاعتذر إلى الخليفة المستظهر ، وكتب إليه :

وعلامَ أدّرع الهوانَ وموئلي	خيرُ الخلائِق أحمدُ المستظهرُ[1]
أنا غرسُ نعمتِك التي لا تُجتَدَى	معها السحائب فهْي منها أغْزَرُ[2]
وأن اغتربتُ أو اقتربتُ فإنّني	لهجٌ بشكر عوارفٍ لا تُكْفَرُ[3]
بغدادُ أيّتها المطيّ فواصلي	عنقاً تتنّ له القلاصُ الضُمَّرُ[4]
فَصدَدْتُ عنها إذ نبا بي معشري	وبغى عليّ من الأراذلِ مَعْشَرُ
وأبادَ بعضَهم المنونُ ، وبعضُهم	في القِدّ وهو بما جناه أبْصَرُ[5]
فارفضّ شملُهمُ وكمْ من مَوْرِدٍ	للظّالمين وليس عنه مَصْدرُ[6]

ومنذ هذا الوقت بل منذ اشتغل في مكتبة المستظهر تعدّلت أحواله ، وكانت شهرته قد ذاعتْ ، فكان يمدح المشاهير ، فانصبّتْ عليه الأموال ، وصار له خَدمٌ ومماليك ، وصار يقرّط خيوله بلجُم ذهبية .

---

(١) أدّرع : ألبس . الهوان : الذّلّ . موئلي : ملاذي .

(٢) في البيت مبالغة غير محمودة .

(٣) عوارف : فضل ونعِمْة .

(٤) عنقاً : سيراً سريعاً . القلاص : الركائب . الضُمّر : النحيفة ، والنحافةُ أعْوَن على السُرْعة .يدعو نوقه لتواصل تقدُّمها في سرعة تعجزُ عن مباراتها الخيول الضامرة .

(٥) تشتّت شمل أعاديه ، فصاروا ما بين ميّت أو سجين . والقِدّ : سَيْرٌ من الجلْد يقيّد به المعتقل ، والقِدّ أيضاً السّوط .

(٦) ارفضّ : تمزّق وتحطّم ، وتفرّق .

مـــوتـــــه

مـن الملـوك الذيـن اتّصـل بهـم الشـاعر السـلطان محمـد بـن ملكشـاه في أصفهان ، وقد جعله على إشراف المملكة ، وهو منصب يضـاهي إدارة مكتـب الرئيس ، أو وزير دولة اليوم ، ولكنّه لم يتمتّع بـه طويـلاً ، إذْ دُسّ لـه السّـمّ في شراب قُدّم له وهو بجوار الملك ،فهبط إلى الأرض ،وأحسّ بدنوّ أجله ، فقال :

وقفْنـا بحيـث العَـدلُ مَـدَّ رُواقَـه	وخيم فَي أرجائـه الجـود والبَـاسْ[1]
ففَوْقَ السَّرير ابنُ الملوك محمّدٌ	تخرُّ لـه مِـنْ فَـرْط هيبتـه النّـاسُ
فخـامرني مـا خـانني قدمـي لـه	وإنْ ردّ عنّي نُفْرةَ الجأشِ إينـاسُ[2]

وكان مصرعه يوم الخميس في العشرين من شهر ربيـع الأول عـام ٥٠٧ هـ .

دعوته إلى السِّياسة العباسيّة

كـانت الدولـة الإسـلامية في عصـر الأبيـوردي متفتّتـة ، فهنـاك خلافـة عباسية في بغداد تتبعها أقطار اتّباعاً تامّاً ، وأقطار أخرى تتبعها بمـا يُشْبه الحكـم غير المركزي ، كدولة الحمدانيّين ، وكانت دول أخرى منسلخة عنها كالدولـة الأموية في الأندلس ، والعبيديـة والفاطميـة في مصـر . فدعـا الشـاعر إلى طاعـة الدولة العباسية ، والانطواء تحت رايتها ، وترك الانقسامات والاختلافات :

---

(١) كناية عن عدل محمد بن ملكشاه وجوده وقوّته .

(٢) خامره : خالطه . الجأش : القَلْب .

والشعبُ إن دبّ في تفريقهِ إحَنٌ فلن يعود طَوال الدهر ملتئما [1]

***

لكم يا بني العباس في المجد سَوْرة تبجَّحُ في حيَّيْ نزار بناتها [2]

وتختال فيكم عزمة "نبويّة" إذا الحربُ طاشتْ وقَّرتْها أناتُها[3]

ولم تشرق الأيام إلاّ بَعدْلكم فما أحسنَ الدُّنيا وأنتم حماتُها

إليكم رسولُ اللهِ أوصى بأمَّةٍ أقامتْ بمستنَ الرشادِ غواتُها [4]

ويمدح الخليفة المستظهر :

ماذا يقول لكَ المُثْني وقد نزلتْ على ابن عمك في تقريظك السُّوَرُ [5]

واللهُ يحرُس بابن عمَ رسولهِ دينَ الهدى وبه يُعان ويُنْصَرُ

ويستوصي ببني أميّة خيراً لعلّ العباسيين يعوّضونهم شيئاً ممّا ساموهم به من قبل من سوء المعاملة والإيذاء والقتل ، فيفسحوا لهم من الأعمال الحكومية والمناصب الإدارية :

ونحن معاويَون يرضى بنا الورى ملوكاً وفينا من لَؤيٍّ لواؤها [6]

وما بلغتْ إلا بنا العَرَبُ العُلاَ وقد كان منّا عزُّها وثراؤها

* * *

ومن نُرجِّيه للدُّنْيا ونَمْدَحُهُ فأنت تُمْدَحْ للدُّنْيا وللدِّيْن

---

(١) إحن : جمع إحْنة : وهي الحقد . (٢) سورة : ثورة . تبجَحُ : تتبجّحُ .

(٣) يشير إلى سلالتهم المتّصلة بالرسول فإذا ما اشتعلت نيران الحروب عرفوا كيف يديرونها حتى تنخمد نيرانها لمصلحتهم .

(٤) جملة أقامتْ غواتها صفة لأمّة . يصف الأمَّة بالاهتداء ، وحتى إن الضّالين قد ثابوا فيها إلى طريق الرَّشاد . (٥) المثني : المادح .

(٦) لؤي : قبيلة (من أجداد قريش) . لواء : علم . وبين لؤي ولواء : جناس .

طموحه وغروره

قالتْ لصحبيَ سِرًّا إذْ رأتْ فرسي ... من ذا الذّي يتعدّى مهرُه خببا[١]

فقال أعلمُهم بي : إنّ والده ... مَنْ كان يُجْهِدُ أخلاف العلا حلَبا[٢]

ما ماتَ حتّى أقرّ الناسُ قاطبةً ... بعزّه وهو أعلى خِنْدِفٍ نسَبا[٣]

وذا غلام بعيدٌ صيتُه ، وله ... فصاحةٌ وفَعالٌ زيَّنَ الحسَبا[٤]

وظَلّ يُنْشِدُها شعري ويُطْرِبُها ... حتى رأتْه بذَيْلِ اللّيل منتقبا

فودّعتْه وقالتْ يا أخا مُضَرٍ ... هذا لعمري غلامٌ يُعْجِب العرَبا

***

سيسمو بي المجدُ حتّى تنالَ ... يميني السُّها والثُّريّا شمالي[٥]

بحيث تناجي جِباهُ الورَى ... من الأرض ما صافحتْه نِعالي[٦]

شعره

يزعم الأبيوردي أن شعره كالماء السَّلْسَال ، أو زَهْر الرّياض ،أو اللؤلؤ ، أو الخمر ، وليس من التقوى تجميل الخمر وتزيين أوصافها ، وكثيراً ما افتخر بذيوع اسمه ، وشهرة أشعاره ، وأن الشعراء كبَوْا دون قوافيه حتى أصبحتْ تلك القوافي زادَ المسافر ، وغزلَ العاشق ، وشكوى البائس ، وسلوى المحزون ، وطارت شواردُ شعره في الخافقَينْ :

---

(١) يتعدّى : يجري . خبب : ضَرْب من السير السَّريع .

(٢) خلف الناقة : ضَرْعها . كان والده يحلب المجد حلباً يرهقه .

(٣) قاطبة : جميعاً . خندف : من جلود قريش .

(٤) يفخر بنفسه ، بطريقة غير مباشرة ، وبذيوع شهرته ، وبفصاحته وكريم أعماله .

(٥) السُّها : نجم . والثريا : مجموعة من النجوم .

(٦) هذا كلام لا يليق . اللهمّ اغفرْ لقائله .

تغنَّى به سَفْرٌ وتُطْرِي كواعِبٌ — وتبكي رسومٌ رثَّةٌ وطلولُ[1]

وقال أيضاً في شعره :

وقَواف مُلْس المتون شداد الأَسْر — غُـرٌّ مصقولـةِ الأَطـرافِ[2]
لـم يَشِـنْها إجـازةٌ وسِـنادٌ — وحلَتْ إذ خلتْ من الإصرافِ[3]
وإذا مـا رواتُها انتقدوهـا — حسـبوها لآلـئَ الأصـداف
صغْتُها في النَّسيب والفخر حتى — عُدَّ فيها الإعجازُ من أوصافي

تفاوت مستواه الشعري

مَنْ يطّلع على شعر الأبيوردي لا يراه مُنْسجماً ذا مستوى واحد ، ويبدو أنّ هذه الظّاهرة كانت انعكاساً لناحية الشّاعر النفسيّة ، فلم تكن مستقرّة على طريق لا حب ، فهو مرّة يجعل الشعر زينة يعتزّ بها ، فيقول :

ولـم أنظـم الشـعرَ عجبـاً بـهِ — ولـم أمتـدحْ أحـداً مـن أربْ[4]
ولا هزّنـي طمـعٌ للقريـضِ — ولكنّـه ترجمـانُ الأدبْ
وللفخـر أعنـى بـه لا الغنـى — فمنْ كِسْر بيتي جَيْبُ العَرَبْ[5]

ومرّة يجعله بضاعة كاسدة :

خليليّ مالي غيرَ شعري بضاعةٌ — ولكنّها لا تُشْترى بالدَّراهمِ

---

(١) السَّفر : المسافرون . تُطْري : تثني .

(٢) الأسْر : التركيب . غرّ : مشرقة .

(٣) الإجازة والسناد والإصراف : من عيوب الشعر .

(٤) مِنْ : حرف جرّ يفيد هنا معنى السببيّة . أرب : غاية ، حاجة .

(٥) الكِسْر : جانب البيتِ ، ناحيته .

أو أداة للدعاية السياسية لدى الملوك :

فـدونـكَ ممّا ينظم الفكـــر شُـرَّداً ... سلبْنَ حصى المَرجانِ كلَّ نظام [1]
ويَهْوى ملوكُ الأرض أن يُمْدحوا بها ... ومـا كلّ سمع يرتضيه كلامي

وأجودُ أو قل من أجود شعره ما كان في الفخر والغزل ، أمـا الهجـاء أو المدح ، فلم يكن يميل إليهما :

فشعْرُ مثليْ وخيرُ القولِ أصدقُه ... ما كان يفترُّ عن فخرٍ وعن غزلِ [2]
أمّــا الهجاءُ فلا أرضَى به خلُقاً ... والمدحُ إن قلتُه فالمجْدُ يغضبُ لي

وشعره ينثال عليه في يسر ، فيتدفّق به لسانه في الوقـت الـذي يستعصي على غيره من الشعراء :

والشّعرُ راضَ أبيَّهُ لي مِقْولٌ ... ذَربُ الشَّفا وفصاحةٌ وبيــانُ [3]
تلْقــي إليَّ عِنانَها منْ طاعةٍ ... ولها على المُتَشاعرينَ حِرانُ [4]

لكنّه أحياناً يتأبى عليه جيّده فيعلّل نفسه بالكتابة :

إنْ عِيب شعري قلت إني كاتبٌ ... أو عيب خطّي قيل إنّي شاعرُ

وهو يرى أنّ شعره منْجمٌ خصْبٌ فيه جزالة البادية ورقّة الحاضرة :

وجزالةُ البدويّ في أثنائها ... مفترّةٌ عن رقّةِ المُتحضّرِ

---

(١) يشبهّ أشعاره بالمرجان النفيس .

(٢) يفترّ : يبتسم : يبتسم ، يفتح فاه .

(٣) ذرب الشّفا : سيّال الطّرف .

(٤) عنان : مقُود . حران : معاندة وتأبٍّ .

خاتمة

رأينا الشاعر يذمّ موضوعيْ الهجاء والمدح ، لكنّ الناظر إلى ديوانه يجده قد طرقهما ، وطرق أيضاً أغراض الفخر والرثاء والغزل والوصف والحكمة ، وتفاوت شعرُه بين الرقّة والجزالة ، والقوّة والضعف ، لكنّ ثقافته اللغوية كانت واسعة ، وقد وفّق أحياناً في إيراد مجازات حسنة ، تعتمد بخاصّة على التّشبيه أو الاستعارة ، وعلى شاكلة عَلَقِ عصره بـألوان المجاز والبديع ، والإكثار منها ، أكثر الأبيوردي أيضاً منها وغالباً ما يتكّئ على المقدّمة الغزلية أو الطّللية قبل أن يطرق غرضه ، وهو يُحْسن الانتقال من موضوع إلى موضوع ، ولكنّ شعره لا يخلو من مبالغات ممقوتة ، وادّعاء لشعره بصفاتٍ هي أعلى منه ، ولا سيّما حين يتنبّأ بأنّ المستقبل لن يلد أمثال قصائده :

لحقْتُ بها شأْوَ المُجيدين قبلَها　　　وهيهاتَ أن يُؤتى بأمثالها بعدي

ولا بأسَ أن أختم البحث بقوله ، وهو من جيّده :

أَمِنْتُ حوادثَ الأيّام لمّا　　　غَسلْتُ يديَ مِنْ جاهٍ ومالِ

مللْتُ العيشَ حتى كدْتُ أشكو　　　جناياتِ المَلالِ إلى المَلالِ[١]

وما اعتاص المَرامُ عليَّ حتّى　　　وجدتُ التّرْك يُرْخِصُ كلَّ غالِ[٢]

وبهذه الأبيات من ميميّته ، التي تعدّ أيضاً من أفضل شعره وفيها يستثير الهمم لمقاومة الصليبيّين لما احتلّوا سواحل الشام والقدس :

مزجْنا دماءً بالدموع السّواجمِ　　　فلم يبقَ منّا عُرْضةٌ للمراحمِ[٣]

وشَرُّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضُهُ　　　إذا الحَرْبُ شُبّتْ نارها بالصّوارمِ[٤]

فإيهاً بني الإسلام إنّ وراءكم　　　وقائعَ يُلْحِقْنَ الذُّرا بالمناسمِ[٥]

وهي قصيدةٌ تفيض حميّة إسلامية ، وغيرة دينيّة ، وتدلّ على إباء الأبيورديّ ، وإخلاصه .

---

(١) الملال : الملل .　　(٢) اعتاص : تشابك وتعقّد وتعرقل . المرام : المطلب .

(٣) السّواجم : المنسكبة . المراحم : الرحمة .

(٤) الصوارم : السيوف .　　(٥) المناسم :جمع منسم ، وهو خفّ البعير .



١٢

إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة عنه

هو مؤيَّد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصّمـد الأصفهـاني المعروف بالطُّغرائي ، نسبةً إلى الطُّغْرة أي الطُّـرَّة الـتي تُكْتَـبُ في أعلى الرسـائل على شكل مخصوص وبالقلم الغليظ ، ومضمونُها نَعْتُ المِلِك الـذي تَصْـدرُ عنـه تلك الرسائل ، وكان الحسين بن علي يلقَّبُ بالأستاذ .

وُلِدَ الطُّغرائيُّ في حيّ قرب أصفهان سنة ٤٥٣هـ (١٠٦٠م) ، ولمَّا شبَّ برَعَ في الشِّعْر والنَّثر والخَطّ ، فتقلَّب في المناصب المختلفة في الدولة السّلجوقية : خدم الملك ألب أرسلان بن مَلِك شاه (٤٦٥-٤٨٥هـ) في أصفهان . ثـم تولّـى ديوان الإنشاء وديوان الطرّة لمحمد بن ملـك شـاه مـدَّةَ ملكِه كلّهـا . ولمـا توفّـي محمد سنة ٥١١هـ (١١١٨م) خلفه ابنه محمود ، وبقـي ابنـه الآخـر مسـعود في الموصل ، وكان الطغرائيّ مع مسعود ، ثمّ نازع مسعود أخاه محمـوداً في العـرش وتحارَبا قـرب همـذَان ، فقُتـل مَسْعود ، وقُتـل الطغرائـيّ معـه في المعركـة علـى الأغلب ، وذلك سنة ٥١٥هـ .

كان الطغرائيُّ أديباً بليغاً وشـاعر مُجيـداً ونـاثراً مترسّـلاً وعالمـاً بالعربيّـة وبالعلوم الطبيعيّة ، خبيراً بصناعة الكيمياء القديمة .

وشعْرُ الطغرائي متين يغلب عليه النَّفَـس القديـم أحيانـاً ، ثـمّ هـو سَـهْل عذب ، وطَرَقَ معظم فنون الشـعر مـن حماسـة وفخـر وعتـاب وغـزل ومـداراة النّاس .

بعض مؤلّفاته

ألّف الطغرائيُّ كتاب جامع الأسرار وتراكيب الأنوار في الكيمياء ، ومصابيح الحكمة ومفاتيح الرَّحْمة ، وحقائق الاستشهاد ، والمقاطع في الحكمة الإلهية ، وسرّ الحكمة . وله كتاب في صناعة الإكسير ، وديوان شعر ذاعتْ منه قصيدته اللاميّة المعروفة بلاميَّة العجم وسُمّيتْ بذلك لأن صاحبها أصفهانيّ ، وأصفهان في بلاد العجم ، أمّا أصوله فتنحدرُ من أرُومةٍ عربيّة ، تتّصل بأبي الأسود الدؤلي (ظالم بن عمرو) المتوفى سنة ٦٧هـ ، والذي يعدّ من مؤسّسي علم النحو العربي وأوّل واضعي لَبِنَاته .

بداية أمره

يبدو من خلال ثقافته التي تَنْضَجُ بها آثاره أنه اختلف منذ نعومة أظفاره إلى دور العلم وحلقات العلماء ، فألمّ بعلوم العربية والدين والصنعة (الكيمياء) . وصار يقول الشّعْرَ ، فتوجّه به إلى المشهورين ليحظى برِفْدهم ، وكان من أوائل مَنْ وفد عليهم فضل الله بن محمّد صاحب ديوان الإنشاء لألب أرسلان ، وفضل الله هو الذي عيّنه كاتباً في الديوان ، ووصله بالوزير الذائع الشهرة نظام المُلْك[1] فاستمع إلى مدائحه فيه . ورحَّب به . وحدَث أن اشترك الفضل في مؤامرة كبرى على نظام الملك ، وانكشفت المؤامرة ، وسجن الفضل .

(١) هو الحسن بن علي (٤٠٨-٤٨٥هـ) الطوسي ، أبو عليّ ، ، الملقب بقوام الدّين ، نظام الملك : وزير حازم عالي الهمّة ، أصله من نواحي طُوْس ، تأدّب بآداب العرب ، وسمع الحديث ، واشتغل بالأعمال السُّلْطانيّة ، فاتّصل بالسلطان إلب أرسلان فاستوزره ، فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين . ومات إلب أرسلان فخلفه ولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت ، والصيد ، وأقام على هذا عشرين سنة . كانت أيامه دولة أهل العلم . له "أمالي نظام الملك في الحديث" .

استمراره في خدمة نظام الملك

ظلّ الطّغرائيّ يحفظ للفضل بن محمد صنيعه معه ويواسيه في محنته ببعض أشعار يدبّجها في مديحه ، وكان نظام الملك حصيفاً ، فلم يأخذْ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه ، وظلّ الطّغرائي يعمل في دواوينه ، كما ظلّ على صلته به يمدحه في المناسبات ، ومن مدائحه البديعة فيه بائيتان ، يشيد فيهما به وبانتصارات جيوش الدولة في مشارق الأرض ومغاربها ، مثل قوله :

خميسٌ أقاصي الشّرْق تَرْزُمُ تحتَه — وترتجُّ منه أُخرياتُ المغاربِ[1]
يلفُّهم بالرُّعب قبل طِرادهمْ — ويهزمهم بالكتْب قبل الكتائب

إرْمالُه[2]

تزوَّج الطغرائيّ ، ورُزق من امرأته ولداً ، ثم ماتت تلك الزوجة ، وابنها رضيع ، فحزن عليها حزناً عميقاً ، وقال يرثيها :

بنفسيَ مَنْ غاليتُ فيها بمهجتي — وجاهي وما حازتْ يدايَ من الوَفْرِ
وفُزتُ بها من بين يأسٍ وخيبةٍ — كما استخرج الغوّاصُ لؤلؤةَ البَحْرِ
فجاءتْ كما جاءالمُنىواشتهىالهوى — كمالاً ونُبْلاً في عفافٍ وفي سِتْرِ
فيا موتُ ألحقْني بها غيرَ غادرٍ — فإنّ بقائي بعدها غايةُ الغَدْرِ
لآنستِنا حتى إذا ما بهرْتِنا — سَناً وسناءً غِبْتِ غيبوبةَ البَدْرِ[3]

---

(١) خميس : جيش ، ترزُم : تسقط من الإعياء فلا تتحرّك .

(٢) أَرْمَلَ الرجل : ماتت زوجته . وأرملت المرأة : مات زوجها .

(٣) سنا : ضياء . سناء : شرفاً ورفعة ومجداً .

وقـد كـــان ربْعــي آهـــلاً بـــكِ مُـــدَّةً	أَحِـنُّ إليــه حنَّــةَ الطَّــيْرِ للوكْــرِ[1]
وآوِي إليـــــه وهْـــوَ روضـــــةُ جنَّـــــةٍ	بدائعهــا يَخْتَلْـنَ فــي حُلَـلٍ حُمْـرِ[2]
فمُذْ بِنْتِ عنه صار أَوْحَشَ مـن لظـىً	وأضْيَقَ من قَبْرٍ وأجدبَ مـن قَفْرِ[3]

فهو لم يضنّ بمهجته ولا جاهه ولا ماله من أجل الاقتران بها ، وتحقق له أملُه فيها بعد لَأْي ، كالغوّاص يعاني ما يعاني لدى استخراجه اللؤلؤة ، هكذا قاسى حتى حظي بفتاة أحلامه وشريكة حياته ، ولقد كانت كاملة الأوصاف ، نبيلة الشمائل ، عفيفة سِتِّيرة . ثم فقدها فجأة ، فصار يتمنى الموت وأنْ يلحق بها .

إنّ الشاعر ما كاد يأنس بامرأته ، ويتملّكُه بهاؤها وعُلاها حتى غابت ، ولقد ازدان بها بيته ، كان آنئذ شديد الشوق إلى بيته ما إن يخرج منه حتى يحنّ أن يعود إليه ، وكأن بيته قطعةٌ أو روضة من رياض الجنة ببدائعها وألوانه الزاهية ، لكنّها بعدما غادرته بات بيته كمثل الجحيم ، أو القبر المظْلم ، أو القفر البَلْقَع .

ويتزوّج بعد مدّة امرأةً أخرى غيرَها ، ويُرزق منها أولاداً ، وربَّما أحبَّها أكثَر من حبّه الأولى ، لكنّها لم تمتْ مثلها ، فلم يقل فيها ما قال في الأولى ، وما أكثَر ألّا نعرفَ قيمة الشيء إلّا بعدَ فَقْدِه .

---

(١) ربعه : منزله . نزلتْ داره ، فكان -إذ ذاك- يحنّ إلى تلك الدار كلما خرَج منها حتى يعود إليها .

(٢) يَخْتَلْن : بفتح التاء ، من الاختيال .

(٣) بِنْتِ : من البَيْن وهو البُعْد .

بقاؤه في خِدْمة السَّلاجقة

تـابع الطغرائـي عملـه في دواويـن السَّـلاجقة ، ويتوفّـى نظـام المُلْـك ، وتضطرب به الحياة ، فيتعرّض لبعض الوزراء بالهجاء ولبعضهم بـالمدح والثنـاء ، وتتوثّق صلته بالسُّلْطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩-٥١٢هـ) ، ويصبحُ في عهـده نائباً عن ديـوان الطُّغْراء ، أو قـل وزيـراً للقلـم والإنشـاء . ونـراه في مِدْحـة لـه يتحدّث عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تُلْقي في قلوبهم من فزع بمثل قوله :

خَيْلٌ بأرض الرَّقَّتَيْنِ وراءها ... نَقْـعٌ كمُرتكِـمِ الغمـام مُثـارُ[1]

رِيْعَ العدوُّ وقد أحسَّ بقُربِها ... فـالجَنْبُ نـابٍ والرُّقـاد غِـرارُ[2]

وعلى خليج الرُّوم منكَ مهابةٌ ... مـن خوفهـا يتطـامَنُ التَّيـارُ[3]

ولقـد درى الرومـيُّ أنّ وراءه ... خطَـراً تقـاصَرُ دونـه الأخطـارُ

ويتحدّث في هذه القصيدة أيضاً عن إيقاع السـلطان محمـد بـن ملكشـاه بالباطنيّـة الحشاشـين ، وقضائـه علـى ابـن عطّـاش في حصـن "شـاه دز" بقــرب أصفهان واستيلائه على قلعته .

ويتولى أبو طـالب علـي بـن أحمـد السـميري الـوزارة ويتوفـى السـلطان محمد ، ويخلفه ابنه محمود ، وتفسد العلاقة بين الطغرائي والوزير ، ويرحـل عـن بغداد ، وينبوبه المقام فيذمّ في بائيّة مقامه بالعراق بمثل قوله :

مَلِلْتُ ثَوائي بالعراق وملَّني ... رفاقي وكانوا بالعراق طِرابا

---

(١) الغمام المرتكم : المتلبّد بعضه فوق بعض .

(٢) نابٍ : غير مرتاح . غرار:قليل . يتحدّث عن خـوف الأعـداء مـن جيـوش السـلطان محمد ، وهو خوف أقلقهم وأورثهم السّهاد .

(٣) يتطامن : يتواضع ويخفّ .

لامية العجم

في هذه الفترة التي تجرَّد فيها الطغرائي من أعماله نظم لاميته المشهورة بلاميّة العجم ، مع أن قائلها عربي ، سمّيت كذلك -كما مرّ بنا- لأنّه مولود في جَيّ قرب أصفهان ، وليس في هذه القصيدة تعصب للعجم على العرب ، بل إنها لأسلم من هذه الناحية من لاميّة العرب الذائعة عن الشنفرى[1] ، التي ذهب بعض الدارسين إلى أنها تُسِيء إلى سمعة العرب ، وتَصف بعضهم باللصوصية وأكل التُّراب ، والفخر بتأييم النساء وتيتيم الأطفال .

ولاميّة العرب للشنفرى تبلغ ثمانية وستين بيتاً ، أولها :

أقيموا بني أمّي صدور مطيّكمْ	**فإني إلى قوم سواكم لأمْيَلُ[2]**
فقد حُمّت الحاجات والليل مُقْمِرٌ	**وشُدّتْ لِطيّاتٍ مطايا وأرْحُلُ[3]**
وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى	**وفيها لمن خاف القِلَى مُتعزّلُ[4]**

وهي كما ترى من البحر الطويل . بينما لاميّة الطغرائي من البسيط ، وإن التقتا في رويّ اللّام ، وهو روي مضموم لدى الشنفرى ، مكسور عند الطغرائي .

---

(١) الشنفرى : لقب معناه العظيم الشَّفَتين ، واسمه ثابت بن أوس الأزديّ ، وكان شديد النّقمة على بني سلامان ، فقتل منهم قرابة المئة ، ثم أسروه وقتلوه بحدود سنة ٥١٠م . وكانت حياته "صعلوكية" تقوم على السَّلْب والنّهب والغارات ليلاً ، وكان عدَّاءً ، وكان أسود اللّوْن .

(٢) يقال : أقام صدر مطيته : إذا سار وإذا توجّه .

(٣) حمّتْ : قدّرت . الطيّة : الحاجة .

(٤) منأى : موضع بعيد . القِلَى : البغض .

ولاميّة الطغرائي تصوّر نفثة شاعر عُزِل من منصب كان يرى نفسَه أرفع منه ، فإذا هو عاطل ، وإذا هو في بغداد غريب .

الفخــــــر

تدور لاميّة الطُّغرائي حول عدّة أغراض ، أولها الفخر ، فهو يعتدّ بأصالة آرائه ، تلك الأصالة التي عصمتْه - في زعْمه - من الانحراف والخطأ ، ويعتدّ أيضاً بما أُوْتي من سجايا عظيمة وخلال كريمة ، وهي سجايا وخِلال لم تفارقْـه حـين فارقه منصبه السياسي ، بل إنه بسببٍ من حيازته لتلك الشـمائل لم يكـن إلّـا في مجد ، وما هو الآن أيضاً إلّا في مجد ، وما مثلُه في ذلك إلا كمثل الشمس ، فهي هيَ ، سواءٌ كانت في رابعة النهار أم في الآصال :

أصالةُ الرَّأي صانتْني عن الخطَلِ وحِلْيــةُ الفضْـلِ زانتْـــي لـــدى العطَـلِ[1]

مـجدي أخيراً ومَجْدِي أوّلاً شَرَعٌ والشمْسُ رأْدَالضُّحَى كالشَّمْسِ في الطَّفَلِ[2]

شــكـواه

يشتكي الغرْبَة والقِلّة ، والوحدة ، والنّأي :

فيمَ الإقامــةُ بـالزَّوْراءِ لا ســكَني بها ، ولا ناقتي فيها ولا جَملِـي[3]

ناءٍ عن الأهل صِفْرُ الكفِّ منفـردٌ كالسَّيف عُرِّيَ متْناه عن الخِلَـلِ[4]

---

(١) الخطَل : المنطق الفاسد . العطل : الخلوّ من الزينة ، يريد إعفاءَه من منصبه .

(٢) شرع : سواء . رأد الضحى : وقت ارتفاع الضحى . الطَّفَلُ : آخر النهار .

(٣) الزوراء : بغداد .

(٤) متن السيف : ظهره . الخِلل : جمع خلّة ، وهي بطانة جفن السَّيْف .

فلا صديقٌ إليه مشتكى حزَني ولا أنيسٌ إليه مُنتَهى جذلي[1]

طال اغترابيَ حتّى حنّ راحلتي ورحلُها ، وقرَى العسّالةِ الذُّبُل[2]

أريدُ بَسْطةَ كفٍّ أستعينُ بها على قضاء حقوقٍ للعلا قِبَلي[3]

والدّهرُ يعكِسُ آمالي ويُقنِعني من الغنيمةِ بعدَ الكدّ بالقَفَلِ[4]

الرّحلة والرفيق والغزل

وذي شِطاط كصدر الرمح مُعْتَقِلٍ بمثله ، غير هيّاب ولا وكِلِ[5]

والرَّكْبُ مِيلٌ على الأكوار مِنْ طَرَبٍ صاحٍ ، وآخَر مِنْ خَمرْ الكرَى ثَمِلِ[6]

فسرْ بنا في ذِمام الليل مُعْتَسِفاً فنفحةُ الطِّيب تَهْدِينا إلى الحِلَلِ[7]

العمل والمخاطرة وركوب الأهوال

حبُّ السّلامةِ يثْني همّ صاحبهِ عن المَعالي ، ويغري المَرْءَ بالكَسَلِ[8]

فإنْ جنحتَ إليه فاتّخذْ نفقاً في الأرْض أو سُلّماً في الجَوّ فاعتزِلِ

---

(١) جذلي : فرحي .

(٢) قرى العسّالة : أسنّة الرماح . طال اغترابي إلى أن حنّت راحلتي وحنّ رَحْلها وحنّتْ أعالي رماحي إلى الدَّعة والسُّكون والاستقرار .

(٣) بسْطة : سعة . (٤) القفل : الإياب .

(٥) ذو شطاط : معتدل القامة . معتقِل : واضع رمحه بين ساقه وركابه . وَكِل : متواكل عاجز ، يَكِلُ أمره إلى غيره . يصف صاحباً له معتدل القامة كأنه الرمح ، معتقلاً رمحاً مثله ، لا يخاف الهول ولا يعتمد على النّاس .

(٦) ميل : جمع أميل ، وهو الذي لا يستوي على السَّرْج . الأكوار : جمع كور ، وهو القَتَبُ ، أي الخشب يغطّى به سنام التعبير . ثمِل : نشوان .

(٧) ذِمام : حُرْمة . الاعتساف : السُّرَى بغير دليل ولا خبرة بالطّريق . الحِلَل :البيوت . رائحتها الزكيّة تدلّ على محلّها . (٨) يَثْني : يعطف . همّ : عزم .

ودع غِمارَ العُلا للمُقدمين علـى | ركوبهـا ، واقتنـعْ منهـنّ بـالبَلَلِ[1]
رضى الذَّليلِ بخَفْضِ العيش مسكنةٌ | والعِـزُّ عنـد رسـيم الأينُـقِ الذُّلُـلِ[2]
فـادْرأْ بهـا فـي نحـور البيـدِ جافِلَـةً | معارضـاتٍ مثـاني اللُّجْـمِ بـالجُدُلِ[3]
إنَ العـلا حدَّثتْنـي وهـي صادقـةٌ | فيمـا تحـدِّثُ أنَ العِـزَّ فـي النُّقَـلِ
لو أنَ في شرَفِ المأوى بلوغَ مُنًى | لم تبرحِ الشمسُ يومـاً دارةَ الحَمَلِ[4]

يندب حظّه بالسُّلْطة

أهبْتُ بالحظِّ لو ناديتُ مستمعاً | والحـظّ عنّـيَ بالجُهَّـال فـي شُـغُلِ[5]
لعلّـه إنْ بدا فضلـي ونقصُهـمُ | لعينـهِ نـام عنهـم أو تنبَّـه لـي
أُعَلِّلُ النَّفْـس بالآمـال أرقبُهـا | ما أضيقَ العيشَ لولا فُسحةُ الأمـلِ[6]

---

(١) الغِمار : الزحام ، العمـق . اتـركْ لجـج المعـالي للذيـن أقدمـوا علـى مشـاقّ ركوبهـا وصبروا على أهوالها ، واقتنع من اللجج بالبلل وبالنزر من العيش .

(٢) خفض : دعة . الرسيم : ضرب من سير الإبل . الأينق : النوق . رضى الذليـل بلـين العيش ودعته مع الذلّ مسكنة عند صاحب النفس الأبية . وإنّما العزّ في سـير النـوق المذلّلة في الأسفار .

(٣) ادرأ : ادفعْ . جافلة : مُسْرعة .الجدُل : جمع جديل ، وهو زمـام النّاقـة المجـدول مـن أدم . ادفع بالإبل في نحور المفاوز مسرعة غير ملتفتة ، وبجياد الخيـل ، فعـارض ْلجـمَ الأينق بأزمّة الخيول .

(٤) دارة الحمل : أشرف الأبراج السّماوية .

(٥) أهاب به :صاح به .

(٦) أعللّ : أُلْهي ، أُمَنّي .

لمَ أرتَضِ العيشَ والأيّامُ مقبلةٌ — فكيف أرضَى وقد ولّت على عجَلِ[1]
ما كنتُ أوثر أنْ يمتدَّ بي زمني — حتى أرى دولةَ الأوغاد والسَّفَلِ[2]
تقدَّمَتْني أناسٌ كان شوطُهمُ — وراءَ خطويَ إذ أمشي على مهَلِ
وإنْ علاني مَنْ دوني فلا عجَبٌ — لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَلِ[3]
فاصبرْ لها غيرَ محتالٍ ولاضَجِرٍ — في حادثِ الدهر ما يغني عن الحِيَلِ[4]

نظرات في الحياة

الصداقة :

أعدى عدوِّك أدنى مَنْ وثقْتَ بهِ — فحاذرِ النَّاس واحذرهم على دخَلِ[5]
وإنّما رَجُلُ الدنيا وواحِدُها — مَنْ لا يُعَوِّلُ في الدنيا على رَجُلِ[6]

---

(١) ما رضيت بالعيش في صباي ، حين كانت الأيّام مقبلة ، فكيف أرضَى بالعيش وقد كبرت وولت الأيّام عني .

(٢) الوغد : اللئيم الضعيف .

(٣) كانوا يظنون أن الشمس أقرب إلى الأرض من زُحَل .

(٤) اصبر للنوائب صَبْرَ من لا يحتال ولا يقلق لنزولها ، فإن في مجرى الحياة من وقائع مايغنيك عن الحيل ، ويأتيك بما لا تقدر عليه بحيلك وحَوْلك .

(٥) أدنى : أقرب . دخل : مكر وخديعة .

(٦) لا يعوِّل : لا يعتمد على أحد من الناس .

تفشّي الغدر :

وحُسْنُ ظنّك بالأيّام مَعْجَزةٌ فظُنَّ شرّاً وكنْ منها على وَجَلِ[1]

غاضَ الوفاءُ وفاض الغدر وانفرجَتْ مسافةُ الخُلْف بين القول والعمَلِ[2]

وشانَ صدقَك عندَ الناس كِذبُهمُ وهل يُطابَقُ مُعوَجّ بمعتدلِ

دار الفناء :

ترجو البقاءَ بدار لا ثباتَ لها فهل سمعتَ بظِلّ غيرِ مُنتقِلِ

الزهد في المناصب وفي الدنيا

ويا خبيراً على الأسرار مطّلعاً اصمُتْ ففي الصّمْتِ منجاةٌ من الزّلَلِ[3]

قد رشّحُوك لأمرٍ لو فطنْتَ له فاربأْ بنفسِك أن تُرْعى مع الهَمَلِ[4]

يا وارداً سُؤْرَ عيشٍ كلُّه كَدَرٌ أنفقْتَ صفْوك في أيّامِك الأُوَلِ[5]

فيمَ اقتحامُكَ لُجَّ البحرِ تركَبُهُ وأنتَ يكفيكَ منه مَصّةُ الوَشَلِ[6]

مُلْكُ القناعةِ لايُخْشى عليه،ولا يُحتاج فيه إلى الأنصار والخَوَلِ[7]

---

(١) مَعْجَزة : مصدر ميمي بمعنى العَجْز . وجَل : خوف .

(٢) غاض : غاب .

(٣) الصمت حكْمة ولا سيّما على أسرار سياسية إنْ أفشاها انتقم منه أصحابها .

(٤) اربأ : احذَر . الهمل : الإبل بلا راع . يحذّر نفسَه من مَكْر أعاديه وما يبيّتونه له .

(٥) السُّؤْر : البقيّة . الكدَرُ : نقيض الصَّفاء .

(٦) اللُّجّ : معظم الماء . الوشَل : الماء القليل .

(٧) الخوَل : الحشَم : الخاصّة ، من عبيد أو أهل أو جيرة .

خمرياته وتهتكه

من الناس من إذا أصابته ضرَّاء صبر ، وإن كانتْ له هفوات تابَ وأناب ، وطمع بتعويض الله تعالى له عن مُصابه يوم الحساب . ومنهم من يؤزُّه إبليس فإذا هو يعزّي نفسه عن مصابه بالانهماك في اللّذّات الدنيوية العارضة ، وهذا ما صنعه الطغرائي . وله قصائد في المغامرات وممارسة الشهوات ، أو الدعوة إلى الخمريات ومجالسها ، وسماع القَيْنات . لكنه أحياناً يتغزَّل تغزُّلاً فقط ، كما في قوله :

يا قلبُ مالكَ والهوى من بعدما ... طابَ السُّلُوُّ وأقصر العُشَّاقُ[1]
أو ما بدا لكَ في الإفاقةِ والأُلَى ... نازعتَهم كأسَ الغرام أفاقوا[2]
يا حبَّذا نجْدٌ وأعراقُ الثَّرى ... لُدْنٌ وأنفاسُ النعيمِ رِقاقُ[3]

مقتله

لم يصدق الشاعر مع نفسه حين دعاها إلى الزهد في الدنيا وفي المناصب كما ذكر في لاميّته ، لذلك نراه يتعامل من جديد مع السلطان مسعود في الموصل سنة ٥١٣ ، ويعمل وزيراً عندَه ، وتقوم الحرب بعد سنتين بين مسعود وأخيه محمود ، فينتصرُ الأخير ويقتل أخاه مسعوداً ووزيره الطغرائي ، سنة ٥١٥هـ .

(١) السلوّ : النسيان (نسيان المحبوبة) .

(٢) أفاقوا : تركوا الهوى .

(٣) لُدنْ : رطب ، ليّن .

الــــفــــخــــر

رأيناه يفتخر بلاميّتـه بنفسـه وأصالـة رأيـه ، وحِلْيـة فضلـه ، وبأمجاده ، ويفتخر أيضاً في غير اللامية بمعارفه الواسعة فيقول :

أمّا العلومُ فقد ظفِرْتُ ببُغْيتي ... منها فما أحتاجُ أنْ أتعلّما[1]

وعرفْتُ أسرارَ الخليقةِ كلَّها ... عِلْماً أنارَ لي البهِيمَ المُظْلِما[2]

(١) بغية : مراد .

(٢) البهيم : الغامض .

خـــاتـمــة

للطغرائي -غير مـا تقـدّم - شـعر تعليمـيّ في علـم الصَّنعـة (الكيميـاء) ، ويظهر في شعره عامّة أسلوب الشـريف الرضـي ومهيـار الديلمـي ، وغيرهمـا ، وهو يكثر من فنون البديع ، وأشهر آثاره لاميتُه السابقة الـتي شـرحها الصَّفـدي خليل بن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤هـ .



اعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مراحل حياته

ولد أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن نصر في مدينة عكا سنة ٤٧٨هـ ، وهو ينحدرُ من سلالة خالد بن الوليد ﷺ، وكانت عكّا آنئذٍ تحت الحكم الفاطمي ، وكان اسم عاملهم على عكا زهر الدَّوْلة الجُيوشي ، الـذي لم يَطُلْ حكمه فيها ، لأن الصليبيّين هاجموها برّاً وبحراً عام ٤٩٧هـ ، منطلقين من بيت المقدس بقيادة بلدوين (بودوين) ، وقتل خلْقاً كثيراً من أهلها ، وخلْقاً كثيراً آخرين أسرهم وساقهم إلى بلاده .

وانتقل الشاعر إلى قيسارية الساحل القريبة من عكا ، ونشأ فيها ، فنُسب إليها ، ثمّ هاجر مع أسرته إلى مدينة حلب .

على أنّ ابن القيسرانيّ كان كثير التطواف على دمشق ، والإلمام بها ، وهناك أخذ الأدب عن توفيق بن محمّد الدمشقي ، وتتلمذ للشاعر ابن الخيّاط ، وروى شعره ، وكان لابن الخيّاط ثقة به ، إذْ يقول في ختام ديوانه : "إنّ كلّ ما رواه عني (ابن القيسراني) فهو ما سمعه منّي أو قرأه عليَّ ، وما رواه غيره فلا يعتدّ به" .

وفي حلب أفاد مِنْ هاشم بن أحمد ، وأبي طاهر الخطيب ، ونراه يكثر من الارتحال والتنقُّل بين حلب ودمشق والموصل وشيزر ، وكان يحكم شَيْزَرَ آلُ منقذ ، فاتّصل بهم .

من بواكير شعره

مدح ابن القيسراني وهو بحدود الرابعة عشرة من عمره ملكَ شيزر عزَّ الدولة نصر بن علي المتوفى سنة ٤٩٢هـ ، وكان نصر قد كُلِمَ ثم عُوْفِي ، فقال الشاعر :

كلُّ دعوى شجاعةٍ لم تؤيَّدْ	بكلامِ الكِلام دعوى مُحالِ[١]
لا يَرُعكَ الصقّال في السَّيف حتى	يَنْطِقَ الفَلُّ شاهداً للصقّالِ[٢]
غادرَ البأسُ في جبينِك منه	أثراً لاحَ في جَبينِ الهلالِ[٣]
لا يجلّي دُجَى الحوادثِ إلاّ	غُرَرُ الحرْب في وجوه الرِّجالِ[٤]
في مقاديمها تُصابُ المقاديم	وتُرْمَى الاكفالُ في الأكْفَالِ[٥]

في دمشق

كان ابن القيسراني يتردّد على دمشق ، وقد تولّى إدارة السّاعات على باب الجامع الأموي في عهد تاج الملوك بوري بن طغتكين التركي ، وليس في ديوان ابن القيسراني مدح لعاهل دمشق ، في الوقت الذي نجد فيه في آثار هذا

---

(١) الكِلام : جمع كَلْم ، وهو الجرْح . من ادّعى الشجاعة و لم يتعرَّضْ للمعارك والجِراح فادّعاؤه قولي لا عملي .

(٢) الفلّ : التثلّم . لا يُعْجبنّك سيف صقيل لامع حتى يُسْتعمل في الحرب وينبو ، فمن دون تجربته لا تعرف قيمته ، ولا يستبين معدنه .

(٣) أصيب نصر بن علي بضربة سيفٍ أبقتْ في جبينه أثراً،ويجرد من الأمير قمراً مكلوم الجبين .

(٤) دجى : ظلام . غرر : آثار ، جراح (يزيّن الجراح) .

(٥) المقاديم : الأبطال ، يصابون في وجوههم وصدروهم ، والمتخلّفون والفارّون (الأكفال) يصابون في ألياتهم وظهورهم .

الشاعر هجْواً لتاج الملوك الذي حكم دمشق ما بين عام ٥٢٣هـ وعام ٥٢٦ . وقد طلبه حاكمُ دمشق ففرّ إلى حُكّام حلب والموصل من الزنكيّين .

في رحاب الزنكيّين

كان الزنكيّيون في أعلى مراتب الرقيّ ، والوعي ، والإخلاص ، وكان لديهم إحساسٌ شفيف بالتقوى ، وهو إحساس دفعهم إلى طاعة الخلفاء والتزام أوامرهم ، ومن هنا كان اتصال ابن القيسراني بهم اتّصالاً بأعيان دار الخلافة في آن واحد ، فمدح منهم جلال الدين بن صدقة ، وزير الخليفة المسترشد ، ومدح ابن الأنباري كاتب الإنشاء بديوان العزيز ، أما الزنكيّون فقد مدح منهم عماد الدين ، ووزيره جمال الدين الأصفهاني ، الذي يقول فيه :

وإذا الوُفودُ همٌّ إلى الملوك تبادرت ... فعلى جمال الدِّين وَفْدُ محامِدي[1]

يا حبَّذا همٌّ إليكَ أصارني ... وعزيمةٌ تقفو رياضةَ قائِدِ[2]

أنا روضةٌ تُزْهى بكلّ غريبةٍ ... أَفَرائدي مَنْ لم يَفُزْ بفرائدي ؟[3]

إنْ ساقني طلبُ الغِنَى أو شاقني ... حبُّ العلا فلقد وردْتُ مواردي[4]

---

(١) يتوافد النّاس إلى الملوك لبلوغ مآربهم ، وتوجّه موكب الحمد من الشاعر للوزير جمال الدين .

(٢) تقفو : تتبع . يثني على همّه الذي بلّغه الوزير وعلى عزيمته التي جذبتها خصال ذلك القائد الهُمام .

(٣) تزهى : تفخر . رائد : طالب .

(٤) الغنى والعلا كلاهما عند الوزير جمال الدين الذي أَمَّه الشاعر .

ومتى عدَدْتُ إلى نَداك وسائلي | أعدَدْتُ قصدي من أجلِ مقاصدي[1]
حتى أعـودَ من امتداحكَ حالياً | وكـأنّني قُلِّـدتُ بعضَ قــلائدي[2]

عماد الدين يفتح حصن بارين

عاش المسلمون بعد دخول الصليبيّين القدس سنوات عِجَافاً مرّة صَعْبـة ، وأراد الصليبيّون إذلالهم ، ويكفي للاستدلال على ذلـك أنّ أي شـاب أو رجـل في قُدْرته أن يحمل السّلاح كان مصيره بتر رأسه لأدنى مظهرٍ فيه قـد يثير ريبـةً من هؤلاء المعتدين ، وأين كانوا يجعلون ذلك الرأس ؟ في كومـات ضخمـة مـن رؤوس القتلى يجعلونها كالقلاع !

وبقيت مقاومة المسلمين للفرنجة الصليبيّين شبه معدومة حتى ظهر عمـاد الدّين زنكي ، وكان ذكيّاً شجاعاً أبلى بلاء حسَناً في حروبه مع الفرنجة في بلاد الشام ، وتحدث الناس عن شجاعته ، وكان يُدْعَى زنكيّ الشام .

وقد ساءه تنـاحر الأمـراء علـى السـلطنة ، وقـال لبعـض أصحابـه : قـد ضجرْنا ممّا نحن فيه ، كلَّ يوم يملك البلد أمير ؟

وترك البصرة ومدينة واسط اللتين كانتا بإمرته ، والتحق بخدمة السلطان محمود السلجوقي ، الذي وثق به فندبه ليتولى أمر بلاد الشام الممزَّقة ، حين شعر بالخطر الذي يهدّدها بعد أنْ تمكّن الفرنجة من ديار الجزيـرة والشَّـام ، واستولَوْا على أكثرها ، من ماردين شمالاً إلى عريش مصر جنوباً .

---

(١) الندى : الجود . توجُّهه أو توجُّه نيّته إلى الوزير هو وحده من أبرز وسائله إلى سخاء الوزير .

(٢) حالياً : مزداناً . القلادة : العقد في الرقبة .

نظر الناس إلى عماد الدّين على أنه البطل الموعود لإنقاذ بلاد الشَّام من الصليبيّين ، واستطاع أن يستردّ منهم جزيرة ابن عمر ونَصِيبين وسنجار وحرّان ، وعبر الفرات ثم دخل حلب ، فرحّب أهلها بمقدمه ، ووصل إليه توقيع سلطاني بتوليته الموصل والجزيرة والشَّام ، وأضاف إليه سنة ٥٢٥هـ العراق ، فعظم أمل الناس فيه .

أراد بثاقب بصره أن يوحّد البلاد قبل منازلة الصليبيّين في معركة حاسمة ، فهادن جوسلين صاحب الرَّها مهادنة مؤقّتة ريثما يُعِدّ العدّة للمنازلة ، وحارب صاحب دمشق مدّة ، ولكنّ رسل الخليفة جاءته تطلب نجدته على السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه ، وهو أخو السلطان (محمود ابن محمد بن ملكشاه) ، وتأمره بمصالحة صاحب دمشق .

أراد الصليبيّون الذّين كانوا يرقبون الأمور عن كثب أنْ يستغلّوا التصدّع بين الخلفاء والسَّلاطين والأمراء في بغداد وغيرها ، ليحصلوا على مكاسب جديدة في بلاد الشَّام ، فجمعوا صفوفهم لمنازلة عماد الدين ، ولكنّه فاجأهم بجيش قوي مجاهدٍ مدرَّب ، وأحسّ الفرنجة بالخطر المُحدِق بهم ، فتسلَّل القسُس والرهبان إلى بلاد الروم والفرنجة ليستنصروهم على المسلمين ، وأقنعوهم بأنّ عماد الدين زنكي إنْ هو استولى على حصن بارين فإنّه سينطلق منه ويستولي على جميع البلاد التي بحوزتهم ، وستنصرف همّة المسلمين عندئذ إلى فتح بيت المقدس .

دارتْ رحى معركة قرب بارين ، وكان ملك بيت المقدس بين الصليبيّين الذّين فرّوا على إثرها ولجؤوا إلى حصنها ، فشدّد عليهم عماد الدين الحصار ، فطلبوا منه الأمان وسلّموه الحِصْن ونَجوْا بأنفسهم ، وكان عماد الدين يتابع

فتوحه خلال الحصار ، فاستردّ منهم المعرّة وكفر طاب وغيرهما[1] .

وأشاد الشعراء بهذا الفتح في كثير من قصائدهم ، منها قصيدة ابن القيسراني :

حَذارِ منّا وأنّى ينفع الحذَرُ	وهي الصّوارمُ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ[2]
وأين ينجو ملوكُ الشّرك من ملكٍ	من خَيْلِهِ النصر لا بل جُنْدُه القدَرُ
سلّوا سيوفاً كأغمادِ السيوف بها	صالوا فما أغمدوا نصلاً ولا شَهَرُوا[3]
حتى إذا ما عمادُ الدين أرهقهم	في مأزقٍ من سناه يبرق البَصَرُ[4]
ولّوْا تضيقُ بهم ذرعاً مسالكُهمْ	والموتُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ[5]
وأصبحَ الدِّيْنُ لا عيناً ولا أثَراً	يخاف ، والكفرُ لا عينٌ ولا أثَرُ[6]
فلا تخفْ بعدها الإفرنجَ قاطبةً	فالقوم إنْ نفَرُوا ألوَى بهم نَفَرُ[7]
إنْ قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبُوا	أو طاردوا طُردوا أو حاصروا حُصِرُوا
وطالما استفحلَ الخطب البَهيمُ بهمْ	حتّى أتى مَلِكٌ آراؤُه غُرَرُ[8]
والسيفُ مُفْترِعٌ أبكارَ أنفسهمْ	ومن هنالك قيلَ الصّارمُ الذَّكَرُ

(١) انظر تفاصيل ذلك في : أدب الحروب الصليبية لعبد اللطيف حمزة ، و الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي لسيد كيلاني ، وصدى الحروب الصليبية في شعر ابن القيسراني للدكتور محمود إبراهيم ، ومفرّج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ، وكتاب الروضتين لأبي شامة ، وأدب الدول المتتابعة لنعيم الحمصي ...

(٢) الصوارم : السيوف البتّارة .

(٣) سيوفهم كأجفانها فلم يغلبوا المسلمين بها ، و لم يدافعوا بها عن أنفسهم .

(٤) سناه : نوره ، يبرق البصر : يموت الصليبيون فتشخص أبصارهم .

(٥) وزر : منجى .

(٦) أصبح المسلمون لا يخافون الأوربيّين ، و لم يعد الأوربيّون يشكّلون شيئاً .

(٧) إن نهض الإفرنج للقتال ردّهم مجموعة قليلة من المجاهدين فقط .

(٨) غرر : ناصعة واضحة .

فتح الرّها

حدَث في أعقاب فتح بارين أنْ تَسلّم الخلافةَ في بغداد المقتفي با لله ، فأرسل عمادُ الدين قاضيه كمال الدين الشهرزوريّ ليبايعه .

وخشي الفرنجةُ من مغبّة معركة بارين ، وتداعَوْا ، وهبَّ لمساعدتهم سنة ٥٣٢هـ ملك الدولة البيزنطيّة ، وفتح ما أمامه حتى وصل إلى حماة ، فصمدتْ أمامه ، فتحوّل إلى حصن شيزر على مسافة قريبة منها ، فاستنجد صاحبها بعماد الدين الذي هبّ لنجدته ، وقد اجتمع عليه الروم البيزنطيّون والفرنجة الأوربيون ، فاستطاع عماد أن يقهرهم بعد حصار دام أربعة وعشرين يوماً استُعملت فيه كلّ أنواع الأسلحة المعروفة حينئذ ، وأَسَرَ كثيرين منهم .

حاصر عماد الدين بعد هذا النّصر دمشق سعياً وراء توحيد البلاد ضدَّ الأعداء ، ولكنّ ملكها مجير الدين آبق بن محمد ، ووزيره معين الدّين أنر راسلا الفرنجة مستعينَيْن بهم عليه ، ومما ذكراه في مراسلتهما : إنْ مَلَكَ (عماد الدين) دمشق ، فسوف يملك بعدها بيت المقدس ، ولا يترك للصليبيّين بلداً بالسّاحل .

فهبّ الفرنجة جميعاً لنجدة ملك دمشق الخائن ، ودارت الدائرة على عماد الدين ، ودخل معين الدين أنر بلدة بانياس في الجولان[1] ، وقتل عامل عماد الدين عليها ، وسلّمها للفرنجة .

---

(١) بانياس الجَولان غير بانياس السَّاحل التابعة لمحافظة طرطوس .

وأخذ جوسلين صاحب الرَّها يهدّد شمال الشـام ، ومـدّ غاراتـه إلى آمـد ورأس العين ونصيبين ، واستولى على البيرة وسروج ، ولكنّ هزيمة عمـاد الديـن في دمشقَ لم تُضْعفْ عزيمته ، وصمّم على تطهير البلاد من الفرنجـة وفتـح الرَّهـا التي يعدّها الصليبيون المدينة المقدسة الخامسة عندهم [١] ، فاستولى عليها عَنْوَةً[٢] بعد أنْ حاصرها ثمانية وعشرين يوماً ، ثم حـرر بعدهـا الجزيـرة الفراتيـة وشمـال الشام ، وكان عماد الدين في كل فتوحاتـه فـذّاً في شـهامته ونُبلـه ، وليـس أدلّ على ذلـك مـن أنّـه حيـن فتـح الرَّهـا الـتي كـانت المركـز الأوّل لتجميـع الجنـد النصارى أمر جنده بأن يردّوا إلى أهلها جميع مـن أسـروه أو سـبَوْه ، ولم يعـامل أهل المدينة المسيحيّين كما عامل الصليبيّون مسلمي القدس حين دَخلوها .

وقال ابن القيسراني مشيداً بفتح عماد الدين لمدينة الرَّها :

هو السـيفُ لا يُغْنِيـكَ إلّـا جِـلادُهُ ... وهل طوّقَ الأمـلاكَ إلّـا نجـادُهُ[٣]

وعنْ ثَغْر هذا النّصر فلتأْخذ الظُّبا ... سناها وإنْ فـاتَ العيـونَ اتّقـادُه[٤]

سَمتْ قُبّـةُ الإسـلام فخـراً بطَوْلـهِ ... ولم يكُ يسمو الدِّيْنُ لولا عمـادُهُ[٥]

---

(١) مدنهم المقدسة :القدس ، أنطاكية ، روما ، القسطنطينيّة ، الرها .

(٢) عَنْوة :بالقوة .

(٣) الأملاك : الملوك . نجاده : حمائله .

(٤) في (ثغر هذا النصر) استعارة مكنية . الظُّبا : جمع ظُبَة ، وهي حدّ السيف . سـناها : ضياؤها .

(٥) طَوْله : عظمة ذلك النصر . في كلمة (عماده) تورية ، لأن حديثه عـن قبـة الإسـلام يجعل المرء يظنّ مقصوده (العمود) ، مع أنّه يريد عماد الدين زَنْكي .

وذاد قسيمُ الدولـة ابـنُ قسـيمها	عن اللـه مـا لا يُسْـتطاعُ ذيـادُهُ[١]
لِيَهْـنِ بنـي الإيمـان أمْـنٌ ترفّعـتْ	رواسـيه عزْمـاً واطمَـأنّ مِهـادُه[٢]
وفتحٌ حديثٌ فـي السّماع ، حديثُـه	شـهيٌّ إلـى يـوم المعَـادِ مَعـادُه[٣]
لقـد كـان فـي فتـح الرُّهـاء دلالـةٌ	على غير ماعندَ العلوج اعتقادُه[٤]
مدينـةُ إفْـكٍ منـذ خمسـين حِجّـةً	يَفُـلّ حديـدَ الهنـد عنهـا جِـدادُه[٥]
وجامحـةٍ عـزّ الملـوكَ قيادُهـا	إلـى أنْ ثناهـا مَـنْ يعـزّ قيـادُهُ[٦]
فأضرَمهـا نـارَيْنِ حَرْبـاً وخُدْعـةً	فمـا راع إلّـا سـورُها وانهـدادُه[٧]
فصدّتْ صدودَ البِكرِ عند افتضاضِها	وهيهاتَ كان السيفَ حتماً سِفادُه[٨]
فـيـا ظفَـراً عـمّ البـلادَ صلاحُه	بمَنْ كان قد عمّ البلادَ فسـادُهُ[٩]

(١) القسيم : الشَّطْر ، يريد مكانته في الدولة . ذاد : دافع . وفي البيت رَدٌّ للعجُز على الصدر .

(٢) يهنئ المسلمين بفتح الرُّها . وبين الإيمان وأمن جناس ، وبين (ترفّعت رواسيه) (واطمأنّ مهادُه) مقابلة .

(٣) فتح حديث : جديد ،وبين هذه الكلمة و (حديثه) مجانسة ، وكذلك بين المَعاد ومَعاده .

(٤) العِلْج : كل جافٍ شديد من الرّجال . والحمار .

(٥) إفْك : كذب وتضليل . حِجّة : سنة . يفلّ : يعطّل ، يكسر . حداده : جمع حديد بمعنى حَادّ .

(٦) جامحة : متمرّدة ، يريد الرُّها . وقابل الشاعر بينها وبين (ثناها) ، وبين (عزّ الملوك قيادها) و (مَنْ يعزّ قياده) .

(٧) شبّه الحرب بالنار ، والخدعة بالنار أيضاً .

(٨) سَفَد الذكر علىٰ الأنثى : نزا .

(٩) بمَنْ : الباء بمعنى على . وبين صلاح وفساد طباق .

فـلا منـبرٌ إلا ترنَّـح عُـوذُه ... ولا مصحفٌ إلّا أنارَ مِـدادُهُ[١]
إلى أيْنَ يا أسرى الضّلالـةِ بعده ... لقد ذلّ غاويكمْ وعزّ رشـادُه[٢]
رويدكـم لا مـانعٌ مـن مظفّـرٍ ... يعاندُ أسبابَ القضاء عِنادُه[٣]
وقلْ لملوك الكُفْرِ تُسْلِمُ بعدهـا ... ممالكَهـا ، إنّ البـلادَ بـلادُه
ولله عـزمٌ مـاءُ سـيحانَ وِردُهُ ... وروضةُ قسطنطينةٍ مُستَرادُهُ[٤]

نور الدّين يفتح حصن إنَّب

أعاد القائد المظفّر عمادُ الدين زنكي إلى المسلمين الأمل بالنصر واستعادة القدس ، واستطاع أن ينتصر في كثيرمن المواقع ، ووطّـد الأمـن ونشـر العـدل ، وقضى على الفساد ، واستطاع أيضاً أن يوحّد قسماً كبيراً مـن البـلاد ، وأثبـت للفرنجة أنّ من الممكن هزيمتهم ، بعد أن اعتقدوا أنّهم لا يُهْزمون .

وإذْ عجزوا عن مواجهته في ميدان الوغى تآمروا مـع ضعـاف الأنفـس ، وتواطؤوا مع أحد خُدّامه ، وكان غلاماً إفرنجيّـاً اسمـه "برتقـش" علـى اغتيالـه ، وكان يحاصر قلعتي جعبر وفنك ، "فأيُّ نجْم للإسلام قد أَفَل ، وأيّ ناصر للإيمان قد رحل ، وأيُّ أسد افترِس؟" .

(١) ترنّح : اختال . استعار التّرنّح للعود والإنارة للمداد .

(٢) الغاوي : الضَّالّ . عزّ : صَعُب . وفي (الضَّلالة) إضافة تحقير ، وبـين (ذلّ غـاويكم) (وعزّ رشاده) مقابلة .

(٣) رويدكم : مهلاً .

(٤) سيحان : اسم نهر .

وخلف نور الدين محمود (٥١١-٥٦٩هـ) أباه في بلاد الشام ، واستطاع أن يقضي بسرعة على عصيان قام في الرّها ، وخاف الغرب خطره ، فأرسل حملة صليبيّة ثانية سنة ٥٤٣هـ ، فنازلها نور الدين ، وهي بقيادة ملك الألمان كونراد الثالث ، وملك فرنسا لويس السابع ، ولكنّ هذه الحملة خابتْ .

ثم سار نور الدّين إلى حصن حارم ، وكان بيد الفرنجة ، ثم سار إلى حصن إنّب ، وانتصر عليهم في موقعة هائلة انتهت بقتل البرنس صاحب أنطاكية سنة ٥٤٤هـ ، وحملَ رأسَه إلى حلب قصَبةِ مُلْكه ، وقد أكثر الشعراء من مدحه وتهنئته بهذا الفتح ، ومنهم ابن القيسَراني في قصيدته التي عارض فيها بائية أبي تمّام :

هذي العَزائمُ لاما تدّعي القضُبُ　　　وذي المكارمُ لا ما قالت الكتُبُ

والبيت مدح رائع لانتصار نور الدين وفتحه لحصن إنّب ، وهو مطلع ذو تصريع بين القضب والكتب ، وفي ادّعاء القضب وقول الكتب استعارتان ، شخّص فيهما شيئين من الجَمادات ، والمطلع يذكّرنا بمطلع أبي تمّام :

السيف أصدق أنباء من الكتبِ　　　في حدّه الحَدُّ بين الجدِّ واللّعِبِ

ويتابع مدحه لأعمال نور الدين :

وهذه الهممُ اللاتي متى خطَبتْ　　　تعثَّرتْ خلفَها الأشعار والخُطَبُ

وهو يستعير الخطابة للهمم ، والتعثّر للأشعار والخطب . وألفاظه جزلة فخمة ضخمة ، يكاد اللسان يحسّ بالثقل وهو يلفظ بعض العبارات مثل "أقضى اتّساعاً" في قوله :

لله عزمُك ما أمضَى وهمُّك ما　　　أقضَى اتّساعاً بما ضاقت به الحِقَبُ

وفي (أمضى) و (أقضى) ترصيع .

ثم يتحدّث عن المعركة :

أغرتْ سيوفَك بالإفرنج راجفةً فؤادُ روميّةَ الكبرى لها يَجِبُ[1]
ضربْتَ كبشَهم منها بقاصمةٍ أودى بهاالصّلْب وانحطّت بهاالصُّلُبُ[2]
غضبْتَ للدّين حتى لم يَفُتْكَ رضا وكان دين الهدى مرضاتُه الغضَبُ[3]
طهّرتَ أرضَ الأعادي من دمائهم طهارةً كلُّ سيفٍ عندَها جُنُبُ[4]
حتى استطارَ شرارَ الزّنْد قادحُه فالحرب تُضْرَم والآجال تُحتَطَبُ
وللظُّبا ظفرٌ حلوٌ مذاقتُهُ كأنّما الضَّربُ فيما بينهم ضرَبُ[5]

ثم يعود إلى مدح نور لدين :

مَنْ كان يغزو بلاد الروم مكتسباً من الملوك فنور الدين مُحتَسِبُ
أفعالُهُ كاسْمِهِ في كلّ حادثةٍ ووجُهه نائب عن وصفه اللّقَبُ[6]

---

(١) الراجفة : المعركة .

(٢) كبشهم : زعيمهم (استعارة) . وشخّص الصَّلْب فهو يُوْدي أي يهلك . وكنى بقوله (انحطّت بها الصلب) عن خسارة الأعداء .

(٣) ردّ عجز البيت (الغضب) على صدره (غضبت) وقابل بين الشطرين .

(٤) من دمائهم : بدمائهم . كل سيف من سيوف جنودك اصطبغ بدم الأعداء . وقال أبو تمام :

تصرّحَ الدهرُ تصريحَ الغمام لها عن يوم هيجاءَ منها طاهرٍ جنُبِ

(٥) الظّبا : السيوف . الضَّرَب : العسل .

(٦) اسمه محمود ، ولقبه نور الدين .

عمّتْ فتوحُك بالعَدْوى معاقلَها ... كأنّ تسليم هذا عند ذا جرَبُ

فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لجَبٍ ... يوليكَ أقصى المنى فالقدسُ مرتَقِبُ

وأْذَنْ لموجكَ في تطهير ساحلهِ ... فإنّما أنتَ بَحْرٌ لُجُّه لَجِبُ[1]

يا مَنْ أعادَ ثغورَ الشّام ضاحكةً ... من الظُّبا عن ثغورٍ زانها الشَّنبُ[2]

ما زلْتَ تُلحِقُ عاصيها بطائعها ... حتى أقمْتَ وأنطاكيّةٌ حلَبُ

فاسعدْ بما نِلْتَه من كلّ صالحةٍ ... يأوي إلى جنّةِ المأوى لها حَسَبُ

والقصيدة كما أسلفْتُ تعارض بائية أبي تمّام الطّائي ، ويمكن عقد مقارنة بين كثير من أبيات القصيدتين ، ولم يبدأها ابن القيسراني بمقدّمة طللية ولا غزلية ، واستمدّ قيمه في المديح من المعاني الدّينية ، وألفاظه سهلة ، لكنّها قوية ، واضحة ، مناسبة للموضوع ، ذات دلالة على ثقافة حسَنة لدى الشاعر .

---

(١) لجّه : أعماقه . لجب : عميق القرار ، ضخم المياه .

(٢) الشَّنَبُ : الرّضاب ، الرّيق .

خـــاتـــمـــة

استطاع ابـن القيسـراني أنْ يصـوّر جهـاد نـور الدين ضـد الصليبيّـين ، وحرصه البالغ على توحيد البلاد مـن أجـل هـذه الغاية ، لكـنّ ابـن القيسـراني تورّط في مهاجاة ابن منيرٍ الطرابلسي ، وكان مقرّباً أيضاً عند الزَّنْكيّين ، وكـان سليط اللسان ، فلم يشأ ابن القيسراني أن يبادله صُنعه ، واكتفى بقوله :

ابـنَ منــيرٍ هجـوتَ منّــي	خـيراً أفـاد الـورى صوابَـهْ
ولـمْ يَضيقُ بذاك صدري؟	فـإنّ لي أسـوةً بالصَّحابةْ

هذه المهاجاة شيء أوّل ، وتـورُّط ابـن القيسـراني في مـدح ملـك جعبر علي بن مالك بن سالم العقيلي ، وكان لوالده (مـالك بـن سـالم) ضلع في قتـل عماد الدين رحمه الله ، والد نور الدين : شيء ثان .

وثمة شيء ثالث هو طمع ابن القيسراني في إصلاح ذات البين بين دمشق التي كان يحكمها مجير الدين آبق بن محمد الذي ينحدر مـن أرومـة الطُّغْتكيـين ، وبين حلب التي كان يحكمها نور الدين محمود الزنكي ، ولم يُقْنطه أنـه كـان في بدء أمره قد هجا بوري بن طغتكين وفرَّ من بلاده ، ولا أنّ مجير الدين آبق كان قد تعامل مع الصليبيين ضـدّ الذيـن دعَـوْه إلى الوحـدة الإسـلامية لمجابهـة الخطـر الصليبي .

فسافر ابن القيسراني إلى دمشق ، ومدح عاهلهـا ، ومـات بعـد وصولـه إليه بأيام سنة ٥٤٨هـ . وقصائده في الزنكيين التي سُقْتُ طائفة منها ، هي أهـمّ أشعاره ، وله قصائد تسمّى الثَّغْريات تغزَّل فيها بالنصرانيات في أنطاكية ومناطق الثغور أي الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، فسمّيت الثغريات[١] .

(١) يرى بعض الدارسين أن سبب التسمية هو ما فيها من تصنّع بديعي في معنى الثَّغْر .


تاريخ شعراء العربية
العصر العباسي الثاني
ابن منير الطرابلسي
١٤
اعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى
مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مَوْلِدُه ونشأته

وُلِدَ مهذّب الدين ، أبو الحسين ، أحمد بن منير سنة ٤٧٣هـ في طرابلس الشام ، وكانت طرابلس -مثلها مثلُ سَلَمْيَةَ وتدمر ، من مراكز نشر الدعوة الإسماعيلية الفاطميّة وكان أبوه (منير بن مفلح) رقيق الحال ، فقيراً ، فكان ينشد القصائد في أسواق طرابلس .

وفي هذا الثغر الذي كان مهدّداً بالأعداء من البَرّ والبحر نشأ ابن منير ، وتعلّم القرآن الكريم ، وأحكام الفقه ، وألَمَّ بعلوم اللغة والنحو والعروض ، وقال الشعر .

الـرّفّــاء

كان أحمد بن منير الطرابلسي يلقّب بالرَّفّاء[1] ، ذلك لأنه احترف في مطلع حياته الرَّفْو وإصلاح الثياب .

مشربه وهجاؤه

قال الدكتور عمر موسى باشا : "أجمع الأقدمون[2] على أنّه كان شيعيّاً مغالياً وقالوا عنه إنّه كان رافضياً خبيث اللسان كثير الهجاء ، فخافه الناس ورهبوه[3]" .

---

(١) وهو غير الشاعر "السّرِيّ الرّفّاء" المتوفى بحدود ٣٦٠هـ ، واسمه السرِيّ بن أحمد الكندي المَوْصلي ولادته في الموصل ، وعاش مدّة في حلب ، ومات ببغداد .

(٢) وفيات الأعيان ٤٩/١ ، وتاريخ دمشق ٩٨/٢ .

(٣) أدب الدول المتتابعة الطبعة الأولى ، ٢١٢ .

مهاجرته من طرابلس إلى دمشق

حاصر الصليبيون طرابلس سبع سنوات حتى دخلوها سنة ٥٠٣هـ ، فنزح أهلها إلى داخل الشّام ، ورحل أحمد بن منير إلى دمشق ، آسفاً على طرابلس ، واتّصل في دمشق بتاج الملوك بوري بن طغتكين ، فمدحه وحظي لديه ، لكنّه استغلّ حظوته لدى بوري ، وتمكُّنهُ عندَه ، سبيلاً إلى هَجْوِ أكابر الدولة وكرام أهلها ، فأحفظهم هجاؤه المُقْذِع وشعره الفاحش ، فسَعَوْا فيه عند تاج الملوك بوري ، حتى تغيّر عليه واعتقله ، وأمر بتعذيبه ، وبقطع لسانه ، ولكنْ شفع له الحاجب يوسف بن فيروز ، فسرَّحه ملك دمشق ، شريطة أن يغادرها إلى أيّ مكان يختاره .

عودة إلى دمشق

بقي الشاعر بعيداً عن حاضرة ملك آل طغتكين حتى وفاة تاج الملوك سنة ٥٢٦هـ ، فلما وُلّي ابنه إسماعيل عاد ثانية إلى دمشق ، واستقرَّ فيها مدّة من الزمن ، لكنّ صاحبها الجديد سَرْعان ما تغيّر عليه أيضاً ، وأرسل في طلبه ، ليصلبه ، لكنّه هرب من بيته ، واختفى في مسجد الوزير أيّاماً ، فلمّا أُتيحتْ له فرصة خرج من دمشق ، واتّجه إلى الشّمال ، وصار يتنقّل بين حلب وحماة وشيزر .

عودة أخرى إلى دمشق

عاد الشاعر إلى دمشق مرّة أخرى ، لكنّه ما مكث فيها طويلاً ، وفرَّ للمرَّةِ الثالثة خوفاً من الوزير مؤيّد الدولة بن الصوفي وزير مجير الدين آبق ، ورحل إلى حكام شيزر من آل منقذ .

وحاول قائد الجيش في دمشق معين الدين أنر أن يسترجعه ، وبعث وراءه بزين الدين بن حليم كيما يقنعه بالعودة إلى دمشق ، لكنّ الشاعر لم يستجبْ إليه .

أسباب مطاردته في دمشق

-قيل إنّ إسماعيل بن بوري أراد صَلْبه بتُهْمة الزَّنْدقة ، ولكنّ الشاعر هرب كما رأينا و لم يُصْلب .

-وقيل إنّ كثيرين مقتوا تهتّكَه ومجونه ، ومصارحته بالحبّ الشاذّ لغلام له فارسي النِّجار اسمه "تترّ" ، وهو يذكره كثيراً ، لكنّ طريقة ذكره له كانت تثير أحياناً الشيعة أنفسهم من أهل مذهبه ، وأحياناً كانت تثير مشاعرَ كلّ مسلم من أهل القِبْلة ، إذا سمع قول ابن منير في معشوقه :

لا وحُبّيكَ لا عبدتُكَ سراً — ليلُ صُدْغَيْكَ صيّر اللّيْل ظُهْرا[1]

أنا من أجل خَدّه دِنْتُ للنّار — وفي خاله عبَدْتُ الشّعْرَى[2]

فضَلالِي بعد الهدى في هواهُ — هو عندي خيرٌ وأعظمُ أجْرا

أن ْيقسم امرؤٌ بحبه لمخلوق ، ويصارح بعبادته له ، وللنار ، ولنَجْم الشِّعْرى ، لا لربّ الشعرْى ، وإيثار الكفر على الإيمان ، والضَّلالة على الهداية : رندقةٌ مُبينة ، تستحقّ الصَّلْب بحسب أوامر إسماعيل بن تاج الملوك .

---

(١) جمال محبوبه كان أقوى -في زعمه- من أن يستطيع كتمان حبّه .

(٢) الشّعري : نجم عظيم في السَّماء . والخال : شامة كبيرة قد تظهر في وجوه بعض الناس أو أجسادهم .

-وسلاطة لسانه ، وخباثةُ عباراته ، واستعماله في الهجاء كلمات نابية ، وإكثاره من القدْح والطّعن والتشهير ... كلُّ ذلك ألّب عِليَةَ القوم عليه ، وهو لم يتورّعْ أن يتعرّضَ لهم بهجائه .

وذو الكرامة يأبى أن يهجوه مخلوق ، وفي حياتنا اليومية حوادث جسيمة سببها الأوّل قد يكون شتيمة أو مسّاً لكرامة أحد ، فما بالكَ إذا قال ابن منير في مهجُوِّهِ :

رغيفُــــهُ مِـــنْ ذَرَّةٍ	يصنعه أو أصغرا
مبيَّتـــاً ملفَّفـــاً	مُبَرنَقـاً مُبَيْكَــرا
لو جاز في عين الذي	يأكلُـه لمـا دَرى
أو بَلَـعَ الصـائم ألفـاً	مثلَه مـا أفْطَـرا
كأنَّمـــا خبّـــازُه	بـه تحـدّى البَشَـرا
فهـاتِ قُـلْ : أعرَضـاً	تجِدُه أمْ جَوْهـرا ؟

وكان ابن القيسراني كما ذكرت بعض الروايات قد استنكر على ابن منير سلاطة لسانه ، ولجَّ بينهما التهاجي حتى شُبّها بجرير والفرزدق ، مع أنّ المنقول عن ابن القيسراني أنه أعرَض عن منافسِه وآثر طريقة الصَّحابة رضوان الله عليهم في الترفُّع عن الدنايا ، بحسب ما ذكر في بيتين له .

-ومِمّا ذُكِرَ من أسباب مطاردته لا تشيُّعُهُ ، وإنّما غلوُّه في التّشَيُّعِ والرَّفْض ، وكان على صلة بنقيب الأشراف في بغداد ، أحياناً يذهب إليه هو نفسُه ، أو يرسَل إليه مبعوثاً خاصّاً في أحيانٍ أخرى ، كما حدث حين وافاه بهديّة مع مملوكه تتر ، فقَبِلَ نقيب الأشراف هديّته ، واستبقى عندَه المملوك ، وفي نيّته أن يعوّض ابن منير أضعاف قيمته ، لكنّ الشاعر لم يَرْضَ أن يتخلّى عن

تتر ، "وهو معشوقه الذي اشتهر في الخافقين غرامه به" كما قال ابـن حجّـة[١] .
وكتب ابن منير رسالة إلى الشريف الموسوي (نقيب الأشـراف) يهـدّده فيهـا إنْ هو لم يرسل إليه (تتر) علـى الفَـوْر بـالارتداد عـن مذهـب الشـيعة ومـوالاة بـني أميّة ، وبتصحيح خلافة العُمَرَيْن (أبي بكر وعمر) رضي ا الله عنهما ... :

إنَّ الشــريفَ الموســـويَّ – بـنَ الشـريفِ أبـــيِ مُضَـرْ
أبـدَى الجحـودَ ولـم يَـرُدَّ – إلـــيَّ مملوكـــي تـــترْ
والَيْـــــتُ آلَ أميَّـــــةَ – الطُّهْـرَ الميـامينَ الغُــرَرْ[٢]
وجحَـــدْتُ بيعـــةَ حَيْـــدرٍ ورَجِعْتُ عنـه إلــى عُمَــرْ[١]
وإذا جرَى ذِكْرُ الصَّحابـةِ – بيـــن جَمْـــعٍ واشْـــتَهَرْ
قُلْـتُ المقـدَّمُ شَــيْخُ تَيْـمٍ – ثـــم صاحبُـــه عُمَـــرْ[٢]
فـاخْشَ الإلـهَ بسُوءِ فِعْلـكَ – واحتَـــذِرْ كـــلَّ الحـــذَرْ

على أنّ مغالاته في مشْرَبِه كانت ذائعة عنه ، ومـن أجـل هـذه المغـالاة ، من جهة ، ومعاملته الجافية لأصحابه ، وسلاطة لسانه ، ومسارعته إلى الهجـاء ، من جهة أخرى ، قلاه كثير من أصدقائه ، وكرهوا معاشرته ، وانعكس ذلك في شعره ، فهو يتحدّث عن تقلب الأصدقاء في أكثر من موضع .

---

(١) خزانة الأدب ١٤٦ .

(٢) الميامين : أصحاب الحظوظ الموفّقة .الغرر : المشرقو الوجوه .

(٣) حيدر سيدّنا علي رضي ا الله عنه .

(٤) شيخ تيم : أبو بكر رضي ا الله عنه .

تغيُّرُ أصدقائه

ليتَ يوماً وُلِدْتُ فيه لم يَأْتِ ، فكم ألقى من أهل زماني من معاملة قاسية ، ومواقفَ مُرَّة ، ومِمَّنْ ؟ من أناس كنتُ أنا اصطفيتُهم ، ألا إنني الآن لأتمّنى صديقاً واحداً مُخْلصاً لي ، إذاً لقدّمْتُ له روحي ثمناً . لكنّني لم أجد حتى اضطُررت أن أعاشرَ من لا أرتاح إليهم وأنا مضطرّ اضطراراً ، لئلا أعيش وحدي :

عدمْتُ دهراً ولدت فيه	**كم أشرتُ المرّ من بنيه**
ما تعتريني الهمومُ إلّا	**مِنْ صاحبٍ كنتُ أصطفيهِ**
فهل صديقٌ يُباعُ حتّى	**بمُهْجتي كنتُ أشتريه**
يكونُ في قلبِه مثالٌ	**يُشْبه ما صاغَ ليَ فيهِ[1]**
وكم صديقٍ رغِبْت عنه	**قد عشت حتى رغبت فيه**

إنّني قد فقدْتُ كلّ الأصدقاء حقيقة ، وما كنتُ أنا القاطع لحبال المودّة ، وتجرّعْتُ غُصَصَ الوحشة ، فتوسّلْتُ لاتّقائها بالارتحال ، ولست أوّل من غادر محلّته لإزعاج أهلها له ، بل كل مَنْ يشعر في موطن بأنه مُهمَل خامل فأولى به أن يرتحل عنه وما مثله في ذلك إلّا كمثل القمر ، إذا أصابه السِّرار في آخر الشّهر تحوّل عن مكانه فإذا هو عمّا قليل بدرٌ منير .

لقد ساءت أحوالي ، وضاقتْ علي وعلى ركابي المعيشة فعلام لاأضرب في الفيافي ؟ الفِراقَ الفِراقَ ؛ إنَّ السيف يبقى في قِرابه خاملاً حتى يُخرج منه ، وأجدرُ بك أن تهجر كل مايؤذيك ، فتبقى لك عند القوم ذكريات طيبة ، وعندئذ لاتسقي أحداً منهم العسل ويسقيك المرّ والعلقم ، وماذاك

---

(١)يتمنى لو يحظى بصديق تخلص القلب له كإخلاص قلب الشّاعر لذلك الصديق .

إلّا لفساد طويّته ، وعدم إخلاصه في صداقته ، وتفسيره لحرصك على صداقته بأنّ لك من ورائها مآرب ما .

ولقد بلوْتُ هذا الزمان وأهله ، فما وجدت الناس إلا نَقَصَةً جُبلُوا على اللؤم والخِسَّةِ ، إنْ سمعوك تقول شيئاً ارتابوا في بُغيتك ، وظنّوا بكَ الظّنون ، وإن وجدوك صامتاً تُؤْثِرُ السَّلامة وتريد العافية أنطقوك بَمَيْنهم ، وافتَروا عليك أقوالاً ، وأنت ساكت لم تنبسْ ببنت شفة !

فهل علموا أيَّ شخص يكيدون .؟ إنّني إنْ سُمْتُ ذُلّاً (أو عُرِضتْ عليَّ الدنيا) طمحتْ بي نفسي إلى المعالي ، وأَبَيْتُ الذّلّ مُفيداً من سعة تجاربي في الخطوب والمحن ، والسَّرّاء والضّرّاء ، والأقوال والأعمال :

أخلَى فصَدَّ عن الحميم ومااختلى	**ورأى الحمامَ يغصُّهُ فتوسَّلا[١]**
ما كان واديه بأوّل مَرْتَعٍ	**ذعَرتْ طَلاوتُه طَلاه فأجفلا[٢]**
وإذا الكريم رأى الخمولَ نزيلَه	**في منزلٍ فالحزْمُ أنْ يترحَلا**
كالبدر لمّا أن تضاءَل نُورُهُ	**طَلَبَ الكمالَ فحازَه متنقّلا**
ساهمْتَ عِيسَك مُرَّعَيْشِكَ قاعداً	**أفلا فَلَيْتَ بهنَ ناصيةَ الفَلا[٣]**
فارق تَرُقْ كالسيف سُلَّ فبان في	**متنَيْه ما أخفى القِرابَ وأخْمَلا[٤]**
لا تَرْضَ مِنْ دنياك ما أدناك مِنْ	**دنَسٍ ، وكنْ طَيْفاً حَلا ثم انْجلى[٥]**

(١) أخلى : تفرّج . اختلى : قطع .الحِمام : الموت .

(٢) الطّلاوة : الحسن والرّونق ، والكلأ القليل . طلاه : ظبْيه .

(٣) ساهمت : شاركْتَ ، تقارعت بسَهْم . العيس : النوق . فَلَى : قطع .

(٤) القِراب : غمْد السيف ، جَفْنه .

(٥) الطّيْف : ما يراه النّائم .

وصِل الهجيرَ بهَجْرِ قومٍ كلّما ... أمْطَرتَهمْ عَسَلاً جَنَوْا لكَ حنْظَلا[1]

مِنْ غادِرٍ خَبُثَتْ مغارسُ وُدِّهِ ... فإذا مَحضْتَ له الولاءَ تأوّلا[2]

لله علمي بالزّمانِ وأهلِهِ ... ذنبُ الفضيلةِ عندهم أن تكمُلا

طُبِعُوا على لُؤْمِ الطِّباع فخيرُهمْ ... إنْ قُلْتُ قالَ ، وإنْ سَكَتُّ تقوّلا[3]

أنا مَنْ إذا ما الدّهرُ همَّ بخفضِه ... سامتْه همّتُهُ السِّماكَ الأَعزلا[4]

واعٍ خطابَ الخَطْب وهو مُجَمْجِمٌ ... راعٍ أكلَّ العيسَ من عدَمِ الكَلا[5]

زعْمٌ كمُنْبلِجِ الصّباحِ وراءَه ... عَزْمٌ كحدِّ السّيف صادقُ مَقْتَلا[6]

التَّقِيَّة

تَطَرُّفُ الشاعر في مشربه ، ومغالاته فيه ، أورثاه نقمة مَنْ حوله ، وتجافيهم عنه ، وازورارَهم عن صحبته ، فأراد أنْ يتملّص من الصِّبْغة التي علقتْ به ، ليكون على وفاق مع البيئة التي يعيش فيها .

وبدا هذا التملُّص في أمرين : رسالته إلى الشيخ تقي الدين أمين الملك سلامة بن يحيى البققي ، أبي الخير ، كبير شيوخ حماة في عصره . وفي علاقته

---

(١) حنظل : نبات مرّ .

(٢) محضْت : أخلصْتَ .

(٣) قال : ظنّ ، شكَّ . تقوَّل : افترى .

(٤) الخَفْض : سعة العيش ، والمطمئنّ من الأرض . السِّماك : السماء .

(٥) الخطب : النائبة ، المصيبة . مُجَمْجِم : مُغَمْغِم .

(٦) إذا ادّعى شيئاً كان تحقيقه كفلق الصبح ، وهو يؤيّد ادّعاءه بعزيمة وطيدة ماضية تشبه حدّ السيف .

التي نمّاها مع الزنكيّين . وهو في الأمرين بقي على معتقده ، لكنّه مارسه على نحو لا يصطدم فيه بالوسط من حوله ، ولا يغالي في مذهبه . وقد نجحت هذه الطريقة التي سلكها .

رسالته إلى أبي الخير سلامة بن يحيى

قُلْ لابْنِ يحيى مَقالَ غيرِ غَوِي — اشْهدْ من الآن أنني حموي
لا رافضيَ غَثٌ أقيم على الشيخَين — سُوق البهتان ، بل أموِي
لم أنتفع مُذْ أقمْتُ في حلب — طرفة عين بأنني علوي
وأنّ قلبي جَوٍ لأيّام صِفّينَ — ودائي من كربلاءَ دوِي[1]
يصنَعُ بي كهلُها ويافعُها — ما يصنع الحنبليُّ بالثنوي[2]
كأنّما عاينوا معاويةً — يلوح من نَقْش فَصِّي الغرَوي[3]
لا أدبٌ عاطفٌ على أدبي — بل كلٌّ وَجْه دنوتُ منه زَوِ[4]
فالرزق لا مُصقَبٌ ولا أَمَمٌ — حتى كأنّي خُلِقتُ غيرَ سَوِ[5]

مع الزّنكيّين

أيقن ابن منير أن النظرة البعيدة أولى له ، وأنفع ، إذْ كانَ واقع المسلمين في صراع دامٍ مع الصليبيّين ، فعلام لا يسخّر أدبه من أجل المعركة ، ويشيد بانتصارات المسلمين على المعتدين الغاشمين ؟ وهكذا انضوى تحت لواء السياسة الزّنكيّة .

---

(١) جَوٍ : ضيّق ، مريض . دَوٍ : مريض . (٢) الثنوي : المجوسي .
(٣) الفَصّ : ما يصاغ مع الخاتم من معدن كريم . الغروي : العجيب .
(٤) زوٍ : مُحْجم ،مُعْرِض .
(٥) مُصْقَب : مقرَّب . أمم : قريب . سو : تام الخلْقة . غير سو : عاجز .

وكان الزنكيّون أتقياء ، ينبذون التعصُّب ، ويرحّبون بأي مسلم يؤازرهم في حروبهم المقدَّسة ضدّ الصليبيّين.

عماد الدين يفتح حصن بارين

كان عماد الدين أتابكاً لألب أرسلان بن محمود السلجوقي أي وصيّا عليه ، وأولاه ذلك السلطان (محمود بن محمد بن ملكشاه) البصرة وواسطاً ، فأحسن إدارتهما ، فأراد السلطان أنْ يُعلي من مناصبه ، فأبدى عمادُ الدين رغبته في تولّي الأمصار التي كانت تشهد الحروب الصليبيّة ، فولّاه الموصل والجزيرة الفراتية والشام .

وقد وفّقه الله تعالى في استرداد جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وحران من الصليبيّين ، ثم حاصر قلعة بارين ، وخلال الحصار فتح المعرَّة وكفر طاب ، ولم ينفع الصليبيّين حملتهم الاستنجاديّة للروم والإفرنج ، فسلَّم المحاصَرُون قلعة بارين ، وقال ابن منير الطّرابلسي يصوّر انتصار المسلمين في بارين :

فدَتْكَ الملوكُ وأيّامُها ... ودام لنَقْضِك إبرامُها [1]

وزلّتْ لعيشِكَ أقدامها ... ونال لبَطْشِكَ إقدامُها

ولو لم تسلّم إليكَ القلوبُ ... هُداها لمَا صَحَّ إسلامُها

أيا مُحْيِيَ العَدْلِ لمّا نَعاهُ ... أيامى البرايا وأيتامُها[2]

---

(١) دام لنقضك إبرامها : لازِلْتَ كلّما أبرموا أمراً ضدَّ المسلمين نقضْتَه نقضاً ، وأحبطْتَ مخطّطهم .

(٢) نعاه : أخبر بموته (أعلن نبأ موته) . الأيامى : النساء اللاتي لا أزواج لهنّ .

ومستنقِذ الدِّين من أمّةٍ أزالَ المحاريبَ أصنامُها[١]

جَزرْتَ جزيرتَها بالسُّيو ف حتى تشاءمها شامُها[٢]

تحرير مدينة الرها (أورفا)

كانت الرّها قاعدة لتجميع أسلحة الصليبيّين وأجنادهم وعتادهم ، وكأنّ حاكمها جوسلين اغترّ بذلك ، فعدا على شماليّ الشّام ، واستولى على عدّة مواقع ، فتصدى له عماد الدين ، ودحَره حتى فاء إلى الرَّها ، فحاصرها عماد الدين ثمانية وعشرين يوماً ثم دخلها عنْوة ، ثم حرّر بعدها الجزيرة الفراتية وشماليّ الشام .

وقال ابن منير الطرابلسي في فتح الرَّها :

وما يومُ كَلْبِ الروم إلّا أخو الذّي أزحْتَ به ما في الجَناحَيْنِ من نَبْل[٣]

أتاكَ بمثل الروم حشداً وإنّه ليفضل أضعافاً كثيراً عن الرَّمْل[٤]

---

(١) أنقذ عماد الذين الإسلامَ من أهل الصليب عبدة الأصنام الذين هدموا المساجد ومحاريبها . المحراب المصلّى . (٢) جزَر : قطع .

(٣) النّبْل : النّبال ، يريد الأسلحة . يشبّه انتصار عماد الدين على جوسلين بانتصار الرشيد على نقفور الذي سمّاه الرشيد "كلب الروم" . والجناحان : ميمنة الجيش وميسرته . وذكر النّبْل وأراد النّبّالة ، وهو مجاز علاقته الآليّة .

(٤) الروم : الرُّومان البيزنطيون ، وكان نقفور قد صار إمبراطوراً لهم فكتب إلى الرشيد ليوافيه بكل ما بعثتْ به إليه الملكة البيزنطيّة قبله ، فتوعّده الرشيد ، ولقبه بكلب الروم ، ثم قاتله ودحَره . يقول ابن منير : إن جوسلين أتى بأضعاف هؤلاء ، بل بأضعاف عدد الرَّمْل .

فقاتَلْتَـهُ باللــه ثــم بعزمــةٍ ... تَصُكُّ قلـوب العاشِـقينَ بمـا يُسْـلِي[1]

توهَّمَ أنَّ الشامَ تَرْعى وما درى ... بأنَّكَ أمضى منه في الشَّزْرِ والسَّحْلِ[2]

فطـارَ وخـيرُ المغنَمَيْـن مـاؤه ... إذا رُدَّ عنــه مَغْنَـمُ المــال والأَهْـلِ[3]

ومدح ابن منير قائدَ الفتـح عمـاد الديـن بقصيـدة ثانيـة قـارن فيهـا هـذا الانتصار بانتصار المعتصم يوم عموريّة ومطلعُها .

صفاتُ مَجْدِكَ لفظٌ جلّ معناهُ ... فلا استردَّ الّذي أعطاكَهُ اللهُ[4]

ومدحه بقصيدة ثالثـة أخـرى ، جنـح فيهـا إلى الجنـاس فاستـكثر منـه ، وسخّره للعبث بأسماء زعماء الفرنجة ، وأوّلها :

بعمادِ الدين أضْحَتْ عُرْوَةُ الدِّيـن ... معصوباً بهـا الفتــحُ المُبِينْ

مدحه لنور الدين

خَلَفَ نورُ الدّين محمود أباه حين استُشهد ، وكانت الرُّهـا قـد حـاولت التمرّد عليه ، فجابههم نور الدين ، وقضى على عصيانهم ، فمدَحه بقصيدته :

مَلِكٌ ما أذَلَّ بالفَتْحِ أرْضاً ... قــطُّ إلّا أعــزَّه إغـلاقُــهُ[4]

ويصاول نور الديـن صـاحب أنطاكيـة البرنس ، ويتمكّـن منـه ، فيغلّـق رأسه قرب جسر الحديد في حلب ، فيمدح الشاعرُ أميره بقصيدة :

---

(١) تصكّ : تعطّل ، تصدم . قاتله بعزيمة تشغل العشّاق عن معشوقاتهم .

(٢) الشّزْر : شدّة فتل الحبل . السَّحْل : عدم فتْله حين النّسج .

(٣) الذّماء : بقية الروح .

(٤) مـا أجمل عظمتَك ومـا أعظمَ مَجْدكَ ، وإنّي لأسأل الله عزّ وجلّ ألّـا يقطـع عنـك نعمـه التي وهبها لك .

(٥) كلّ أرض يخضعها نور الدين تبقى في منعَتِه .

أقوى الضَّلالُ وأقفرتْ عَرصاتُهُ وعلا الهُدَى وتبلّجَتْ قسَماتُهُ[1]

وله في نور الدين مدائح كثيرة أخرى ، وقد اتخذ من حاضرة ملكه (حلب) مستقرًّا له ، بعد طول تشرُّد ، وكان يقطن في درب الفاخوري عند باب الجامع الكبير (الأموي) في حلب .

والحقّ أنّ سياسة نور الدين الاستيعابيّة لكلّ مَنْ يؤثر مجابهة الصليبيّن كانت غايةً في البراعة والنّجاح ، ومَن هنا أخلص له ابن منير ، هو إخلاص جعل نور الدين يثق به ، فيوجّهه مبعوثاً خاصًّا إلى آبق بن محمد عاهل دمشق عندما حاصرَها نور الدين زنكي سنة ٥٤٧ ، فدخلها ابن منير معزَّزاً مكرَّماً يحمل رسالة أعظم ملوك المسلمين ، وكاد من قَبْلُ يُقطع لسانه ويلقى حتفه مصلوباً في دمشق نفسها .

وكان ابن منير يتمنّى أن يرى ذلك اليوم الذي يدخل فيه نور الدين دمشق ، فينقذها من حكم أسرة آل طُغْتكين التي آثرت التعامل مع الصليبيّين ، وأنشأتْ معهم حِلْفاً ضد المسلمين ، ولكنّ المرض اشتدّ عليه وهو في الجيش الزنكي المحاصر لدمشق ، فاضطرّ ابن منير أن يرجع إلى حلب ، ومات فيها سنة ٥٤٨هـ ، فدفن في جبل الجَوْشن (بجوار جبل الأنصاري) ، قرب المشهد .

(١) أقوى : خوى واضمحلّ . عرصاته : ساحاته . تبلّجت قسماته : أشرقت ملامحه .

خاتمة

يُكثر ابن منير الطرابلسي من ألوان الزخارف البديعيّة في شعره ، وبخاصّة الجناس والطباق ، وهو يفتخرُ بشاعريته إذ يقول في رسالته إلى الشريف الموسوي :

وإليكَها بدويَّةً	**رقَّتْ لرقّتها الحضَر[1]**
شاميَّةً لو شَامَها	**قسّ الفصاحة لافتخر[2]**
ودرَى وأيقَن أنّني	**بحر وألفاظي دُرَر[1]**
وبديعتي كبديعةٍ	**عذراء ترفل بالحِبَر[2]**
حبَّرْتُها فغدتْ كزَهْرِ	**الروض باكرَه المطَر[3]**

---

(١) إليكها : خذها .

(٢) شامها : نظر إليها . قيس بن ساعدة الإيادي من فصحاء الجاهلية .

(٣) درر : جواهر .

(٤) بديعة : امرأة حسناء . الحبر : جمع حبرة ، وهي ثوب فاخر .

(٥) حبّرْتها : زيّنتها .



إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مراحل حياته

وُلِدَ أبو المظفَّر ، مؤيِّدُ الدولة ، أسامةُ بن مرشد بن علي بن منقذ سنةَ ٤٨٨هـ . وكان والدُه قد تزهَّدَ وتخلَّى عن الإمارة لأخيه أبي العساكر " سلطان " ، وعكفَ في ليله على نَسْخ القرآن وتلاوته ، وفي نهاره على الصَّيْد ، وهو رياضته المفضَّلة .

نشأ أسامة في أسرة توارث أهلها الأدب والشعر والمجد ، وتلقّفَ علوم الدين واللغة عن كبار العلماء في شيزر من أهلها أنفسهم أو الطارئين عليها ، منهم أبو عبد الله الطليطلي .

وحفظ أسامة أشعاراً كثيرة ، وحفظ من شعر الجاهلية فقط عشرة آلاف بيت .

وتدرّب على الفروسية ، وظهرت بوادرُ شجاعته منذ صغره إذ قتل أفعى وحزَّ رأسها ، وهو طفل ، ولقي خلال إحدى رحلات صيده أسداً فصارعه وقتله .

وهذه النشأة العلمية الأدبية البطولية كانت تؤهّله ليرث الحُكم بعد عمه " سلطان " ، لأنّ أباه لو بقي في الحكم لآلَ ذلك الحُكمُ من بعده إلى ابنه أسامة ولكن أباه تنازل عنه إلى أخيه سلطان ، وأسامة سيلي سلطاناً فيه .

بَيْدَ أنّ عمّه تغيَّر عليه ، إذ رُزق أولاداً ، فآثرهم على ابن أخيه في ولاية العهد ، فغضب أسامة وترك شيزراً ، والتحق بعماد الدين الزنكي ، ليجاهد معه الصليبيّين .

عودته إلى شيزر

تعرَّضت شيزرُ فيما بعد إلى هجوم الأعداء الفرنجة عليها ، سنة ٥٣٣هـ فنسي أسامة آلام الجرح الذي أدماه عمّه ، وعاد إلى بلدته في قوّة زحزحتْ قوّات العدوّ الغاشم ، ورجع إلى بلده مظفَّراً ، وقدّر معظم آل منقذ له هذا الصنيع الإغاثي ، فالتفّوا حوله . وكان أبوه قد مات منذ سنتين قبل عودته فشعر بضرورة بقائه بين آله ليعوّضهم ما فقدوه من عطف أبيه .

لكنّ عمّه لم يرتحْ لبقائه في شيزر ، فأمره بمغادرتها ، ورأى أسامة أنّ من الحكمة الانصياعَ لأمر عمّه ، ليتفادى وقوعَ الفتنة بين أنصاره وأنصار عمّه ، فترك بلدته ورحل ، ولكنْ رحل معه في هذه المرة أسرته وأنصاره ، ولم يتّجهوا إلى مغترب واحد ، بل تشتّتوا في كل مكان .

زلزال شيزر

ما كان هؤلاء يدرون – حين خرجوا من ديارهم – أنّ ما يكرهونه من الغرْبة هو خير لهم ، ذلك أن شيزراً قد أخذها زلزال شديد من بعدهم ، فلم يَنْجُ من أهلها أحد ، وصوّر أسامة هذا الحدث في قوله :

حيَّا ربوعَكِ من ربًى ومنازلِ ... ساري الغمام بكلِّ هامٍ هاملِ [1]

وسقَتْكِ يا دار الهوى بعد النَّوى ... وطْفاءُ تسفح بالهتُون الهاطل [2]

أبكيك أم أبكي زماني فيك أمْ ... أهليكِ أمْ شرخ الشَّباب الراحل [3]

درستْ منازلهم وأوحشَ منهمُ ... مأنوسُ أنديةٍ وعزُّ محافِلِ [4]

---

(١) ربا : جمع ربْوة ، وهي الأرض المرتفعة . ساري الغمام : السحاب الليلي . همى وهمل : هطل .

(٢) النوى : البعد . وطْفاءُ . سحابة . هتون : مطر .

(٣) شرخ الشباب : أوّله ، وعنفوانه .

(٤) محافل : مجامع ، مثلها الأندية .

واهـاً لهـم مـن عـالمٍ ومعـالمٍ ... وممنعـاتِ عقـائل ومعـاقلِ [١]
ذهبوا ذهاب الأمس ما من مُخْبِرٍ ... عنهم ، وزالوا كـالظّلال الزّائلِ
وبقيـتُ بعدَهـمُ حليـفَ كآبـةٍ ... مسـتورةٍ بتجمُّـلٍ وتحـامُلِ [٢]
سعِدُوا براحتهمْ وها أنـا بعدهم ... في شِقْوة تُضنّني وهمٍ داخلِ [٣]

قصيدة أخرى في زلزال شيزر

ما استدرجَ الموتُ قومي في هلاكهـمُ ... ولا تخرَّمَهُـمْ مثْنَـى ووُحْدانـا [٤]
ماتوا جميعاً كرَجْعِ الطَّرْف وانقرضـوا ... هل ما ترى تـاركٌ للعين إنسـاناً [٥]
لـم يتـرك المـوتُ منهم مـنْ يخـبّرني ... عنهـم فيوضـحُ مـا لا قـوْه تِبيانـا
هـذي قصورُهـمُ أمسـتْ قبورَهـمُ ... كـذاك كـانوا بهـا مـن قبـلُ سُـكّانا
وَيْـحَ الـزلازلِ أفنَـتْ معشـري فـإذا ... ذكرتُهم خِلتُني في القـوم سـكرانا
أَخْنَتْ على معشري الأدنَيْنَ فاصطَلَمتْ ... منهـم كهـولاً وشـبّاناً وولدانـا [٦]
لـم يَحْمِهـمْ حصنُهـمْ منهـا ولا رهَبـتْ ... بأسـاً تنـاذَرَهُ الأقـرانُ أزمانـاً [٧]
بنـو أبـي ، وبنـو عمـي ، دمـي دَمُهُـمْ ... وإنْ أرَوْنـي منـاواةً وشـنآنا [٨]
يُطَيِّبُ النفسَ عنهم أنهم رحلـوا ... وخلّفوني على الآثار عجلانـا [٩]

---

(١) واهاً : أتحسّر . معالم : صُوَى . ممنّعات : مصونات . عقائل : جمع عقيلة ، وهي خيار النساء والمال . معاقل : حصون .

(٢) تحامل : تماسك .   (٣) تضني : تؤلم .

(٤) تخرّمهم : أهلكهم . أبادهم الموت جُمْلةٍ واحدة ، ولم يأخذهم بالتدريج .

(٥) كرجع الطّرف : كطرفْة العين .   (٦) أخنتْ :أفسدتْ .اصطلمت :استأصلتْ.

(٧) تناذرهُ : أنذر بعضهم به بعضاً ، وخوّفهم .

(٨) مناواة : أصلها مناوأة أي مباغضة . ومثلها شنآن .

(٩) رحيلهم صرف ما في قلبه من آثار حرمان عمّه له من الملك ، فصارَ الآن يَعْـدُوْ وَراء أيّ أثر من آثارهم يذكّره بهم .

في دمشق

ذهبتْ شيزر ، ذهبَ بها الزلزال ، فأمَّ الشاعر دمشق ، حيثُ آلُ طُغْتكين ، فقرّبه معين الدين أُنر ، آمر الجيش ، ومن كبار الشخصيّات السياسيّة في دمشق آنئذ ، وصار يعتمد عليه في إدارة شؤون البلاد ، وأحبَّ الناس أسامة وحسده بعضهم لكن معين الدين كان كلّما جاءته وشاية في أسامة من أحد حسّاده صرَفها ، فقال أسامة يمدحه بذلك الصُّنْع :

مُعِينَ الدِّيْنِ كم لك طوقُ منٍّ	بجيدي مثلُ أطواق الحَمامِ
تعبَّدني لكَ الإحسانُ طوعاً	وفي الإحسان رقٌّ للكرامِ [1]
فصار إلى مودّتك انتسابي	على أنّي العظاميَّ العصامي [2]
ألمْ تعلمْ بأنّي لانتمائي	إليك رمى سواديَ كلُّ رامِ [3]
ولولا أنتَ لم يُصْحِبْ شماسي	لقسْرٍ دون إعذار الحُسَامِ [4]
ولكنْ خفتُ من نار الأعادي	عليكَ فكنت إطفاءَ الضِّرام

حدوث الوقيعة بين أسامة وأنر

القَتّاتون كالسّوس ، ينخرُ الأجسام والثمار حتى يفسدها ، فقد أنغلوا في الأخير قلب أنر على أسامة ، فجرى التجافي بينهما ، وشيء آخر أكبر ، هو أنّ سياسة أنر وصاحب دمشق قد نخرها السوس أيضاً ، فانحدرتْ إلى مستوى

---

(١) تعبّدني : جعلني لك عبداً .

(٢) العظامي : الذي يفتخر بآبائه وأجداده . والعصامي : الذي يعتمد على نفسه . يقول إن له نسباً مشرّفاً ، وهو في الوقت نفسه نبيل شريف .

(٣) سوادي : جسمي .

(٤) شماس : عناد . يُصْحب : يجعله ينقاد .

هابط مغرق في الخيانة لله ورسوله والذين آمنوا ، ذلك أنّ حكام دمشق من آل طغتكين لم يستجيبوا لنداء عماد الدين الزنكي في إقامة وحدة معه لمجابهة الخطر الصليبي ، فأراد إكراههم على تلك الوحدة بالقوّة ، فحاصر دمشق ، فإذا بمجير الدين آبق ، حاكم دمشق ، ومعين الدين أنر ، نائبه العامّ ، يراسلان الصليبيّين ، ويحرّضانهم على إنجادهما ، قائلَيْنِ في رسائلهما للصليبيّين : إنْ مَلَكَ عماد الدين دمشق فإنه سيملك من بعدها بيتَ المقدس ويحرّر السَّاحل كلّه .

من أجل ذلك لبّى الفرنجةُ دعوةَ آبق وأنر ، وهبّوا لنجدتهما ، ودارت الدائرة على عماد الدّين . ودخل معين الدين أنر بانياس وقتل عامل عماد الدين عليها ، وسلّمها للفرنجة ، وخان بذلك دينه وبلاده من أجل عَرَضٍ من الدينا ، وهو بقاؤه في منصبه ، مع أنه لو كان استجاب لعماد الدين ، فإنّه من المؤكد كان سيجعله في منصب مرموق .

وقال أسامة بن منقذ يشير إلى خطأَيْ أنر ، وهما استجابته لمنافسي ابن منقذ ، وتحالفه مع الصليبيّين :

بلِّغْ أميري مُعينَ الدينِ مألكةً ... من نازح الدَّار لكنْ ودُّه أمَم [1]

هل في القضيّة يا مَنْ فضلُ دولته ... وعَدْلُ سيرته بين الورى عَلَمُ

تضيعُ واجب حقّي بعدما شَهِدَتْ ... به النَّصيحةُ والإخلاصُ والخدَمُ [2]

وما ظننتكَ تنسَى حقَ معرفتي ... إنَّ المعارف في أهل النُّهى ذمَمُ [3]

ولا اعتقدتُ الذي بيني وبينك من ... ودّ وإن أجلب الأعداءُ ينصرمُ [4]

---

(١) مألكة : رسالة . أَمَم : قريب .

(٢) الخِدَم : جمع خِدْمة .

(٣) الدمّة : العهد .

(٤) ينصرم : ينقطع .

لكنْ ثقاتَك ما زالوا بغشّهم حتى استوتْ عندك الأنوارُ والظُّلَمُ
والله ما نصحوا لما استشرتهمُ وكلُّهم ذو هوىً في الرأي متّهم
كم حرّفوا من مقالٍ في سفارتِهم وكم سعَوْا بفسادٍ ضلَّ سَعْيهمُ
هبْنا جنيْنا ذنوباً لا يكفِّرها عُذْرٌ فماذا جنى الأطفالُ والحرمَ [1]
ألقيتَهم في يد الإفرنج متّبعاً رضا عداً يُسْخط الرحمنَ فِعْلُهُمُ
هل فيهمُ رجلٌ يُغْني غناتي إذا جلا الحوادث حدُّ السيف والقلمُ
ولستُ آسى على التَّرْحال من بلدٍ شُهْبُ البُزَاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ [2]

الرحلة إلى مصر

غادر أسامة بن منقذ دمشق متوجهاً إلى القاهرة ، وفي صحبته والدته وزوجته وأخوه محمد ، فأكرم الفاطميّون وفادته ، وحباه الحافظ لدين الله إقطاعاً سنيّاً ، فعاش فترة من حياته اتّسمتْ بالهدوء ، والابتعاد عن السياسة ، ولكنها لم تكن مستمرَّة ، وهو يشبّهها بمنامٍ سعيد كان يَنْعَمُ به ، ثم أفاق منه فجأة على واقعه المرّ :

نِلْتُ في مصر كلَّ ما يرتجي الآمل – من رفعةٍ مال وجاهِ
فاستردّتْ ما خوّلتْني ، وما أسرع – نقضَ الأمورِ عند التَّناهي [3]
كنتُ فيها كأنّني في مَنامِ زال منه ما سَرَّ عند انتباهي

مات الحافظ لدين الله ، وأعقبه الظَّافر بالله ، وسرعان ما نشبت فتنة كبيرة في القصر انتهت بمقتل الظافر ، وينتقم طلائع بن رزيك من قاتل الظَّافر ، وهو وزيره عباس الصنهاجي ، فيقضي عليه طلائع .

---

(١) الحرَم : النساء .

(٢) الشُّهْبة : لون بين الأسود والأبيض ، والبزاة الشهب : من أقوى أنواع العُقْبان . الرَّخم : طيور ضعيفة .

(٣) خوّل : أعطى .

هنالك يأسى الشاعر ويحسّ بوطأة الغربة ، ويُعْرب عن نفوره لا من مصر نفسها ، ولا من أهلها ، وإنّما في الحقيقة من الحُكْم المضطرب فيها ، يقول :

يامصْرُ مادُرْتِ في وهْمي ولاخلَدي	**ولا أجَالتْكِ خَلْواتي بأفكاري [(1)]**
ما أنتِ أوّلَ أرضٍ مسَّ تربتَها	**جسمي ولافيكِ أوطاني وأوطاري [(2)]**
لكنْ إذا حُمَّتِ الأقدارُ كان لها	**قوىً تؤلّفُ بين الماءِ والنّارِ**

ويقول :

خمسون من عمري مضتْ لم أتّعِظْ	**فيها كأنّي كنتُ عنها غائبا**
وأتتْ عليَّ بمصرَ عشرٌ بعدها	**كانتْ عظاتٍ كلُّها وتجاربا**
شاهدتُ من لَعبِ الزّمانِ بأهله	**وتقلُّب الدنيا الرَّقُوبِ عجائبا**

وتحدّث ابن منقذ في كتابه " الاعتبار " عن أطراف من تلك الفوضى التي تفشَّت في قصْر الحكومة الفاطميّ . وهي فوضى جعلته يغادر القاهرة ، فعاد إلى دمشق ، ولكنّ عودته كانتْ كالفرار من مصر ، إذ نراه ينجو بنفسه مخلّفاً أسرته وكتبه ، وراسله الوزير طلائع بن رزّيك كيما يعود ، ووعده بأن يُقْطعه أسوان ، ويُسْند إليه ثغر الحبشة ، فأبى أسامة ، وطلب من طلائع أن يبعث إليه بأهله وبمكتبته ، ففعل ، لكنّ السفينة التي أقلّتهم وقعت في يد الصليبيين في عكا ، فأخذوا ما فيها من أموال ، وكان مما أخذوه مكتبته الخاصّة ، وكانت تحتوي أربعة آلاف مجلّد ، ولا شكّ أنها خسارة كبيرة ،

---

(١) خلدي : بالي ، عقلي .

(٢) أوطار : حاجات .

لنقّدرْ بحسب قيمة الكتب في عهدنا : كم ثمن أربعة آلاف مجلد ؟ والعلماء يربّون مكتباتهم تربية ، فلها في نفوسهم مكانة خاصّة ، إذ هي لديهم أفضل ما يكنزون ، وقد شكا حالته بعد هذه النكبة إلى طلائع بن رزّيك في قوله :

يا أخا البيد والسُّرَى وأخي البَرَّ - إذا عقّني أخ ونَسِيبُ
أنا أشكو إليك دهراً لحا عو دي وأعراه ، فهو يبس سليبُ

مع نور الدين في دمشق

مازال نور الدين زنكي على إصراره في توحيد البلاد لمجابهة الغزو الصليبي حتى استطاع أن يقضي على الحكومة الانفصاليّة لآل طغتكين في دمشق سنة ٥٤٩ هـ ، تلك الحكومة التي كانت قد آثرت التعامل مع الصليبيين ضدّ المسلمين .

وكانت عودة أسامة إلى دمشق في هذه السنة نفسها ٥٤٩ هـ .

فكيف كانت معاملة نور الدين لأسامة ؟

كان نور الدين وَرِعاً محفوظ القلب مهديَّ الُّلبّ ، ففتح سجلّ تاريخ أسامة ، فإذا فيه الصحيح والخاطئ .

كان أسامةُ من أعوان عماد الدين زنكي لفترةٍ من الزمن . ومالأبعد ذلك أعداء عماد لدين ، أي مجير الدين آبق ووزيره معين الدين أنر ، وصحيح أنه تركهما وذهب إلى مصر حين تعاملا مع الصليبيين ، لكنّ تركه بسبب وشايات منافسيه ، لذلك رحل وهو يردّد ذكريات المودّة لأنر ، كما في مطلع قصيدته التي تعدّ أقوى قصيدة انتقادية لحكام دمشق آنئذ :

بلّغْ أميري مُعينَ الدين مألكةً من نازح الدار لكنْ ودُّه أمَمُ

إذاً ما يزال يحمل مودّة لهم بعد رحيله !

والآن عاد ، فأين كان ؟ كان تحت كنف الفاطميّين ، وإكرامهم ، وها هي ذي الرسائل ما تزال تتبادل بينه وبين وزيرهم طلائع بن رزّيك ، وهناك أسرار غامضة ، إذ تشير بعض المصادر القديمة إلى أن لأسامة بن منقذ ضلعاً في مقتل الظافر . ورأينا أن طلائع انتقم له من الوزير عباس الذي أطاح به . فهل المراسلات بينه وبين أسامة تتّسم بالإخلاص ؟ وهل انتقام طلائع للظافر لا تشوبه أهداف في نفسه أُخْرى ؟

لم تغب هذه الأمور عن نور الدين .

وكان نور الدين تقيّاً ، على طريقة الصحابة رضوان الله عليهم ، وعلى طريقة عمر بن عبد العزيز ﷺ ، لا يسخو بالمال على الشعراء ليمدحوه ، فهو يجاهد في سبيل الله ، فما له وللتزلّف إليه أو إطرائه ؟

من أجل ذلك كلّه لم يَرْتحْ أسامة تماماً ، لأنّه لم يأخذ حَجْماً كبيراً عند نور الدين ، فلم يستوزره ولم يستَنبْه [1] لكنّه لم يحرمْه من أن يشترك في أعمال الجهاد ، وتداول شؤون المسلمين .

ومن الأعمال الجهادية التي شارك فيها أسامة – مع أنّه كان كَبيرَ السنّ – ركوبه في جيش نور الدّين لمحاصرة قلعة حارم .

ومن الأمور التي اشترك فيها مما يتعلّق بتداول شؤون المسلمين مراسلته لطلائع بن رزّيك باسم صلاح الدين .

---

(١) لم يَستَنبْه : لم يجعله نائبه .

بين أسامة وطلائع [1]

كان طلائع من أفضل وزراء الفاطميّين في مواجهة الصليبيّين ، وكأنّه أراد أنْ يعوّض التقصير الذي بدا من حكام مصر في تلك الآونة ضدَّ الأطماع الإفرنجية ، ولا سيّما في بداية الغزو الصليبي ،وكان يودّ لو يضمّ قوّة مصر إلى قوّة نور الدين ، لتتكوّن منهما قوة ضاربة تخضد شوكة الصليبيين ، وقد وَجّه طلائع رسالة شعرية إلى صديقه أسامة ، هي في الحقيقة رسالة إلى نورالدين نفسه ، في موضوع توحيد الجيشيْن ضد العدوّ المشترك يقول في تضاعيف قصيدته :

فقُولوا لنور الدِّين لا فُلَّ حدُّهُ ... ولا حكمتْ فيه الليالي الغواشِمُ [2]

تجهَّزْ إلى أرض العدوِّ ولا تَهُنْ ... وتُظْهرْ فتوراً أنْ مضتْ منك حارمُ

فقم واشكر اللهَ الكريمَ بنهضةٍ ... إليهمْ ، فشكرُ اللهِ للخلقِ لازمُ

فنحنُ على ما قد عَهِدْتَ نروعُهمْ ... ونحلفُ جهْداً أنّنا لا نسالمُ

وغارتُنا ليست تُفَتَّرُ عنهمُ ... وليس ينجّي القومَ منها الهزائمُ

وأسطولُنا أضعاف ما كان سائراً ... إليهم فلا حصنٌ لهم منه عاصِمُ [3]

---

(١) طلائع بن رزّيك ، الملقّب بالملك الصالح ، أصله من الشيعة الإماميّة في العراق ، قدم مصر فقيراً ، فترقى في الأعمال حتى ولي وزارة الفائز الفاطمي سنة ٥٤٩ هـ ، واستقل بأمور الدولة ، وجاء العاضد بعد الفائز سنة ٥٥٥ هـ ، فتزوج بنت طلائع ، وقتله غيلة سنة ٥٥٦ هـ . وكان طلائع شجاعاً جواداً شاعراً ، كثير الغزو للصليبيّين ، إذا ما قيس بغيره من زعماء مصر وقتذاك .

(٢) لا فلّ حدّه : يدعو له بدوام العافية والقوّة . الغواشم : الظالمة .

(٣) ليس هنالك حصن للصليبيين يقيهم فتك الأسطول المصري . هذا الادّعاء لا يخلو من مبالغة .

واطّلع نور الدين على هذه القصيدة ، فعهد إلى أسامة بن منقذ أن يجيب عنها ، فتحدّث عن جهاد نور الدين ، وسراياه وأساطيله ، وتفاءل بذلك اليوم الذي يجتمع فيه الملِكان المجاهدان فتفتح البلاد المغلوبة على أمرها ، ويُقضى على الفرنجة :

وقد شمَّر المَلْكان في الله طالبَيْ — رضاه ، بعَزْمٍ لم تَعُقْهُ اللَّوائمُ [1]

بجِدٍّ ، هو العَضْبُ الحُسَام وحدَّهُ — لعاديةِالأعداء والكفْرِ حاسمُ [2]

وقاما بنصر الدين ، واللهُ قائمٌ — بنصرهما ، ما دام للسيف قائمُ

ومادونَ أنْ يَفْنى الفرنجُ وتُفْتَحَ البلاد — سوى أن يُمضيَ العَزْمَ عازمُ

قصيدة أخرى وجوابها

وكتب طلائع إلى أسامة قصيدة ثانية ، ومطلعها :

أبى الله إلاّ أنْ يَدينَ لنا النَّصْرُ — ويخدُمنا في ملكنا العزّ والنَّصْرُ

وتحدّث فيها طلائع عن وقائعه وسراياه إلى الإفرنج ، وأسماء القادة المصريّين ، فيردّ عليها أسامة بقصيدة تحدث فيها أيضاً عن جهاد نور الدين وفتوحاته ، والبلاد التي تمّ تحريرها على يديه ، وعدّد أسماء ملوك الفرنجة الذين قتلهم أو أسرهم أو هزمهم . ومما قال في قصيدته :

أبى اللهُ إلاّ أن يكون لنا الأمْرُ — لتحيا بنا الدُّنيا ويفتخر العَصْرُ

بطاعتنا لله أصبحَ طوعنا الأنام — فما يُعْصَى لنا فيهمُ أَمْرُ

---

(١) لم تعقه اللوائم : لا يخاف في الله لومة لائم .

(٢) الغضب : السيف . عادية : عدوان . حدّ السيف يحسم أي يقطع عدوان الأعداء والكفّار .

جعلْنــا الـجـهــادَ همَّا واشتغالَنا ... ولم يُلْهِنا عنه السَّماع ولا الخَمْــرِ

دماءُ العِدَا أشهى من الرَّاح عندَنا ... ووقْعُ المواضي فيهمُ النَّايُ والوتْرُ

بنا أُيِّدَ الإســلامُ وازدادَ عـــزَّةً ... وذلَّ لنا من بـعـد عزَّتـه الكُفْـــر

ويتحدث عن أمـل نـور الديـن الـذي كـان أمـل كـل المسـلمين ، وهـو استعادةُ البيت المقدس والصَّخْرة المشرّفة :

ونرتجع القُدْسَ المُطهَّرَ منهمُ ... ويُتلى بإذن الله في الصَّخْرة الذِّكْرُ[١]

ويذكر بعض شمائل نور الدين ، ورحمته ، إذ ردّ لأهل الشَّام ممتلكاتهم ، ووضع المكوس عنهم :

بنا استرجع الله البلادَ،وأمَّن العبادَ ... فــلا خــوفٌ عليهــم ولا قَهْــرُ

ردَدْنـا علـى أهـل الشَّـآم ربـاعَهُمْ ... وأمركهم ، فانزاح عنهم بها الفقْرُ

فنـالَهمُ من عَوْدها الخيرُ والغنـى ... كما نالنا مِنْ رَدِّهـا الأجرُ والشُكْرُ

ونحنُ وضعْنا المكسَ عن كل بلـدةٍ ... فـأصبح مسروراً بمَتْجَـرِه السَّـفْرُ

وأصبحت الآفاقُ مـن عَدْلنـا حِمـىً ... فكُدْرُ قطاها لا يروعُها صقْـرُ[٢]

ويتحـدث عـن موقـف بعـض الملـوك المسـلمين ، وينـدِّدُ بإحجـامهم وتردُّدهم ، وبركون بعضهم إلى القول لا الفعـل ، وكأنـه يعـرّض بحكـام مصـر آنئذ ، ويشيد بزهادة صلاح الدِّين :

---

(١) حاوّل نور الدين أن يهيّئ الأسباب لذلك ، ثمّ جاء من بعده صلاح الديـن ، فحقّـق الله على يديه أمل نور الدين .

(٢) الكُدْرة : لون رمادي هو لون الإبل .

فكيف تَسامينا إلى العُلا | وعَزْمُهمُ سِرٌّ ، ووقعاتُنا جَهْرُ
وإنْ وعدُوا بالغزْو نظْماً فهذه | رؤوسُ أعاديهمْ بأسيافنا نَثْرُ
مَلَكْنا الذي لم تحوه كفّ مالكٍ | ولم يغرنا تيهُ الملوك ولا الكِبْرُ
عزفْنا عن الدُّنيا على وجْدِها بنا | فمنها لنا وصْلٌ ، ومنَّا لها هَجْرُ
فقُلْ لملوك الأرض:ماالفخرُ في الذّي | تعدونه من فعلكم ، بل كذا الفَخْرُ

عدم نجاح فكرة اتحاد الجيشين

لم تنجحْ فكرة طلائع وأسامة ؛ لأسباب ، منها أن نور الدين لم يَنْسَ تقصير حُكام مصر في بدايات الغزو الصَّليبيّ ، ومنها أنّ طلائع على حماسته لمجاهدة الصليبيين كان قَوَّالاً أكثرَ منه فعّالاً ، وبخاصّة إذا قيس بنور الدين وجهاده العملي .

وأهمُّ من هذا وذاك أنَّ نور الدين لم يكن يقرّ حُكّام مصر على انبتارهم عن بغداد التي كان يُذْعن لها بالوَلاء التَّامّ ، فهو لا يتعاون مع جيش منشقّ عن الخلافة الشرعية حتى يعود ذلك الجيش إلى إعلان الطَّاعة لها ، وهذا ما حدث بشكل ما على يد صلاح الدين .

على أنّ العمر تقدَّم بأسامة بن منقذ ، وكلّما عَتا عُمُر المرء كان أكثرَ تشبّثاً برأيه ، بصفة عامّة ، وكان رأي أسامة أقرب إلى رأي طلائع ، ولكنّه في شعره نطق بلسان حال نور الدين ، وبعبارة أخرى أعرب عن الموقف الرسمي للسِّياسة الزنكيّة ، وهكذا حدَثْ عدّة أسباب بأسامة كيما يعتزل السياسة ، ويُخْلدَ إلى حياة هادئة في حصن كيفا عند جزيرة ابن عمر ، في الشرق الشَّمالي من القامشلي . السبب الأول : تقدّم عمره ، والسبب الثاني تخالفه مع سياسة نور الدين ، من بعض وجهات النظر ، والسبب الثالث: موقف نور الدين من

الشعراء ، وعدم إعطائهم أو غمْرهم بالمال ، وإيثارهُ أن يُنفق المال على السّلاح والحرْب ، وأشار أسامة إلى طرف من هذا حين قال :

أميرُنا زاهدٌ والناسُ قد زهدوا لـه ، فكلٌ علـى الطاعـات منكمـشُ
أيَّامه مثل شهر الصَّوم طـاهرةٌ من المعاصي وفيها الجـوع والعطـشُ

ولم تكن أيامه أيام جوع وعطش بالمعنى الدقيق ، إنّما لم تكن أيام بحبوحة من العيش ، لأن الرجل كان يواجه جيوش أوربا كلّها ، فهل ثّمة سبيل إلى التَّرَف ؟

خاتمة

جاء بعد نور الدّين صلاح الدّين ، وكان بينه وبين أسامة صداقة قديمة ، فاستدعى الشاعر إلى دمشق ، وأقطعه داراً ، وعُمّر أسامة قرابة قرن من الزمان (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ) . وفي شعره ملامح من الأساليب العباسيّة الفخمة أحياناً ، مع ذلك لم يمثّلْ شعره طموحه الأدبي ، لذلك قال:

كلَّما ردَّدْتُ في شعري النَّظَرْ بانَ ضعْفُ العِيِّ فيه وظهرْ
ليس يُرضيني ، ولا يُمكنُني جحْدُ ما قد شاعَ منه واشتهر
وبه فقرٌ إلى ذي كرمٍ إن رأى ما فيه من عيب سَتَرْ

ولأسامة إضافة إلى ديوانه الشعري مجموعة من الكتب ألّفها .



إعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية – حلب – خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ومُنْشَؤُه

هو عمر بن علي ، وكان عليٌّ فارضاً أيْ يعمل بتوزيع الفرائض وهي المواريث ، وهو من أهل مدينة حماة ، لكنّه هاجر منها إلى القاهرة واستقرّ فيها ، ورزقه الله فيها ابنه عمر سنة ٥٧٦هـ . فهو مصري المولد والمنشأ والمَرْبَى والحياة .

وقد وصله أبوه منذ نعومة أظفاره بدروس العلوم الشرعيّة واللِّسانية ، حتى إذا شبّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوّفة في جبل المقطّم .

وأحسّ ابن الفارض برغبة شديدة في المجاورة بمكّة المكرّمة فرحل إليها ، ومكث فيها خمسة عشر عاماً سائحاً في أوديتها عابداً الله ناسكاً يطلب الفتوحات الإلهيّة ، مكثراً من الصلاة والصّيام ، حتى إذا فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العليّة ، عاد إلى وطنه ،، لكنّه ظلّ يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

يا سميري روِّحْ بمكّة روحي	**شادياً إنْ رغبْتَ في إسعادي**
كان فيها أُنْسِي ومِعْراج قدْسي	**ومُقامي المقام والفتحُ بادِي**

اجتهاده في الرياضة الروحيّة

لزمَ ابنُ الفارض بعد عودته إلى القاهرة مناسك العبادة وبخاصّـة في وادي المستضعفين بـالمقطّم والجـامع الأزهـر ،يذكـر الله تعـالى ويسـبّحه ويعبـده حـقّ عبادته ناسكاً خاشعاً متضرعاً ، شاعراً مـن وقـت إلى آخـر أنـه أصبـح في مقـام الشهود لربّه ، فيشخص بصره ويغيبُ عن كل مـا حولـه غيبـة قـد تطـول أيامـاً وهو لا يسمع صوتاً ولا يرى أحداً ، ولا يشرب ولا يَطْعَمُ ولا ينام ، فقد غاب عن كلّ حواسّه وغمَره نور شهوده للذات العليّة .

ومضى يعكف على التقوى والنّسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة ، فكان الناس يزدحمون عليه إذا سـار في الطُّرقـات يلتمسـون منـه الدعـاء ، وهـو غائب عنهم ، مشغول بحبّه لربّه وبما ينظم في هذا الحبّ من أشعار لعلهـا أروع ما نظمه الصوفية في حبهم الإلهي ، حتى لقّب سلطان العاشقين للذات الرّبانية .

شعره الصوفي

تَمُوجُ أشعارُ ابن الفارض بوجد مُلْتاع لا حدود له ، متّخـذاً لذلـك لغـة العُشّاق العذريّين وما يذكرونه من معـاهد المحبوبـة أي مكّـة المكرّمـة الـتي هبـط عليها النور الإلهي ، وأيضاً ما يذكرونه من نسـيم الصَّبـا المحمَّـل بشـذا المحبوبـة ، وهو في أثناء ذلك يئنّ وينوح آملاً في الوصال ، وأن يشرق عليه النور الرّبّاني ، متجرّعاً غصص الهجر والصدّ والسُّهاد ، ويصيح فيمن تحدّثه نفسه بسـلوك هـذا الطريق المحفوف بما لا يُحْصى من الأشواك والصعاب :

هوالحبّ فاسلم بالحَشا ماالهوى سَهْلُ … فما اختارَهُ مُضْنًى به وله عَقْلُ[1]
وعِشْ خالياً فالحبُّ راحتُه عَنَاً … وأوّله سُقْمٌ وآخِرُه قَتْلُ[2]

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتّخذه رمزاً للحظات الفناء في الذّات العليّة حين يتجرّد الصوفي من حواسِّه ومن كلّ وجودِه فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنّما غاب عن حياته ، بل كأنّما مات بسبب حبّه شهيداً ، وهو موت لا يتحقّق تصوّف بدونه حتى ينمحي المتصوّف في الذات الربانيّة ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى آيات ربّه ، وما يذكّر به يقول :

تراه إن غابَ عني كلُّ جارحةٍ … في كل معنى لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ
في نغمة العود والنّاي الرخيم إذا … تألّفا بين ألحانٍ من الهَزَجِ[3]
وفي مسارح غِزْلان الخمائل،في … بَرْدِ الأصائل،والإصباح،في البَلَجِ[4]
وفي مساقط أنداء الغمام على … بساط نَوْر من الأزهار مُنْتَسِجِ[5]
وفي مساحب أذيال النَّسيم إذا … أهدى إليَّ سُحَيْراً أطيبَ الأرَجِ[6]

فهو يرى الله تعالى وجلالَه في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام

---

(١) مضنى : معذّب .

(٢) عناً : عناء .

(٣) الرَّخيم : اللّيّن الناعم .

(٤) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضّوء .

(٥) الأنداء : جمع نَدَى ، وهو الطّلّ . نَوْر : (بفتح النون) زهر .

(٦) الأرَج : الشذا والرائحة العطرة .

العود والناي المرافقة لألحان المزج ، وفي مشـهد غـزلان الريـاض وقـد انتعشـت قلوبها بأنفاس الأصيل والصَّبـاح ، وفي الأزهـار والـورد ومسـاقط أنـداء الغمـام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسـطة الطبيعـة البهيجـة ، وفي النسـيم يمـلأ الجـوّ سحراً بشذاه وأريجه العطر .

وابن الفارض لا يعبّر بذلك ومثله في أشعاره عـن إيمانـه بوحـدة الوجـود التي كان يؤمن بها غلاة الصُّوفية ، فهو إنّما يقول إن نور الله عـزّ وجـلّ منبـثٌّ في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجلٍّ في كل مناظره ومشاهده ، وذلك هو سرّ وجده وهُيامه وولَهِه بربّه ، ويريد أن يشرق عليه ضياء جماله .

وهو يظلّ يحلُم بشهودِه حُلماً متّصلاً مجاهداً في سبيل ذلك ، محتملاً من العذاب ما يطاق وما لا يُطاق ، متغنّياً بالجمال الرّبّانيّ وما يَصْلَى فيه من هجر ، هاتفاً من فؤاده :

تِـهْ دلالاً فـأنتَ أهـلٌ لذاكـا	**وتحكّمْ فالحسـنُ قد أعطاكـا**
وتلافَى إنْ كـان فيـه ائتلافـي	**بك عجِّلْ بـه ، جُعِلْتُ فداكـا**
فُقْتَ أهل الجَمال حُسْناً وحُسْنَى	**فبهـم فاقـةٌ إلـى معناكـا[1]**

وهو يضيف إلى الـذات العليّـة التحكّـم والـدلال على طريقـة أصحـاب الحبّ العذري ، ولا يلبث أريج الحب الصوفي أن يعبـق في البيـت الثـاني ، فهـو يطلب أن يتلف في حبّه ما دام في تلفه ائتلافٌ بربه المحبوب جلّ جلاله ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المُطْلق في ربّه وجماله الذي يفوق كلّ جمال ، بل إنّ كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلّي في الكون بنوره .

---

(١) فاقة : احتياج .

الخمرة الرمزيّة (الصوفية)

على نحو اتّخاذ ابن الفارض للغزل العذري رمزاً لحبّه الصُّوْفي نراه يتّخذ الخمرة ونشوتها رمزاً لهذا الحب ، ولا خمر ولا كؤوس ولا دنان ولا سقاة ، إنما هو جمال الذات الإلهية الذي شُغِفَ به حتى ليظنّ كأنّما نَهَل من شراب قدسي مسكر ، فهو سكران دائماً منتشٍ غائب عن وجوده . يقول :

شَرِبْنا على ذكر الحبيب مدامةً	**سكِرْنا بها من قبل أنْ يُخْلَق الكَرْمُ**
لها البَدْرُ كأسٌ وهي شمسٌ،يديرُها	**هلالٌ،وكم يبدو - إذا مُزِجَتْ - نَجْمُ**
وإن خطَرتْ يوماً على خاطرِ امرئٍ	**أقامتْ به الأفراحَ وارتحلَ الهَمُّ**
ولو نَضَحُوا منها ثَرَى قبرِ ميِّتٍ	**لعادتْ إليه الرُّوْحُ وانتعشَ الجِسْمُ**

فسُكْرُه بتلك المدامة قديم ، أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمّدية التي يذهب المتصوّفة إلى أنّها تسبق نشأة الكون ، وأنّ أضواء ما زالت تفيض من تلْك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفْس الرسول ﷺ ونفوس المتصوّفة حتى تجلّت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سُكْره بها ونشوته يسبقان الخليقة ، ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد الهمّ ، وتُحيي الروح ، فلو صبّوها على قبر ميّت لدبّت فيه الحياة ، فخمرته إذاً خمرة ربّانية لا تشوبها أي شائبة مادّيّة ، خمر ينتشي بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها نعيم لاحدود له .

وديوانه كلّه من هذا الطّراز : انتشاء وسُكْر وحبّ ووجد ووله والتياع وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعمائة وستين بيتاً أو تزيد ، وهي تائيّتُه الكبرى ، ووصفت بالكبرى تمييزاً لها من تائيّة له أُخْرى صُغْرَى .

تـائيتـه الكبـرى

يصوّر ابن الفارض في هذه القصيدة معْراجه القدسي بمكّـة وفتوحـه الـتي هبطت عليـه هنـاك ، وامّحـاءه حينئـذ في الحقيقتـين : الإلهيـة والمحمّديـة ، حتـى ليتكلّم في بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلّها ببيان شربه من كأس المحبّة الرّبّانيةّ ، ونشوته بها ، ومـا تجشّـمه في معراجـه مـن أهـوال وخطـوب ومحـن ، وكلّهـا كمـا يقـول ، منحٌ مـن ربـه وعطايـا اجتازهـا في معراجـه ، خالصـاً إلى الامّحاء (الانمحاء) والفناء في الذات العليّة :

ولـم تَهْوَنِـي مـا لـم تكـنْ فـيَّ فانيـاً	ولم تَفْنَ ما لم تُجْتَلَبْ فيك صورتي
كلانـا مُصـلٍّ واحـد سـاجدٌ إلـى	حقيقتِـه بـالجَمْع فـي كـلّ سَـجْدةِ
وما كان لي صلَّى سوايَ ولم تكـنْ	صلاتـي لغيري فـي أدا كلّ ركْعـةِ

وكأنه يشعر في البيت الأوّل أنه لا يزال دون الحبّ الإلهي لاتِّصاله بـل لاتِّصافه بالصفات البشرية . ويقول في البيت الثـاني إنهـا ينبغـي أن تُمْحَـى فيـه حتى يفنى في الذّات الرَّبانيّة ، وتتجلّى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبـث أن يقـول في البيت الثالث إنّ حواسّه تعطَّلتْ وتعطّلتْ فيه كلّ إرادةٍ وشعور ، حتـى فَنِـيَ فناءً مُطْلقاً في ربّه ، متخطّياً مرتبـة الصَّحْـو إلى مرتبـة الشـهود أو كمـا يسـمّيها الجَمْع ، وكأنَّما يصلّي لنفسه أو لربّه متجلّياً فيه ، يقول :

وطاح وجودي في شهودي ونبْتُ عن	وجودِ شهودي ماحياً غيرَ مُثْبِتِ
وفي الصَّحْو بعد المَحْوِ لم أكُ غيرهـا	وذاتـي بذاتـي إذْ تجلَّـتْ تَجلَّـتِ

فهو قد انمحى وفني فناء كلّيّاً في الذات العليّة ، وبلغ من هذا الانمحاء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتريه في حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الرّبّاني ، بل أيضاً يعتريه في حال الصحو ، وهو دائماً يعلن أنّه متمسّك أشدَّ التَّمَسُّكِ بالكتاب وأداء الفرائض الدينية وبالسّنّة النَّبَوِيَّة ، فمنها يستمدّ في كل موارده الروحيّة .

استدلاله على مذهبه بالسّنّة الشريفة

وجاء حديثٌ في اتّحاديَ ثابتٌ — روايتُه في النَّقْل غيرُ ضعيفَةِ

يشيرُ بحبِّ الحقّ بعد تقرُّبٍ — إليه بنَفْلٍ أو أداءِ فريضةِ

وهو يشير إلى الحديث القدسي : "ما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أَحَبَّ إليَّ من أداء ما افترضْتُه عليه ، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافلِ حتّى أحبَّه ، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ويده التي يبطشُ بها ، وإنْ سألني أعطيتُه ، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه" .

ومات ابنُ الفارض سنة ٦٣٢هـ .

الطابع البدوي

يتَّسِمُ كثير من شعر ابن الفارض بالطابع البدوي العربي ، سواء فيما كان يتعلّق بالأماكن الحجازية التي استكثر من إيرادها ، أم في اللغة التي استعملها ، يقول في تائيّته الصُّغْرى :

نعمْ بالصَبا قلبي صَبا لأحبّتي	**فيا حبذا ذاك الشَّذا حين هبَّتِ**[1]
سرَتْ فأسرَّت للفؤاد غُدَيَّةً	**أحاديثَ جيرانِ العُذَيب فسَرَّتِ**[2]
مهينمةً بالرَّوْضِ لَدْنٌ رداؤها	**بها مرضٌ مِنْ شأنه بُرْءُ عِلَّتي**[3]
أيا زاجراً حُمْرَ الأوارك تاركَ الـ	**موارك من أكوارها كالأريكة**[4]
لكَ الخيرُ إنْ أوْضَحْتَ تُوْضِحَ مُضْحياً	**وجُبْتَ فيا في خَبْتِ آرامِ وَجرة**[5]
ونكَبْتَ عن كُثْبِ العريض معارضاً	**حُزوناً لحَزْوَى سائقاً لسويقةِ**[6]
فلي بين هاتيك الخيام ضَنِينةٌ	**عليَّ بجَمْعي ، سمحةٌ بتشتُّتي** [7]

والنصّ فيّاضٌ بألفاظ الديار الحجازية والبادية النَجْديّة ، مثل العذيب ، وتوضح ، ووجرة ، وحزوى ، وفيها من الألفاظ البدوية الأوارك والموارك ، والأكوار ، وخبت آرام ، وسائقاً لسويقة ، والخيام .

وفي النصّ مجانسة بين سَرتْ : أي سارت ليلاً ، وأسرَّتْ : تحدّثتْ خفيّة ، وسَرَّت : من السرور .

---

(١) صبا : أحبّ وهفا . الشَّذا : الطِّيْبُ .

(٢) غديّة : صُبْحاً باكراً . العذيب : اسم ماء .

(٣) الهينمة : الصوت الخفيّ . لدْن : ليّن رِخْو .

(٤) الأوارك : الإبل . الموارك : موضع التورّك على الرحال . الأكوار : جمع كور وهو الرَّحْل . الأريكة : السرير .

(٥) أوضحت : أشرفت على . توضح : اسم موضع . مُضْحياً : وقت الضحى . جُبْت : طُفْتَ ، قطعْت . فيافي : صحاري . خبْت : واد . آرام : ظباء . وجرة :اسم موضع .

(٦) الكثب : جمع كثيب : منقطع الرمل . نكّبت عن : عدَلت عن . العريض : اسم موضع . الحزون : جمع حَزْن ، الأرض الصخرية . حزوى : منطقة . سويقة : ركب .

(٧) ضنينة بجمعي : بخيلة بوصلي .

ومجانسة أيضاً بين الأوارك وهي الإبل ، والموارك : مواضع التورّك ، والأكوار : الأرْحُل ، والأريكة : السرير .

وبين أوضحْت : أي أشرفتْ على . وتوضح : اسم موضع ومضْحياً : أي وقت الضحى .

وبين جُبْت : أي طُفْت ، وخبْت : وهو بطن الوادي .

وبين العُرَيض : اسم موضع ، ومعارضاً : أي سائر من جهة العَرْض .

وبين "حزوناً" وهي الأراضي الصُّلْبة ، وحزوى : اسم موضع . وهو يطابق بين مرض وبُرْء ، وزاجراً وتارك . ويردّ العجز على الصدر في (سَرَتْ .. فسَرَّتِ)

وفي بيته الأول :

نعمْ بالصَّبا قلبي صبا لأحبَتي فيا حبذا ذاك الشَّذا حين هبَّتِ

تصريع بين أحبتي وهبّت ، وترصيع بين حبذا والشَّذَا .

المحسنات البديعية

يتّضح في الأبيات السابقة ملامح المظهر البدوي من جهة ، والإكثار من الصِّناعة الشعرية من صور ومحسّنات من جهة أخرى .

وكان الشاعر يكثر من المحسّنات البديعية ، في كل قصائده بصفة عامّة ، على شاكلة قوله :

غيري على السُّلْوان قادرْ		**وسواي في العُشَّاق غادِرْ**
لي في الغرام سريرةٌ	–	**واللهُ أعلمُ بالسرائرْ**
ومشبَّهٍ بالغصن قلبي	–	**لا يزال عليه طائرْ[1]**

---

(١) في كلمة طائر تورية ، لأنّه يريد اسم الفاعل من طار .

طرفي وطَرَفُ النجمِ فيك كلاهما ساهٍ وساهر[1]

فليس ثمّة بيت ليس فيه محسّن بديعي أو أكثر ، ففي البيت الأول تصريع ، وفي الثاني ردّ العجز على الصدر ، وفي الثالث تورية ، وفي البيت الأخير جناس ، وفي قوله طرف النجم استعارة ، وهي صورة بيانية .

القوافي الصعبة

الشاعر ابن الفارض متمكّن من ناصية الشعر ، متصرّف فيه بسهولة ويُسْر ، ومن مظاهر ذلك أنه ينظم في القوافي الصعبة ، والرَّوِيّات النادرة ، مثل الذال :

صَدٌّ حمَى ظَمَئِي لَمَاكَ لماذا وهواكَ قلبي صار منه جُذاذا[1]

إنْ كانَ في تلفي رضاك صبابةً ولكَ البقاءُ وجَدْتُ فيه لَذَاذا

قالَ العواذلُ عندما أبصرْنَهُ إنْ كانَ مَنْ قَتَلَ الغرامُ فهذا

ظاهرة التَّصغير

يُكثر الشاعر من أسلوب التَّصغير وبخاصّة في قصائده الغزلية ، عندما يخاطب محبوبه أو يتحدّث عنه ، وهدفه تدليل محبوبه وتجميل اسمه واستعذابه ، فإذا بك ترى سليمى وحبيّباً وظبيّاً ورشيّاً وشُذَيّاً ودُوَيّاً ، وأُهَيْلاً وأصيحاباً وليْلاً وعريباً وأبَيْرقاً ، وهي تصغير سلمى وحبيب وظَبْي ورشأ وشذا ودواء وأهل وأصحاب وليل وعرب وأبرق .

---

(١) ساهٍ : من سها يَسْهو .

(١) لَماك : اللَّمى : بفتح اللام سُمرة الشَّفة ، وبكسرها : جار ومجرور أي ظمأ إلى مائك أي إلى رضابه . جذاذ : قطع .

ويصرّح ابن الفارض بغايته من التصغير في قوله :

عوّذْتُ حبيّبي بربّ الطور ... من آفة ما يجري من المقدور[1]

ما قلتُ حبيّبي من التحقيرِ ... بل يعذب اسم الشخص بالتّصغير

المبالغة

يجنح ابن الفارض كثيراً إلى أسلوب المبالغة ، سواء حين يصف أسقامه أم أحزانه أم نحوله ... :

وَهَى جسدي ممَّا وهَى جَلَدِي لذا ... تحمُّلُهُ يَبْلَى وتَبْقَى بليّتي[2]

وعدتُ بما لم يُبْقِ منيَ موضعاً ... لِضُرٍّ لِعُوّادٍ حضوري كغَيْبتي

كأنّي هلالُ الشّكِّ لولا تأوُّهي ... خَفِيتُ فلم تُهْدَ العُيونُ لرؤيتي

نَحرتُ لضيفِ الطّيفِ في جفنيَ الكرى ... قِرىً فجرى دَمْعِي دَماً فَوْقَ وجنتي[3]

ويقول :

هوىً عبرةٌ نمّتْ به وجوىً نَمَتْ ... به حُرَقٌ أدواؤها بيَ أوْدَتِ[4]

فطوفانُ نوح عند نَوْحي كأدمعي ... وإيقادُ نيران الخليل كلوْعتي[5]

ولولا زفيري أغرقَتْنيَ أدمعي ... ولولا دموعي أحرقَتْنيَ زفرتي

وحُزْنيَ : ما يعقوبُ بثَّ ،أقَلُّهُ ... وكلُّ بِلى أيُّوبَ بعضُ بليَّتي[6]

---

(١) عوَّذْتُ : حصّنْتُ . حُبيّب ، بتشديد الياء : تصغير حبيب . الطور : جبل في سيناء .

(٢) وَهى : أنحل وأضعف .

(٣) الطّيْف : الخيال ، الذكرى . الكرى : النوم . القِرى : طعام الضيف .

(٤) نمّ به : وشى به . جوى : شوق ، ألم الحبّ . نَمتْ به : أخبرت به . أدواء : جمع داء . أودتْ : أهلكت .

(٥) نَوْح : بكاء .

(٦) بثّ : شكا . بليّة : مصيبة .

فقد كشفت عبراتُه هواه ، وأبدى تحرُّقُه أشـواقه وتبـاريح هـواه ، وهـي تباريح قتلتْه قتلاً ، أو كادتْ ، ويقول إن أدمعه من الوجْـد غزيـرة كثـيرة ، ولا يشبهها شيء إلا طوفان نوح عليه السلام ، والنَّار التي أضرمها النمرود لإحـراق إبراهيم الخليل عليه السلام تشبه نـار لوعتـه المشبوبة ، ودموعـه كفيلـة بإغراقـه غرَقًا ، ونيرانه كافية بإحراقه إحراقاً ، لكن دموعه تسلَّطْت علـى نيرانـه ، فوقتْـه شرّ إحراقها ، واستوعب الإطفاء مياه عبراته ، فكُفِيَ إغراقها . ثم يمضي مصوّراً أحزانه وبلاءه ، فأقلّ أحزانه يعدلُ بثَّ يعقوب والـد يوسـف عليهمـا السَّـلام ، وما ابتلي به أيوبُ عليـه السـلام حـين مسّـه الضـرّ في بدنـه ، ومالـه ، وولـده ، وأهله : لا يعدل إلا جزءاً من ابتلاء ابن الفارض .

المبالغة في التصوير

في شعر ابن الفارض صـور كثيرة ، وهـي صـور يتّكـئ عليهـا لإيضـاح معانيه غير المادّيّة غالباً ، ولكنّه يبالغ فيها أو في مدلولاتها ، كما في قوله مصوّراً تباريح حبّه :

خَفِيْتُ ضنىً حتّى خَفَيْتُ عن الضّنَى	**وعن بُرْءِ أسقامي وبَرْدِ أُوامـي[1]**
ولـم يُبْـقِ منّـي الحُـبُ غـيرَ كآبـةٍ	**وحُـزْنٍ وتـبريحٍ وفَـرْطِ سـقام**
ولم أدْرِمَنْ يدري مكاني سوى الهوى	**وكتمان أسراري ورعْي ذمـامي[2]**
فأمّـا غرامــي واصطبـاري وسـلوتي	**فلم يَبْقَ لي منهـنّ غيرُ أسـامي[3]**

(١) ضنى : ألمًا وشقاء . أوام : حرارة العطش .

(٢) الذمام : الذمّة .　　　(٣) السَّلْوة : السلوان ، التسلّي عن المصيبة .

فالشاعر لم يَخْفَ إنّما أحس بالخفاء من الشّقاء ، ويجسّد الضّنى ، ليتوارى عنه ، ويصوّر لنا نفسه وقد فنيت معالمه و لم يبق منها إلا بعض معاني الحزن والألم والمرض ، ويشخّص الهوى فإذا هو امرؤٌ يدري ويعلم ...

انتشار شعره ، وظاهرة الإيقاع الموسيقي عنده

ذاع شعر ابن الفارض في الآفاق ، وأقبل عليه المتصوّفة يستظهرونه ويعلّمونه أبناءهم ، ويحفّظونهم قصائده ، وكثيراً ما رتّله المؤذّنون من أعالي المآذن في الأسحار ، وكانت موسيقاه موفّقة ، مؤثّرة ، جعلته محبّباً إلى العامّة ، حتّى كانوا يعقدون مجالس لاستماع الأناشيد الفارضيّة ، من ذلك أنّ الناس كانوا يحتشدون في بيت الصّوّاف في حيّ الحسين بالقاهرة ليسمعوا الشيخ الحويصي وهو يتغنّى بقصيدة ابن الفارض :

ما بين معتَركِ الأحداقِ والمُهَجِ   أنا القتيل بلا إثمٍ ولا حرَجِ
ودَعْتُ قبل الهوى روحي لِمَا نظرتْ   عيناي من حُسْنِ ذاك المنظَرِ البَهِج

وما يزال المنشدون يلحّنون أو قل يترنّمون بقصيدته :

سائقَ الأظعانِ يطوي البيدَ طيّ   منعماً عرِّج عل كُثْبان طيّ

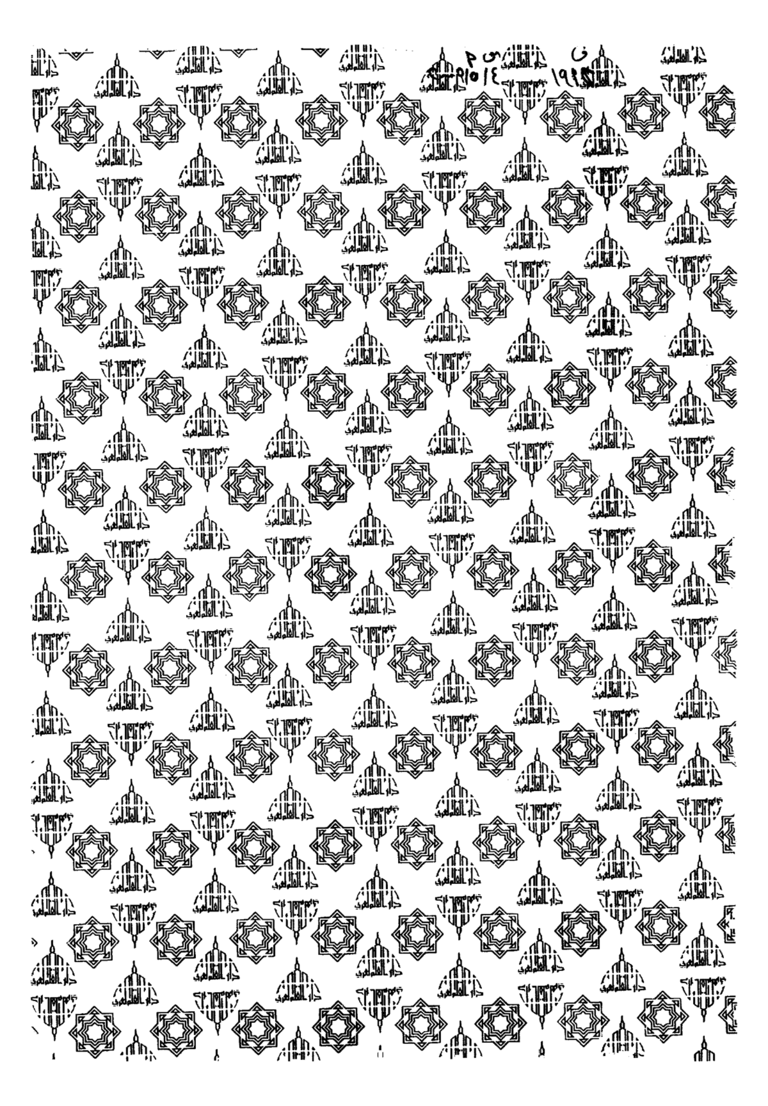
وقد أقبل بعض الشعراء المعجَبين بابن الفارض ، فشرحوا ديوانه ، وأشهرهم حسن البوريني ، وشرحه يقتصر على ظاهر المَعْنى ، وعبد الغني النابلسي ، وكان عبد الغني من كبار المتصوّفة ، فشرح الديوان بحسب مصطلحات أهل هذه الطريقة ، ولم يكتف النابلسي بالشَّرْح ، وإنّما شطّر بعض قصائد ابن الفارض ، مثل رائيته :

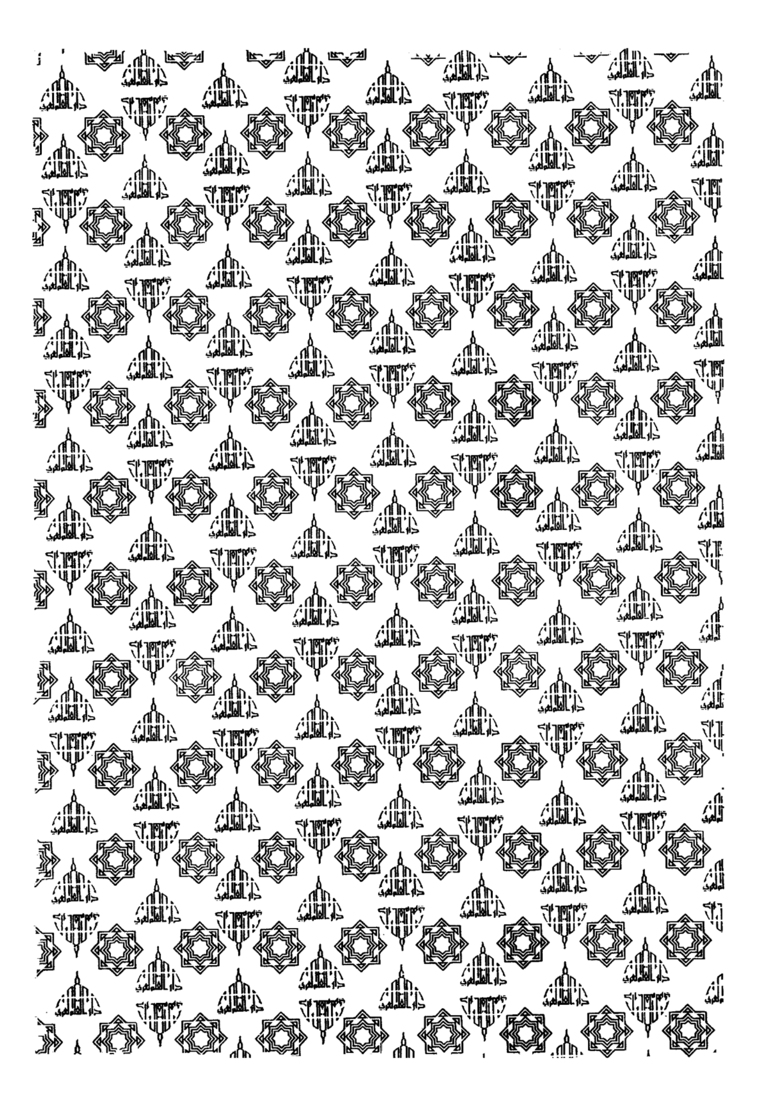
زدني بفَرْط الحبّ فيك تحيُّرا	**وارحم حشاً بلظى هواك تسعّرا**

فقال النابلسي :

زدنـي بِفـرْط الحـبّ فيك تحـيُّرا	**يا مَنْ سبى بجمال طلعته الـورى**
وارفق بجسم من صدودكَ ناحلٍ	**وارحم حشاً بلظـى هـواك تسـعّرا**

على أن بعض العلماء رفضوا طريقة ابن الفارض لما توهمُه من .. مظاهر الاتّحاد ووَحْدة الوجود ، وانحصر انتقاد علماء آخرين بأن ابن الفارض أوى إلى عُزْلته وأخلد إلى زواياه في الوقت الذي كانت فيه الأمّة الإسلامية تواجه عدواناً شرساً من كل أنحاء أوربّا ، وهو عدوان كـان يقتضـي مـن شـباب الإسـلام أنْ يتصدَّوْا له بكل بأس ، ونحن لا نرى في شعر ابن الفارض ولا في سيرته شيئاً مـن ذلك .







شعراء العصر العباسي الثاني

١ - البُحتريُّ
٢ - ابنُ الروميّ
٣ - عبدُ الله بنُ المعتزّ
٤ - ابنُ دُرَيْد
٥ - عليُّ بنُ الجَهْم
٦ - الصَّنوبَريُّ
٧ - المتنبّي
٨ - أبو فراسٍ الحمدانيُّ
٩ - الشَّريفُ الرضيُّ
١٠ - أبو العلاءِ المعرّيّ
١١ - الأبيوَرْدي
١٢ - الطُّغْرائي
١٣ - ابن القَيْسَراني
١٤ - ابنُ منيرٍ الطّرابُلسي
١٥ - أسامةُ بنُ مُنْقِذ
١٦ - عمرُ بنُ الفارضِ

يسرّنا أن نقدم لقارئنا مجموعةً جديدة من سلسلة تاريخ شعراء العربية ، تتناول الحديثَ عن ستةَ عشر شاعراً من شعراء العصر العباسي الثاني ، الذين كان لهم دورٌ بارز في حفظ التراث العربي وصونه.

وقد توخّينا الدقّة والموضوعية في أثناء ترجمتهم وعرض قصائدهم ، لـ... الناشئة على قراءة هذه المجموعة بينهم ، فتكون لهم زاداً لغوياً وأدبياً ، ولت... فيهم حبَّ المطالعة والاغتراف من معين الأدب .

والله من وراء القصد

الناشر



دار القلم العربي